

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



ماليز روثقن



أكاديمية

## من مواضيع الأطلس:

- العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام
- \* رسالة النبي محمد ﷺ و غزواته \*
  - السنة، والشيعه، والخوارج \* الخلافة
  - العباسية \* انتشار الإسلام \* الشرع
  - الإسلامي واللغة العربية \* الدولة
  - الفاطمية \* طرق التجارة \* الممالك
  - الصليبية \* الطرُق الصوفية \* الأيوبيون
  - والممالك \* الغزو المغولي \* المغرب
  - وإسبانيا \* الدول الجهادية \* السلطنة
  - العثمانية \* إيران \* آسيا الوسطى \*
  - التوسُّع الروسي \* انتشار الإسلام في
  - جنوب شرقي آسيا \* السيطرة الاستعمارية
  - \* البلقان \* تنامي الحجّ \* مدن متمدّنة \*
  - تأثير النفط \* الموارد المائية \* تجارة
  - السلاح \* العراق \* أفغانستان \* إسرائيل -
  - فلسطين \* المسلمون في أوروبا الغربية \*
  - المسلمون في أميركا الشمالية \* الغنون
  - الإسلامية \* توجُّع المسلمين في العالم \*
  - السينما الإسلامية \* المواقع الأثرية
- الإسلامية





الأطلس التاريخي  
للعالم الإسلامي



# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي



تأليف  
ماليز روئفن

بمشاركة  
عظيم نانجي

نقله إلى العربية واعتنى بخراائطه  
سامي كعكي

أكاديمية

# الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي

© أكاديميا إنترناشيونال، 2007

ISBN: 9953-3-377-9

جميع الحقوق محفوظة

Historical Atlas of The Islamic World

© Oxford University Press 2004

was originally published in English in 2004.

This translation is published by arrangement with Oxford University Press.

تنشر الترجمة العربية بترخيص من دار النشر الانكليزية أكسفورد

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماتاً.

أكاديميا إنترناشيونال Academia International  
شارع فردان، بناية بنك بيبلس Verduin St., Byblos Bank Bldg.  
ص.ب. P.O.Box 113-6669  
بيروت، لبنان Beirut 1103 2140 Lebanon  
هاتف 800811 - 862905 - 800832 (961 1)  
فاكس 805478 (961 1)  
بريد إلكتروني academia@dm.net.lb

[www.academiainternational.com](http://www.academiainternational.com)

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال  
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International



# المكتويات

108	الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية .....	6	مقدمة .....
110	الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر .....	14	العقائد والعبادات الأساسية في الإسلام .....
112	تحديث تركيا .....	16	الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي .....
116	العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالي العام 1920 .....	20	اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية .....
118	البلقان وقبرص وكريت (1500-2000) .....	24	العصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام .....
122	الأقلية المسلمة في الصين .....	26	رسالة محمد وقرآنه العربية .....
124	المشرق (1500-2000) .....	28	توسُّع الإسلام حتى عام 750 .....
128	مشاهير الرحالة المسلمين .....	30	انتشار الإسلام (751-1700) .....
132	بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر .....	34	السُّنة والشيعَة والخوارج (660-نحو 1000) .....
136	فرنسا في شمال إفريقيا وغربها .....	36	الخلافة العباسية في ظل هارون الرشيد .....
138	نمو الحج وتطوُّر المشاعر المقدسة .....	38	انتشار الإسلام والشروع الإسلامي واللغة العربية .....
142	مدن ممتدة .....	40	الدول الوريثة إلى العام 1100 .....
146	وقع النفط في القرن العشرين .....	44	العصر السلجوقي .....
148	الموارد المائية .....	46	التجنيد العسكري (900-1800) .....
150	تجارة السلاح .....	50	الدولة الفاطمية (909-1171) .....
152	إضاءة سريعة: جنوب شرقي آسيا (1950-2000) .....	52	طرق التجارة (نحو 700-1500) .....
154	إضاءة سريعة: العراق (1917-2003) .....	56	الممالك الصليبية .....
156	إضاءة سريعة: أفغانستان (1840-2002) .....	58	الطرق الصوفية (1100-1900) .....
158	الجزيرة العربية والخليج (1839-1950) .....	62	الأيوبيون والمماليك .....
160	صعود الدولة السعودية .....	64	الغزو المغولي .....
162	إضاءة سريعة: إسرائيل - فلسطين .....	66	المغرب وإسبانيا (650-1485) .....
164	إضاءة سريعة: الخليج (1950-2003) .....	70	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - شرقاً .....
166	المسلمون في أوروبا الغربية .....	72	إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً .....
168	المسلمون في أميركا الشمالية .....	74	الدول الجهادية .....
170	المساجد وأماكن العبادة في أميركا الشمالية .....	76	المحيط الهندي إلى العام 1499 .....
172	الفنون الإسلامية .....	80	المحيط الهندي (1500-1900) .....
176	أبرز المواقع المعمارية الإسلامية .....	84	صعود العثمانيين حتى 1650 .....
180	توزُّع المسلمين في العالم (عام 2000) .....	88	الأمبراطورية العثمانية (1650-1920) .....
184	السينما الإسلامية .....	92	إيران (1500-2000) .....
186	استخدام الإنترنت .....	94	آسيا الوسطى إلى العام 1700 .....
188	جدول زمني بأهم الأحداث الإسلامية .....	96	الهند (711-1971) .....
		102	التوسع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى .....
		106	انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا (نحو 1500-1800) .....

## مقدمة

من مدن العالم ومنتجعاته السياحية، نذكر منها: نيويورك، دار السلام، مومباسا، الرياض، الدار البيضاء، بالي، تونس، جاكرتا، مومباي (بومباي) ومدريد. اللوحة تطول، وحجم الإجابات أخذ بالارتفاع، فيما يكسفن الغضب والخيرة ردود فعل الشعوب وحكوماتها. وأحسب أن التداعبات البعيدة المدى لرود الفعل هذه على السلم والأمن الدوليين كافية لإقناع كل فرد منا (وليس فقط محرزي وسائل الإعلام الذين يَقبلون وعي الجمهور بما يَلائم أولويات المعلنين لديهم)، أن المظاهر المتطرفة للإسلام هي من يضع أجندة النقاش وجدول الأعمال في القرن الحادي والعشرين.

إن المسلمين الذين يقيمون في الغرب، أو في تلك المناطق الأخذة بالاتساع من العالم الإسلامي التي تغشها المؤثرات الإلكترونية للحرب، ليسعرون بالامتعاظ من التعرض السلبي لهم، هذا التعرض المصاحب عادة للقلق المتزايد من الغرباء الطارئين. إن

قلماً يمر يوم، منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، إلا ويذكر فيه الإسلام، دين ما يقارب خمس البشرية، في وسائل الإعلام، في ذلك اليوم، خطف إرهابيون أربع طائرات ركاب أمريكية وصدموها بها برجتي مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون بالقرب من واشنطن، مما أتى إلى مقتل زهاء ثلاثة آلاف شخص، ودفع الولايات المتحدة وحلفاءها إلى إعلان ما يسمى «الحرب على الإرهاب»، التي أسفرت حتى الآن عن القضاء على حكومتين إسلاميتين، واحدة في أفغانستان والأخرى في العراق. وهكذا برز الإسلام فجأة، في كل أنحاء العالم، موضوعاً للتليل والنقاش، واتسمت السجلات على أعمدة الصحف كما في استديوهات الأخبار، في المقاهي كما في البيوت، بالحدة والسخونة. والأسئلة التي كانت تدور فيما سبق داخل أروقة المؤتمرات الأكاديمية وندوات التخرج الجامعية، دخلت الآن في صميم المهوم السائدة للوعي العام: ما هي «شريعة الجهاد» وكيف حدث أن صار «دين مسالم»، ينتسب إليه ملايين المؤمنین السعاديين والمحترمين، أيديولوجيا للحقد والكراهية لدى أقلية ساحقة؟ ولماذا أضى الإسلام بعد سقوط الشيوعية مشحوناً هكذا بالحدة الانفعالية؟ أو، إذا ما شئنا استخدام عنوان مقالَةٍ لاقت رواجاً واسعاً لمعيد المستشرقين، برنارد لويس: «ما وجه الخلل» الحاصل في التاريخ الإسلامي، في علاقته بنفسه كما في علاقته بالعالم الحديث؟

أسئلة من هذا الضرب لم تعد بعد الآن أكاديمية بحتة، بل أضحت على درجة كبرى من الأهمية، وموضع أخذ ورد بالنسبة لمعظم الأمم والشعوب على سطح كوكبنا هذا، فالإسلام، أو قل بعض التقنوعات منه – سواء أكانت مشوهة، أم منحرفة، أم فاسدة أم رهينة أناس متطرفين – بات اليوم قوة يُعتد بها، أو على الأقل سمة تُلصق بظاهرة حُبلى بإمكانيات واحتمالات بالغة الخطورة.

قبل 11 أيلول/سبتمبر وبعده، وقعت العديد من الغلطعات والأعمال الوحشية التي نُسبت إلى متشدين إسلاميين، أو التي اعترفوا هم أنفسهم بمسؤوليتهم عنها، فأوقعت الأذى الفادح والدمار الشديد بالعديد

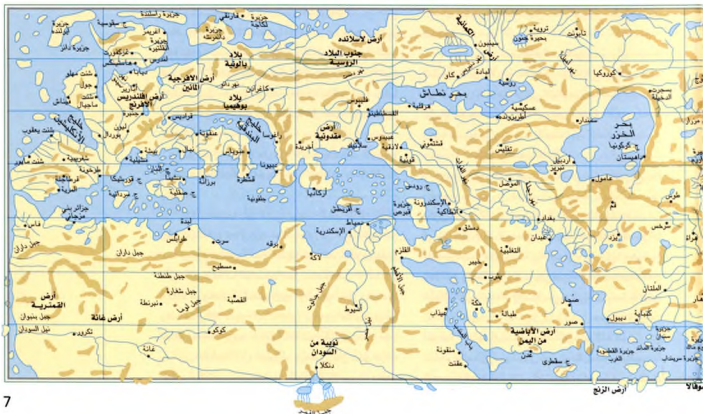


الإسلام دينُ سلام: لفظة «إسلام» التي تعني حرفياً التسليم (لأمر الله)، تتصل من الوجهة الاشتقاقية بعبارة «سلام» التي تعني السلم والصلح. والتحية المتعارف عليها التي يستخدمها معظم المسلمين لدى انضمامهم إلى تجمع ما، أو حتى لدى التقائهم بغريباء عنهم، هي: «السلام عليكم». يمكن القول إن الغربيين ممن يهتمون بالإسلام بأنه دين عنفر يجهلون حقيقته. والصاق التعت «مسلم» أو «إسلامي» بأعمال الإرهاب ينطوي على ظلم وافتئات شديدتين. حين أقدم مهووس مسيحي ذو ميول يمينية كتيموثي ماكفاي على تفجير مبنى فيدرالي أميركي في مدينة أوكلاهوما، وكان أسوأ عمل فظيع يرتكب على التراب الأميركي قبل 11 أيلول/سبتمبر، لم يصادر أحد إلى وصفه بالإرهابي «المسيحي». إن العديد من المؤمنين المسلمين لينظرون إلى «الغربيين» ممن تخلوا عن دينهم أو أعاصموا التحامل الديني، على أنهم أناس لا «يفهمون» الإسلام حق الفهم. وثمة وسائل إعلامية معادية لا تتورع عن تشويه الآراء الغربية، فتصنع المشاعر والمواقف بصيغة «الإسلاموفوبيا» (الهللع

المرضى من الإسلام)، أو المرادف لمعاداة السامية إنما مُطبَّقة هذه المرة على المسلمين بدلاً من اليهود. بعض الدارسين ممن تدرجوا في الأكاديميات الغربية، مُتهمون بأنهم يرون الإسلام من خلال العدسات المشوَّهة للاستتراق. ذلك العلم الذي تطرق إليه الفساد نظراً لارتباطه بالإمبريالية، حين كانت المعرفة المتخصصة مسخَّرة لخدمة القوة والتنفوذ الاستعماريين.

هذا مجالٌ محفوظ بالمخاطر ومُتنازع عليه، ومن يُغامر بدخوله من الكتاب إنما يُعرض نفسه للخطر. فأني تعميم بشأن الإسلام، مثله مثل أي دين آخر، يكون عُرضةً للنفذ والدمحض، لأن مقابل كل وصف معياري للإيمان أو الاعتقاد أو السلوك الإسلامي، توجد تنوعات مهمة وفروق ذات شأن. وتزداد معضلة التعريف صعوبة لعدم وجود مؤسسة «كنسية» جامعة أو «باباوية» إسلامية تتمتع بسلطة أمرية تفصل في ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي (حتى الكنائس البروتستانتية تميَّز مواقعها الدينية بالتغاير وأحياناً بالتضاد مع الكاثوليكية الرومانية).

العالم كما رآه الإبريسي  
(451 هـ / 1049 م)



ثانيةً بصفتها «المهدي المنتظر» في يوم ما من مقبل الأيام.

أهل السنة، من جهة أخرى، يرون أن النبي قد أعطى إشارات كافية على أنه يجيء خلفته أحد أصحابه، أبا بكر الصديق (حوالي 632-634)، الذي اتفق أبرز قادة الجماعة على القبول به خليفةً بعيد وفاة الرسول. وهو بدوره اختار عمر بن الخطاب (ح 634-644)، الذي وقع اختياره، وهو على فراش الموت، وبعد التشاور مع زعماء المسلمين، على عثمان بن عفان (ح 644-656). وقد خلف عثمان علي (ح 656-661)، ومجدداً بموافقة وقبول قادة المسلمين في ذلك الحين. وفي نظر الغالبية السنية، يمثل هؤلاء الخلفاء الأربعة «الخلافة الراشدة».

وعلى مرّ الأيام، صارت لكل من الشيعة والسنة هوية اجتماعية مميزة لهم. وقد انقسمت هاتان الطائفتان وتفرعتا فروعاً شتى، وانتظمتا في حركات ونزعات مختلفة. ولئن اختلفت هذه وسواها من المجموعات فيما بينها، وكثيراً ما تصارعت حول تفاريقها، إلا أن الاتجاه العام للعلاقات التي سادت المجتمعات الحضرية ما قبل العصر الحديث أفسح في المجال لقدرة التعاضل المتبادل والحوار الفكري بينها.

إلا أنه برزت لدى الطوائف المتشددة والجماعات المتطرفة، في الآونة الأخيرة، نزعة إلى لعن الخصوم في الدين وتكفيرهم، أو إلى اتهام من يحكمها بالمرورق من الإسلام، غير أن هذا المنظور الضيق الأفق يُغالبه وعي متنامٍ بين السواد الأعظم من المسلمين بتنوع وتعددية التأويلات داخل الأمة.

وجو اللاتسامح الهادي للعيان في بعض أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، ذو منشأ معقد وقد يكون عرضياً، شأن التطرف الطهراني الذي استغل في أوروبا القرن السابع عشر من جراء المعامل المشوشة للتحوّلات الاقتصادية والاجتماعية. وكما ستوضّح الخرائط والنصوص فيما يلي من صفحات، فقد جاءت الحداثة إلى العالم الإسلامي على أجنحة القوى الاستعمارية، عوضاً عن أن تكون حصيلة تحولات متولدة داخلياً. ف «خير أمة» أخرجها الله للناس كي «تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر»، فقدت الهيمنة الأدبية والسياسية التي كانت لها ذات يوم في الجزء

والهوية الإسلامية، شأنها شأن الهوية اليهودية، تشمل السلف كما تشمل المعتقد. فمن يُسمون مسلمين إنما يُمارسون دينهم بطرق مختلفة. فبوسع المرء أن يكون مسلماً من الوجهة الثقافية، تماماً مثلما يستطيع المرء أن يكون يهودياً بالمعنى الثقافي، من غير أن يتقيد بمجموعة معينة من الغرائز أو المعتقدات الدينية. وإنا لا نجانب الصواب إذا ما وصفنا العديد من الأميركيين والأوروبيين غير المتدينيين بـ«المسيحيين الثقافيين»، نظراً للأهمية التكوينية التي كانت للمسيحية في تطوّر الثقافة الغربية. وحقيقة أن هذه التسمية نادراً ما تُستخدم – هذا إذا ما استُخدمت أصلاً – لتكشف عن مدى الهيمنة الثقافية الغربية وطموحها إلى تبوء سدة العالمية.

إن الأساس المسيحي للثقافة الغربية هو من البداهة بمكان بحيث لا يجتُم أحد نفسه عناء إبرازه للعيان. وفي الوقت عينه، لطالما انتحلت لفظة «مسيحي» من قبل الأصوليين البروتستانت الذين يسعون جاهدين إلى تمييز أنفسهم عن الإنسويين العثمانيين أو المؤمنين المتدينين على السواء، ممن لا يشاطرونهم نظرتهم العامة إلى الأمور.

ثمة مشاكل مماثلة بصدد التعريف تسري على العالم الإسلامي كذلك. فكما أن هناك تباينات وفوارق لاهوتية ما بين الكنائس المسيحية المختلفة حول شتى المسائل الإيمانية والطقسية، كذلك تقوم داخل حظيرة الإسلام جماعات وطوائف وملا تختلف فيما بينها لجهة الطقوس المتبعة أو تقاليد كلٍ منها في التأويل والممارسة.

ومن بين أكبر النحل في الإسلام، هناك تاريخياً طائفتان تحدان أهمها على الإطلاق، هما: السنة والشيعة.

يعتقد الشيعة أن النبي محمد (نحو 570-632)، وقبل وفاته وبوقت وجيز، اختار علي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة، خليفةً له. كما أنهم يؤمنون بأن هذه الخلافة تواصلت عبر سلسلة من الأئمة (أو القادة الروحيين)، المتحدّرين من صلب علي وفاطمة، وقد اختار كلٌّ منهم الإمام الذي سبقه. والكتلة الشيعية الأكبر حجماً، وهم الشيعة «الاثنا عشرين» أو كما يُسمون «الشيعة الإماميون»، يؤمنون بأن آخر هؤلاء الأئمة، الذي «انحجب» في العام 873، سوف يظهر

بِقائل الجزيرة العربية)، قد بُنيت من مجموعة أخرى مختلفة من المادة الشفهية، تلك التي تُعرف بـ «الحديث»، أي المأثورات والمنقولات عن مسلكية النبي، وهي لم تدوّن في تصانيف إلا بعد وفاة الرسول. يتألف القرآن من 114 فصلاً تُعرف بالسور، وكل سورة تتألف من عدد متفاوت من الفقرات التي تُسمى آيات (وتعني بالعربية: دلائل أو معجزات). ويستثناء السورة الأولى، سورة الفاتحة (أو الاستهلال)، المكوّنة من سبع آيات هي بمثابة ابتهاج يُطلى في مختلف الشعائر، بما فيها الصلوات اليومية، فإن سور القرآن الأخرى مرتّبة بحسب تناقصها في الطول، بحيث تأتي أقصرها في النهاية وأطولها في البداية. ومعظم المصاحف القياسية تُصنّف السور ما بين سور نزلت في مكّة (وهي تميل إلى القصير، ومن هنا موقعها القريب من نهاية الكتاب)، وسور تعود إلى الحقبة التي أقام فيها محمد في المدينة التي هاجر إليها مع أتباعه الأوائل هرباً من الاضطهاد في مكّة عام 622، العام الأول من التقويم الإسلامي (الهجري). السور المكيّة، ولاسيما المبكرة منها، تحمل في طياتها رسائل حيّة عن المسؤولية الشخصية، وأحاديث عن الشواب والعقاب (الجنّة وجهنم)، فيما هي تحثني من جهة أخرى ببهاء العالم الطبيعي وجماله كدليل على قدرة الخالق العظيمة وجلال شأنه. أما السور المدنية، فهي وإن كررت العديد من الموضوعات ذاتها، إلا أنها تسوق تعاليم إيجابية فيما خصّ القضايا الاجتماعية والقانونية (بما فيها الأحكام الخاصة بالعلاقات الجنسية والميراث، والعقوبات الموصوفة لبعض أصناف الجرائم). وهذه السور، معطوفة على مواد مستقاة من مأثور الحديث، كانت المصدر الرئيسي لنشوء وتطور النظام القانوني المعروف بـ «الشرعية». وقد أضاف أعلام الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم مصادر أخرى من عديديهم، وذلك أوجدوا المنهجية اللازمة لتنظيم أحكام الشريعة وتطبيقها. بالنسبة للمؤمنين المسلمين، يُعَمّل القرآن كلام الله المباشر، وقد أملاه كما هو من دون أي تحوير أو تنقيح بشري. ويصف بعض العلماء المسلمين المحدثين النبي محمد بالنائل الأمين لكلام الله. ومن المعتقد أنّ النبي نفسه كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وإن كان بعض الدارسين يُشكّكون في ذلك على خلفية أنه كان

الأكثر تمدناً من العالم خارج الصين. حين كان الإسلام في طور الصعود والترقي، كذلك كان مناخ التسامح الناشئ عنه. فقد كان العلماء والفقهاء المسلمون يتساجلون ويتناظرون فيما بينهم، لكنهم كانوا يحدّون تكفير كل من ينطق بالشهادَة - بما هي الجهر العلني بالإيمان - أو من يُقيمون الصلاة مبغضين وجوههم شطر مكّة. ومثلما لاحظ الباحث الأميركي كارل إرنست، فإن «التعددية الدينية، حقيقة اجتماعية في أي مجتمع في عالمنا المعاصر. فإذا ما ادّعت جماعة لنفسها السلطة على سائر الجماعات الأخرى، مُطالبية إياها بالولاء والطاعة، فسوف يُعتبر ذلك تحايلاً للتسلّط بواسطة اللغة الدينية المنمّقة» [كارل إرنست، «اتباع محمد: إعادة النظر في الإسلام في العالم المعاصر»، لندن، ص 602].

في المبدأ، وإن لم يكن دائماً في الممارسة، المسلم هو من يتبّع الإسلام، لللفظة العربية التي تعني الانقياد، أو بمعنى أدق، «التسليم» لإرادة الله كما أوحى بها للنبي محمد. وهذه الموصيآت المتنزّلة شفاهياً على امتداد فترة نبوة محمد الناشطة، من حوالي العام 610 وحتى وفاته، موجودة كلها في القرآن، الكتاب الذي يُشكّل أسس الدين الإسلامي والنُظْم الثقافية المتنوّعة النابعة منه. وقد تصدّى لغيّف من الباحثين من ذوي النزعة التصحيحية في الجامعات الغربية للرواية الإسلامية التقليدية عن أصل القرآن، زاعمين أنّ النصّ قد اقتطع من كتلة أكبر من المواد الشفهية بعد الفتح العربي للهالال الخصيب. غير أنّ الغالبية العظمى من الدارسين، مسلمين وغير مسلمين، تنظر إلى القرآن على أنه المُؤونة الكتابية للتنزيل المتراكم على امتداد مسار الرسالة المحمدية. وخلافاً للكتاب المقدس، ليس هناك ما يدلّ على وجود تصنيف متعدّد للقرآن. وعلى النقيض من «العهد الجديد» (الأنجيل) بنوع خاص، الذي جُمع فيه أقوال السيد المسيح في أربع روايات متجايزة عن حياته وما يُفترض معها أنها قد وضعت من قبل مؤلّفين مختلفين، فإن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات الضمنية إلى حوادث وقعت في حياة الرسول، إنْما من غير أن يتناولها بالتفصيل. بل إن قصة المسيرة العملية لمحمد كنبي وكرجل دولة (إذا جاز لنا أن نستخدم هنا اصطلاحاً حديثاً لزعيم حركة وحّدت

وفتحوا شطراً من الأمبراطورية البيزنطية (بلاد الروم)، وكامل بلاد فارس أمام الاستيطان الإسلامي. في البدء، بقي الإسلام ديناً «عربياً» في المقام الأول. إذ عمد أمراء الحرب المسلمون إلى إيواء كتائبهم المقاتلة القبلية في معسكرات كبيرة خارج المدن المستولى عليها، تاركين رعاياهم الجدد (من مسيحيين ويهود وزرادشتيين) يديرون أمورهم بأنفسهم ما داموا يدفعون الجزية (وهي نوع من الضريبة على الرأس) عوضاً عن تأدية الخدمة العسكرية. أما عملية الأسلمة، فقد حدثت بالتدرج من خلال التزاوج، حيث إن أعيان الأسر من سكان البلاد المفتوحة لم تأل جهداً في سبيل الالتحاق بالشُّعب الإسلامية. كما اتسع نطاق هذه

تاجراً نشيطاً. وتاجحاً بالنسبة لغالبية المسلمين، القرآن كما دُون في المصحف واستقرّ على ما هو عليه إبان حكم الخليفة الثالث، عثمان بن عفان (644-656)، «غير ملقوك»، وأزلي من أزلية الله نفسه. من هنا، فإن القرآن ينظر المؤمنون المسلمون يحتلّ المكانة التي يشغلها المسيح في نظر المسيحيين. فإله يتجلى ليس من خلال بشر ما، بل عبر اللغة الواردة في نص مقدّس. إن العقائد الدينية الأخرى، ومنها البوذية، والمسيحية، والهندوسية، واليهودية، والسيخية، والزرادشتية، تضيف على نصوصها التأسيسية هالة مقدسة. وقد أخذ الحكام المسلمون بهذا المبدأ المشترك بإدانتهم التسامح الديني حيال «أهل الكتاب».



صفحتان متقابلتان من المصحف مزخرفتان بماء الذهب وموشختان بالخط البيهاري. أنجزت هذه النسخة عام 1399، العام التالي لاستيلاء تيمورلنك على دلهي. الآية من سورة التوبة، وهي تتحدث عن خلفاء النبي من البدو الذين لا يُغفر لهم تقاعسهم عن الالتحاق بإحدى غزواته.

العملية لماً وجد الرعايا المعوزون ومقطوعو الجذور سنداً لهم في دين حكّامهم الجدد، أو لماً عثر المتحرّزون من سحر حكّامهم القدامى على ملائزٍ روحي يُلانمهم في دين يحترم تقاليدهم، في الوقت الذي يُقدّمون فيه تعاليمهم الدينية في إطار توليفي جديد وخالق. كما كان دور المبشّرين المسلمين الأوائل حاسماً هو الآخر في هذه العملية.

في طوره المبكر، شهد الإسلام توسّعاً خاطفاً خارج حدود جزيرة العرب عن طريق الفتح العربي لبلاد الهلال الخصيب وما يليها من ديار في غضون قرنٍ أو نحو ذلك بعد وفاة الرسول في العام 632. وقد تضافر الإيمان بالإسلام ورسالة النبي السماوية - فضلاً عن الرغبة في المغانم - لتصهر القبائل العربية في آلة حربية مهولة. فهزموا الجيشين البيزنطي والساساني،

وكما يتضح من الخرائط التي يضمها هذا الأطلس، كان الحزام الأوسط من الأراضي الإسلامية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى وادي السند وبشكل دائم تقريباً تحت رحمة الغزاة من البدو الرحّل وأشباه الرحّل. وفي الأزمنة ما قبل العصر الحديث، أي قبل أن تعمل الأسلحة النارية والسلاح الجوي وأنظمة الاتصال الحديثة على إخضاع مناطق الأطراف لسيطرة الحكومات المركزية (برعاية استعمارية طبعاً)، كانت المدن عرضة للهجمات المتكررة من جانب النهابين البدو. وعبقريّة النظام الإسلامي تكمن في أنه زُود القبائل المتأسلمة بمنظومات قانونية ومسلّكية وتعليمية من ضمن مبادئ الإيمان، وقد تضافت معها على مرّ الزمن.

في «مقدمته» لتاريخ العالم، وضع فيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون (1332-1406) نظرية حول التجدّد الدوري ونشوء الدول، حلّ فيها هذه السيورة على ضوء ما جرى في شمال إفريقيا، المنطقة التي ينتمي إليها، وطبقاً لنظريته هذه، فإن المناطق الجافة أو القاحلة، التي يندر سقوط المطر فيها، تبقى الحالة الرعوية هي النمط الرئيسي للإنتاج الزراعي فيها. والرعاة، على عكس الفلاحين، ينقلمون ضمن خطوط نسب قبيلية (أو في مجموعات تربطها علاقات قرابة أبوية). إنهم أحرار نسبياً من سطوة الحكومات، وكونهم يتميّزون بدرجة حركية أعلى من أهل الأمصار (الحضر)، فلا يُمكن فرض الضرائب عليهم بصفة منتظمة. كما يتعدّر إخضاعهم لسيطرة السادة الإقطاعيين الذين يستولون على جزء من محاصيلهم لقاء شملهم بالحماية، أجل، في المناطق القاحلة، هم رجال القبائل من يكونون مدججين بالسلاح في العادة، وهم من يستطيعون في

غير أن اللاهوت الإسلامي (علم العقائد أو علم الكلام)، كان له بُعد ثقافي اتسم بالدينامية، ولعلّ هذا بالذات ما يُفسّر لنا كيف تطوّر دين «العرب» إلى ديانة عالمية. فقد حمل الإسلام معه، بوصفه «دين الكتاب» النموذجي، الذي يُمثّل كلمة الله مجسّدة في نصّ مكتوب، هيبة واحترام التعلّم والمعرفة إلى الثقافات الجاهلة. وعلى شاكلة تعريف لاروشفوكو للنفاق، نقول إن عبادة الكتاب ما تكن ولاء الرذيلة للفضيلة، بقدر ما كانت إجلال الجهل للعلم. وأياً كان إدراكنا للوحي - تنزيل من عند الله، أم حالة ذهنية متبدّلة أشبه ما تكون بعمليات دماغية لناغبة بشري - فإن «معجزة» محمد جاءت على صورة لغة، ومرة بعد أخرى، راحت أقوام البدو الرحّل القاطنة عند أطراف الأبراطورية الإسلامية بالاستيلاء على مراكز القوى، عاملةً بذلك على تمدين نفسها، وتغدو من ثمّ حاملةً بدورها لواء النفوذ الثقافي الإسلامي، وائر تفسّخ الدولة العباسية الخُطمي، لم يعد الحلم بخلافة عالمية تضم مجمل أرجاء العالم الإسلامي (لا بل وسائر البشرية في الواقع) مشروعاً قابلاً للحياة. فخطوط المواصلات كانت أطول من أن يتمكّن المركز من لجم طموحات الأمراء المحليين. لكن هيبة المعرفة، كما كان يرمز إليها القرآن وآياته المنقوشة على جدران المساجد والمباني العامّة في لوحات بدعية، ناهيك عن المصاحف المتسوخة بمنتهى الإتقان، كانت شديدة فعلاً. حتى الغزاة المغول، أصحاب السُّعّة السيئة لما كانوا يتصفون به من قسوة وهمجية، لم يجدوا مناصباً من التسليم بقوة الإسلام الروحية والجمالية في الأجزاء الغربية من البلاد الخاضعة لسلطانهم.

ليست الغاية من الخرائط التي يحتويها هذا الكتاب تقديم رواية جامعة وشاملة عن النماذج المتحوّلة للدولة والسلطة البدئية التي سادت إبّان الاندفاع الجارف للتاريخ الإسلامي من زمن الرسول إلى يومنا الحاضر. بل غاية ما تتعلّق إليه أن تنير جوانب مهمّة من ذلك التاريخ عبر فتح نوافذ صغيرة على نواحٍ بالغة الشأن من التاريخ البعيد والقريب، وبما يُساعد على تهبان إرث المشاكل، وكذلك السوانح، الذي ورثه الحاضر عن الماضي. فالجغرافيا عنصّر حيوي لفهم التاريخ الإسلامي وصلته المنطوية على إشكالية بالدعائه.

خريطة العالم رسمتها أسرة الشرفي الصفاقي في العام 1571/1572 م في مدينة صفاقس بتونس.



جزئياً، إلى مفاعيل الشريعة الإسلامية؛ إذ بخلاف الأعراف القانونية الرومانية، لا تتصنّف الشريعة أبة أحكام للاعتراف بالجمعية التقابلية بوصفها «شخصية» اعتبارية.

في صياغتها الكلاسيكية، تنطبق نظرية ابن خلدون أكثر ما تنطبق على البيئة في شمال إفريقيا؛ البيئة التي يعرفها ويفهمها أفضل من غيرها، بيد أنها تصلح مع ذلك نموذجاً تفسيرياً للتاريخ الأوسع لغرب آسيا وشمال إفريقيا منذ ظهور الإسلام إلى الزمن الحاضر. تقوم النظرية على أساس من التفاعل الجدلي بين الدين والعصبية، ومفهوم ابن خلدون هذا للعصبية، الذي يُشكّل العمود الفقري لنظرية العامة إلى التاريخ الاجتماعي والسياسي للإسلام، يُمكن تطويعه كي يتماشى والنظريات الإثنية الحديثة، سواء أخذ المرء بالتمودج «البدائي» أو «التفعايلي»، وبالوسع إيجاد المبدأ الأساس لنظرية ابن خلدون في أطروحتين له أبرزهما الفيلسوف والعالم الأثروبولوجي إرنست غيلنر بنوع خاص، وهما: 1- «لا تقوم الرئاسة إلاّ بالغلبة، ولا تقوم الغلبة إلاّ بالعصبية»؛ 2- «وحدها القبائل التي تحكمها العصبية قادرة على تحمّل شظف الحياة الصحراوية».

والقوة الغالبة للقبائل قياساً بقوة المدن هي ما وفّر الشروط التي مكّنت الحكم العسكري السلالي أو بديله، الحكم الملكي المدعوم من المؤسسة المملوكية أو العصبية المماسية، من أن يغدو النمط السائد في التاريخ الإسلامي قبل التخلل الاستعماري الأوروبي. وغياب الاعتراف القانوني بالجماعة التقابلية في الشرع الإسلامي حال دون قيام التماسك الاصطناعي المعهود في التقابلات؛ وهذا الأخير شرط مُسبق لتطور الرأسمالية المدنية وتجاوز اللحمية «الطبيعية» للقرابة. وقد دأبت التقاليد الثقافية الرفيعة للإسلام، في عهده ما قبل الاستعمار الحديث، تتفاعل مع أشكال التضامن البدائي هذه والعصبيات العرقية، إلاّ أنها لم تستطع الحلول مطلقاً.

رسمياً، الأخلاق الإسلامية تمنع قيام أي شكل من أشكال التضامن المحلي خصوصاً إذا كان يُمايز ما بين المؤمنين. نظرياً، ثمة جماعة إسلامية واحدة هي

بعض الأحيان أخذ المدينة رهينة لهم طلباً لغدية أو حتى فتحها عنوة. إن نظرات ابن خلدون الناقبة تُخبرنا لماذا يُجاني المرء الحقيقة عندما يتحدث عن «إقطاع» إسلامي إلاّ في السياق المحدود والمحدّد جداً للأنظمة السائدة في أحواض الأنهار الكبرى كمصر والعراق، حيث تعمل كتلة فلاحية مستقرّة في زراعة الأرض. أما في المناطق القاحلة، فينتقل الرعاة بمواشيهم وتلعانهم موسمياً من مكان إلى آخر، وفقاً لترتيبات معقّدة يتخذونها مع سواهم من المنتفعين بالأرض. وحقّ الانتفاع ليس بملكية. فالممتلكات والأراضي هنا لا تحدّها حدود مشتركة مثلما أصبحت عليه الحال في المناطق الأوروبية التي تتساقط عليها الأقطار بمعدلات عالية. لقد ضرب الإقطاع، وكذلك فرعه النبات: الرأسمالية، جذوراً عميقة له في أوروبا، وخلق في نهاية المطاف الدولة البرجوازية التي سوف تبسط سيطرتها على الأرياف، وتصنع الزراعة بصيغة تجارية، وتُخضع المجتمع الريفي للقيم الحضريّة وبقبضة المدينة. على العكس من ذلك، بقيت شعوب الأطراف في معظم أنحاء غرب آسيا وشمال إفريقيا قادرة على التملّص من ريقة الدولة إلى حين مقدم السلاح الجوي، وحتى في أيامنا الحاضرة، لم يتحقّق ذلك كلياً في بعض الأماكن من أفغانستان، حيث البنى القبلية قاومت ولا تزال سلطة الحكومة المركزية.

وثمة لفظ مُعجّر يستخدمه أهل الحضرة المغاربية للدلالة على مناطق البلاد القبلية؛ إنهم يسمونها «بلاد السببية» - أي أرض العجرفة والسفاهة - في مقابل «بلاد المخزن»، أي المركز المتمدّن، الذي يقع وبصفة دورية فريسة لها. تبعاً لنظرية ابن خلدون، فإن تفوّق القبائل رهنٌ بـ«العصبية»، تلك العبارة التي تحيل، في العادة، على قوة الشعور بوحدة الجماعة أو التضامن الاجتماعي. وهذه العصبية مستمّدة، في النهاية، من البيئة القاسية للأرض الصحراوية، أو الأرض الليباب، حيث لا وجود إلاّ للقدر طفيف من تقسيم العمل، وحيث البشر يعتمدون في بقائهم على عرى النسب وشائج القرابة. على التقريب من ذلك، تفنّقر الحياة المدنية لأية عصبية أو روح تشاركية. وغياب التضامن البرجوازي، الذي تسمو بموجبه مصلحة الجماعة التقابلية فوق رابطة الدم والقرابة، يُمكن عزوه، ولو



تتخلّف عنها في آخر الأمر لتجد نفسها تحت الهيمنة السياسية والثقافية لشعوب كانت تعدّها - وما زال بعض أفرادها يعدّونها - في مصاف الكفّار.

كان النظام الإسلامي في الأزمنة ما قبل الحقبة الاستعمارية، والمتجذّر إلى اليوم في ذاكرة ووجدان المسلمين المعاصرين، على أكمل تهايبٍ مع البيئته السياسية لعصره. وحتى استراتيجية «الجهاد في سبيل الله»، كانت تُعتمد لأغراض ذرائعية، نفعية أو عسكرية، والخشافة الإسلامية. وهكذا صار الغرّاة البدو، والممالك المُستقدمون من مناطق الأطراف لصدهم، في مقدمة رجال الإسلام، الذائدين عن حياض الإيمان والجماعة، وأبرز حُصاة ثقافته ونُظمه التعليميّة.

والذاكرة الاجتماعيّة لهذا النظام ما برحت تُمارس جاذبية شديدة على مخيال العديد من الشباب المسلم في الوقت الحاضر. ويصحّ هذا القول بنوع خاص حين نذكر أن الذاكرة الأحدث عهداً عن التحديث من خلال الاستعمار يُمكن تمثيلها كقصة ملوّهاً المهانة والكوص، وخيانة رسالة الإسلام لا لشيء إلاّ لإحلال الحقيقة والعدالة الشاملتين في عالم تمرّقه الفرقة والنزاعات. إن العُنف الذي ضرب أميركا في 11 أيلول/سبتمبر 2001 قد يكون متجذّراً في اليأس المستحكم بأناس يحملون رؤيةً رومانسية ومثالية عن الماضي فيما هم يتأمّلون أشدّ الألم تحت وطأة الإذلال اليومي في الحاضر. ولئن كان الذين خطّوا لهذه العملية، من دون أدنى شك، أناساً متعلمين ومحتشكين، وعلى دراية تامّة بأحوال المجتمعات العصرية وسير العمل فيها، إلاّ أنّه ليس بالأمر العرضي البتة أن يكون معظم مختطفي الطائرات الخمسة عشر من التابعة السعودية، وبعضهم من محافظة عسير بالذات؛ هذه المنطقة الجبلية الفقيرة المحاذية للحدود اليمنية الحالية، استولت عليها أسرة آل سعود في عشرينيات القرن العشرين، وهي لا تزال تحتفظ بالكثير من علاقاتها وارتباطاتها بالقبائل اليمنية. كان من شأن المذبحة العشوائية في 11 أيلول/سبتمبر أن تروّع ابن خلدون مثل كل كرام الناس قطعاً، لكنّي أشك في أنها كانت ستفاجئ.

«الأمة»، تخضع لمشية الله. أما عملياً، فكثيراً ما يُصار إلى تعديل أو تحوير هذا المثل الأعلى الإسلامي من خلال التسليم بالحاجة إلى استنفار العصبية أو النعرة القبليّة في سبيل الله». تُشدّد الممارسة الإسلاميّة، مُتملّكةً بالعبادات وغيرها، على قيمة الجماعة وذلك عبر إقامة الصلاة وأداء فريضة الحج بانتظام؛ ومع مرور الزمن، تولّدت عن ذلك تقوى كتابية ذات صبغة مدنيّة، وتقاليد ثقافية رفيعة أو «كبرى». غير أن هذه عاجزة بذاتها عن أن تبني جماعة متراصّة، مستديمة وقوية بما فيه الكفاية لتتجاوز الدينامية المقلّبة، دينامية النعرة الحليّة. وسواء أكانت هذه النعرة دنيوية، قائمة على الفوارق بين القبائل والقرى أو حتى بين الحرف والمهن؛ أو طائفية، قائمة على الاختلاف ما بين شتى المذاهب الدينيّة أو الطُرُق الصوفيّة التي تحكمها في أغلب الأحيان أسر بعينها؛ أو كان منشؤها الفوارق بين السُنّة والشيعيّة، فإن مثل هذه الانقسامات تعمل ضد وحدة الأمة.

على نسق الحركة المعدنانية في الولايات المتحدة، يُشكّل الإسلام، ولاسيما التيار السُنّي الغالب الذي يضم حوالي 90 بالمئة من مسلمي العالم، قوة شعبية محافظة، تعارض التزمّت العقائدي أو الضوابط الكهنوتية المتشدّدة. وإذا كانت كتابية الإسلام وروحه العمليّة الرائدة قد أمّنته بلغة مشتركة عابرة للحدود الإثنية والعرقية والقومية، خالقةً بذلك أضخم «مجتمع عالمي» عرفه العالم ما قبل العصر الحديث، إلاّ أنها لم تنجح قط في تأمين الدعامة الأيديولوجية الأساس لنظام اجتماعي موحد يُمكن أن يُترجم إلى هوية قومية مشتركة. في الغرب، أوجدت مؤسسات المسيحية القروسطيّة، المتحالفة مع البنى القانونيّة الرومانيّة، الشروط المسبقة لنشوء الدولة القوميّة الحديثة. أما في «دار الإسلام»، فإن الأساس الخُلقي للدولة ظلّ باستمرار عُرضةً للإضعاف والتحريف من جانب واقع العصبية القبليّة. كان يُمكن التسليم بذلك أمراً واقعاً، إنما يستحيل منحه اعترافاً شرعياً. وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت حضارة متقدمة بأشواط على منافستها المسيحية في القرنين العاشر والحادي عشر،

## المقائد والعبادات الأساسية في الإسلام

تتخذ أشكالا عدة، كالصلاة والذُكر والدعاء والابتهاال. والمسلمون في تأديتهم الصلاة يسجدون في اتجاه الكعبة، ذلك الهيكل المكعب الشكل الذي تغطيه «كسوة» سوداء مطرزة من الحرير الأسود، وينهض وسط ما يُعرف بـ«الحرم القدسي» في مكة. وتُقام الصلاة يومياً عند الفجر، والظهر، والعصر والمغرب والعشاء، وفي المقدور الجمع بينها بحسب الظروف. كذلك بالوسع أداء الصلاة فردياً، في البيت، أو في مكان عام كالمتنزه أو حتى الشارع، وطبعاً في المساجد والجامع وسواها من الأماكن المخصصة لذلك. ونداء الصلاة (ويُسمى الأذان)، يُطلق من المنذنة التي تعلق المسجد، ويتضمن التكبير («الله أكبر»)، والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله... الخ.»)، واللازمة: «حيّ على الصلاة». في الماضي، وقبل اختراع مكبرات الصوت الإلكترونية، كانت أصوات الأذان المرنمة ترنمياً بدءاً تصدح من أعلى المآذن خمس مرات يومياً. وصلاة الظهر في يوم الجمعة هي الصلاة الجامعة التي تصاحبها «خطبة» يتلوها الإمام، أو من يؤمّ المصلين، أو أية شخصية دينية بارزة أخرى. وفي القرون الأولى من الإسلام، كان اسم الخليفة أو الأمير يرد حتماً في أثناء الخطبة. وحين كانت المناطق تنتقل ملكيتها من حاكم إلى آخر (على غرار ما كان يحدث مراراً وتكراراً)، كان المؤسّر الرسمي على انتقال الحكم: المناداة باسم الحاكم الجديد علناً في المساجد الكبرى بالبلاد. وثمة ركن آخر من الأركان الأساسية في الإسلام، ذلك هو الزكاة، أو المشاركة في الثروة (ويجب عدم الخلط هنا بين الزكاة والإحسان الطوعي أو الصدقة). في الماضي، كانت الغاية من إيتاء الزكاة تقوية الشعور الجمعي من خلال التشديد على واجب الغني بمساعدة الفقير، وكانت تُدفع للزعامة الدينيين أو للحكومة. أما اليوم، فإن كلّ ملة إسلامية تؤتمّي زكاتها وفقاً لتقاليد خاصة بها.

والصوم هو الامتناع عن الأكل من طلوع الفجر

في الغالبية العظمى من المذاهب الإسلامية، يلتزم المسلمون جميعاً قواعد أساسية محدّدة، تُسمى «أركان الإسلام». وأهم هذه الأركان، إظهار الإيمان أو النطق بالعبارة التالية: «أشهد أن لا إله إلا الله؛ وأشهد أن محمداً رسول الله». وهذه الجملة التي تُقال أمام شهود، وتُسمى «الشهادة»، شرطٌ كافٍ للدخول في الإسلام والانتساب إلى «الأمة».

كذلك يشهد المسلمون بالتوحيد (وحدة ووحدانة الله). إنهم يؤمنون بأن الله كان دائماً وأبداً على اتصال بالبشرية من خلال الرُّسل والأنبياء، مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء الذي أنزل عليه القرآن. والمسلمون مُطالبون بالتزام نمط سلوك منقبي وأخلاقي في حياتهم الشخصية والاجتماعية، وهم مسؤولون عنه أمام الله.

وبالإضافة إلى التوحيد، تشتمل مبادئ الإيمان التي يلتزمها المسلمون على الاعتقاد بأن الملائكة وسواها من الكائنات الخارقة للطبيعة كالجان مثلاً، إنما تعمل في تبليغ ورسالات الله؛ وأن إبليس أو الشيطان، الملاك الساقط، أخرج من الجنة لأنه أبى النزول عند أمر الله بالسجود لأدم؛ وأن محمداً هو «خاتم النبيين»، أي أنه الأخير في سلسلة من الرُّسل البشريين أرسلهم الله لهداية البشر وتحذيرهم. ويؤكد القرآن أن من الذين أوحى إليهم فيما سلف – وبآذات النصارى واليهود – قد حوّروا في الكتب التي أنزلت عليهم. ويُنذر القرآن الناس بيوم الدين (الدينونة/القيامة)، يوم يقف الجميع الأحياء والأموات على حد سواء، أمام الرب الذيان ليحاسبوا على ما فعلت أيديهم: فمن فعل خيراً، يُثاب ويدخل جنّات النعيم؛ ومن أخلّ بواجباته، يعاقب بأن يُصلّى نار جهنم.

كذلك يبيّن القرآن بالتفصيل جملة من الممارسات التي صارت مع الوقت معيارية بالنسبة للمسلمين. ومن هذه الممارسات: العبادات، التي

الأزمة ما قبل الحديثة، أي قبل أن تجعل وسائل النقل الجماعية من سفن ومطارات الحجّ في متناول معتدلي ومتوسطي الحال، كان الحجّ العائدين يكتسبون اللقب المشرف: «الحاجّ» / «الحاجة»، ويحظون بمكانة اجتماعية أرفع من أولئك الذين لم يحجّوا بعد داخل أوساطهم. والحجّ علاوة على إتاحتها الفرصة لتحقيق كمال الذات روحياً، يوفّر في بعض الأحيان فرصة لمزاولة الأعمال من خلال تمكنه الحجّاج من مختلف أصقاع الأرض من الالتقاء والعمل معاً. كما أنه يسهّل الأمر للحركات الهادفة إلى الإصلاح الديني - السياسي. فكم من حركة سياسية نشأت عن لقاءات جرت أثناء موسم الحجّ - ابتداءً من الثورة الشيعة التي أفضت إلى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (909)، وصولاً إلى حركات النهضة والإصلاح الإسلامية الحديثة. والمُعَلِّمُ الدَّالُّ على انتهاء شهر الصوم هو «عبد الفطر»: في حين يبلغ الحجّ ذروته مع «عبد الأضحى»، حيث يُشارك المسلمون في تقديم الأضاحي من المواشي. وهذان العيدين هما أكبر احتفالين متعارف عليهما يُحبيهما المسلمون في كل مكان. وعلاوة على ما تقدم، هناك العديد من العبادات والممارسات الروحية الأخرى لدى المسلمين التي نشأت وتطوّرت عبر العصور، وهي مبنية على تأويلات خاصّة لمزاولة الإيمان وتفاعله مع التقاليد المحلية.

حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان؛ وفيه يمتنع المؤمنون عن الطعام والشراب والتدخين وكذلك عن الجماع، وقد عدّه أبو حامد الغزالي، المتصوّف والفقيه المشهور في القرون الوسطى، منافع جمّة للصيام، نذكر منها: نقاء القلب وشحذ المدارك المُلازم للجوع، وإماتة الجسد والسيطرة على النفس وكبح الشهوات، فضلاً عن التضامن مع الجوعى: فالإنسان الشبعان «غرضة لأن ينسى الجانعين وحتى الجوع نفسه». تقليدياً، شهر رمضان مناسبة لجمع شمل أفراد العائلة والعكوف على الصلاة والتأمل الديني. لكن في العديد من الأقطار الإسلامية اليوم، ينقلب الصيام إلى مأذب عامرة عند المغرب، فتكون مناسبات يغلب عليها جو المرح والإسراف في الطعام والشراب وتدوم حتى ساعة متأخرة من الليل. رمضان هو الشهر التاسع في التقويم الهجري (القمرى)، الذي ينقص عن التقويم الشمسي بأحد عشر يوماً. لذلك، يحلّ رمضان، شأن بقية الأعياد الإسلامية، في فصول مختلفة خلال دورة كاملة من خمس وثلاثين سنة.

وهناك فريضة شعائرية جلييلة الشأن في الإسلام، هي الحجّ إلى مكّة، حيث يتوجّب على المسلم المؤمن أن يحجّ في حياته مرة «واحدة» على الأقلّ إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. تاريخياً، الحجّ كان وما زال إحدى الوسائل الرئيسية لإبقاء العالم الإسلامي بشئى أرباحه على اتصال وتواصل مادي، في

## الجغرافيا الطبيعية للعالم الإسلامي

المحيط الهندي؛ وعلى منطقة جونغلي جنوبي بحر قزوين عند المنحدرات الشمالية لجبال ألپورز، التي تستجمع الهواء المشبّع بالرطوبة المنساب جنوباً من روسيا.

في الأزمنة القديمة، وقبل أن تصبح المياه المتحجرة الجوفية، المزرونة لملايين السنين داخل الطبقات الصخرية، متوافرة للإنسان بغضل طُرُق الحفر العصرية، كانت الزراعة غير مستقرّة إلى حد بعيد، خصوصاً حين ظهرت الحنطة مثلاً، وغيرها من

المزروعات التي يلزمها كميات هائلة من المياه، على شكل واردات غذائية. فالحقل الذي ظلّ يغلّ الحنطة طوال آلاف السنين لن يلبث أن يعرف مواسم عجاجاً حين يكون تساقط المطر بوحدة واحدة بدلاً من البوصات العشرين المعتادة. وهذا ما أدركته الشعوب القديمة جيداً، فأمنت لنفسها إهراءات الحبوب. غير أن الزراعة ازدهرت بالفعل في أودية الأنهار الكبرى، في مصر وبلاد الرافدين (العراق حالياً). فالفيضان السنوي فيهما، الناجم عن الأمطار المدارية في إفريقيا وذيوان الثلوج في هضاب الأناضول وإيران، دأب يغلّ محاصيل منتظمة، وسهّل عملية نشوء الثقافات المدنية المعقدة في سومر وأشور ومصر. والحاجة إلى إدارة شبكات الري ذات المعايرة بالغة الدقة في استخدام مياه دجلة والفرات والنيل الغنية بالعناصر المغذية، اقتضت استنباط أنظمة معقدة للتسجيل وال ضبط، الأمر الذي أتاح للكتبة المتعلمين، الجديدين بأن يكونوا كهنة، أن يحكموا جنباً إلى جنب مع القبايض على زمام القوة العسكرية. وهكذا يجوز القول إن النهر الأصفر في الصين، وادي الإندوس (السنند) في الهند، والمنظومات النهرية الكبرى في الهلال الخصيب، كانت في أصل نشوء الحضارة الإنسانية. وأولى الدول، بمعنى أنظمة الحكم الخاضعة للنظام والقائمة على مبادئ قانونية عامة، إنما ظهرت في تلك المناطق تحديداً منذ ما يزيد عن خمسة آلاف سنة.

والقدر المحدود من ماء التربة اللازم للإنتاج الزراعي، كان له ال وقع الحاسم على نمو المجتمعات البشرية في المناطق الجافة. صحيح أن الظروف تختلف من منطقة إلى أخرى، إلا أن ثمة مزايا معينة

لئن كان العالم الإسلامي يُغَطّي حالياً حزاماً عريضاً من المناطق الممتدة من سواحل إفريقيا على المحيط الأطلسي إلى الأرخيول الإندونيسي في المحيط الهادي، إلا أن الرقعة الوسطى من غرب آسيا، حيث ظهر الإسلام، كان لها الأثر الحاسم في تطوره. وبالمقارنة مع غرب أوروبا وشمال أميركا، تتصّف تلك الرقعة بقلة هطول الأمطار على وجه العموم. في فصل الشتاء، تسقط الأمطار والثلوج التي تحملها الرياح الغربية



مسجد أغاديس في النيجر. شُيّد أول مرّة في القرن الرابع عشر ميلادي، وهو مبنّي من الطين. ميكه الإنسانِي يطلب تجديداً وترميمها بصورة منتظمة، ويقوم بذلك عمال يحملون طيناً جديداً ويتسلفونه على القدد الشبيهة النانئة التي تقوم مقام السقالات.

القادمة من المحيط الأطلسي وبكميات لا بأس بها على جبال الأطلس وجبل الريف، وعلى هضبة برقة وجبل لبنان، فيما تسقط بقاياها على نحو متقطع على الجبل الأخضر في عُمان، وجبال زاغروس وألپورز ومرتفعات أفغانستان. غير أن الأمطار الوحيدة التي تهطل بانتظام أكيد، هي تلك المتساقطة على نجود اليم وغلغار، التي تستقبل الرياح الموسمية الهابّة من

محاصيلهم الزراعية من جانب الكهنة على شكل تقديمت وأعطيات، أو من قبل الحكام على صورة ضرائب إلزامية. كان الرعاة الرُحَّل في كثير من الأحيان يتجسسون في المتلص من قيود سلطة الدولة وضوابطها. فالتناس هنا منتظمون في عشانر أو في تشكيلات أبوية من ذوي الأرحام متحدرين من سلف تكرر مشترك. وتلقى البسالة في الحرب تشجيعاً خاصاً، لأنه حيث تندر الموارد الغذائية، ربما تضطر القبائل، أو البطون والأفخاذ القبلية، إلى التنافس فيما بينها، أو حتى إلى الإغارة على القرى المستقرّة كي تبقى على

تمييز أنماط الحياة فيها عن مثيلاتها في المناطق المعتدلة شمالاً أو المناطق الاستوائية جنوباً. فحيثما تقلّ الأمطار أو يكون هطولها غير مؤكد على وجه اليقين، تشكل تربية الحيوانات – الإبل، والغنم، والماعز، والبقر، والخيول إذا كان الأمر سلاتماً – أضمن وسيلة للعيش بالنسبة لعدد لا يُستهان به من البشر. إن «المواذي الخالصة»، أو بحور الرمال من الكتبان المتبدلة والمتنقلة بفعل الرياح، والتي تغطي قرابة ثلث مساحة الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، لا تتناسب حياة البشر أو الحيوان إطلاقاً، لذلك تماشاها

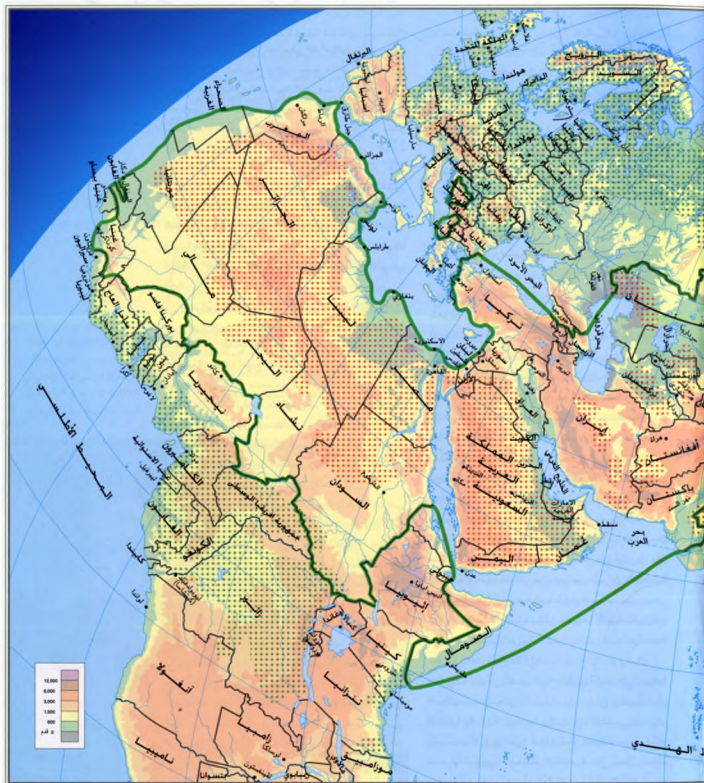
مع إرساء الإسلام دعائمه على امتداد «طريق الحرير». أقيمت المساجد للمسافرين المسلمين والمهتدين المحلين إلى الإسلام على حد سواء. هذا المسجد في مقاطعة شينجيانغ الصينية يعكس في تصميمه مؤثرات العمارة في آسيا الوسطى.



قيد الحياة. الملكية لدى الرعاة مشاعية، وهي تتخذ بصورة تقليدية شكل قطعان من الماشية عوضاً عن أراض مغلّة للمحاصيل الزراعية. إن الممتلكات والأراضي هنا ليس لها حدود مشتركة (كما هي الحال في المناطق ذات التساقطات المطرية العالية). لأن الأرض قد يشغلها مستخدمون مختلفون تبعاً لاختلاف فصول السنة. وغالباً ما تُعتبر الموارد الحيوية، كالنبابيع وآبار المياه، التي للجميع مصلحة فيها، ملكاً لله، إنما عهد بها إلى أُرْس مخصوصة تكون قيّمة عليها وتُعد نوعاً ما مقدسة.

الرعاة والتجار والجوشر. لكن أشكالاً معقّدة من الحياة الرعوية البدوية وشبه البدوية نشأت في المناطق شبه الصحراوية الأوسع مساحة، فكانت قطعان المواشي تُساق شتاءً مسافات بعيدة إلى الأودية أو الأراضي شبه المتصحرة لترعى هناك على الكلاً والنباتات التي يُمكن أن تنبت بعد أدنى رُحّة من المطر. وفي حرّ الصيف، تنتقل القطعان، حيثما أمكن ذلك، إلى المراعي في المرتفعات والهضاب، أو تتجمّع على مقربة من الآبار وبرك المياه، ويعكس الفلاحين العاملين في زراعة الأرض الذين قد تُنزع منهم





## اللغات والمجموعات العرقية الإسلامية

وإلى جانب المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأصل العرقي المعروف، هناك في الوقت الحاضر ملايين المسلمين المقيمين في أوروبا وأميركا الشمالية. وحيث إن اللغة الإنجليزية هي اليوم اللغة العالمية للأعمال والتجارة والثقافة والعلوم، وبالنظر إلى أن المسلمين من الجيل الثاني في أوروبا وأميركا وكندا يتحدثون الإنجليزية (ناهيك عن الفرنسية) والألمانية والهولندية وسواها من اللغات الأوروبية)، بات انتشار هذه اللغة بين المسلمين يُشكّل تطوراً بارزاً في الآونة الأخيرة.

تُعد الدولة القومية الحديثة، القائمة على حدود معترف بها دولياً، ولغة مشتركة (في معظم الحالات)، ونظام قانوني عام، ومؤسسات تمثيلية (سواء أكانت مُعيّنة أم منتخبة)، ظاهرة جديدة في معظم العالم الإسلامي. فالحدود الحديثة المفروضة فرضاً في أحوال كثيرة، نتيجة ترتيبات وتغامات بين الدول الأوروبية، ترسم خطوطاً على الخرائط تنهك وحدة الانتماءات اللغوية/العرقية، مما ترك شعباً كالأكراد والبشتون، مثلاً، مَقْسَمة بين دول مختلفة. قبل أن تُباشر التدخلات الاستعمارية بحبس البلدان الإسلامية داخل المنظومة العالمية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة، كانت تلك البلدان تنزع إلى تنظيم نفسها على أساس مذهبي أو عرقي وليس على أساس إقليمي أو ترابي. فلم تكن للبلدان الإسلامية حدود مرسومة على خرائط ولم تكن الحكومات فيها تعمل بانتظام ضمن مساحة معترف بها. كما هي الحال في أوروبا، «بل كانت بالأحرى تنطلق من عدد من المراكز الحضرية بقوة تميل إلى الضعف كلما طالت المسافة وبرزت في وجهها موانع طبيعية أو بشرية» [البرت حوراني، «تاريخ الشعوب العربية»، لندن، منشورات فابر، طبعة منقّحة 2002، ص 138].

وبدلاً من أن تنصّب الروح القومية، كما في إيطاليا النهضة وإنجلترا وهولندا، على المدينة، أو المدينة/الدولة، أو الأمة بالمعنى الإقليمي الحديث، انصبت بالأحرى على العشيّة أو القبيلة ضمن إطار «الأمة» الأوسع: الجماعة الإسلامية على نطاق العالم أجمع. وقد تعرّزت أشكال التضامن المحلي هذه

هناك ما يناهز مليار مسلم في العالم اليوم، أي حوالي خمس تعداد البشرية. وأكبر مجموعة فيهم ذات لغة واحدة هي العرب، بما يشكّل زهاء 15 بالمئة من المسلمين. إنما ليس كل العرب مسلمين. فهناك أقليات مسيحية عربية لا يُستهان بها في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق، وأعداد قليلة من اليهود الذين يتكلمون العربية في المغرب، وإن كان عدد هاتين الجاليتين قد شهد هبوطاً سريعاً في العقود الأخيرة بفعل الهجرة بالدرجة الأولى. لقد هيمنت العربية، بما هي لغة القرآن والعلم والفكر الإسلاميين، زمناً طويلاً على ثقافات العالم الإسلامي؛ ليها مباشرة الفارسية، لغة بلاد العجم والبلاد المغولي في الهند.

غير أن انتشار الدين الإسلامي بين شعوب وأقوام من غير العرب، قد جعل العربية لغة أقلوية، وإن كان العديد من المسلمين من غير العرب يتلون القرآن بالعربية. وتبعاً لمسح إثنوغرافي نُشر عام 1983، ثمة ما يربو على 400 مجموعة عرقية/لغوية في صفوف المسلمين حالياً، لعلّ أكبرها بعد العرب، وبالترتيب نزولاً: البنغاليون، البنجابيون، الجاويون، الناطقون بالأردية، أتراك الأناضول، السوندانيون (سكان شرق جاوه)، الفرس، الهوسا، الملاويون، الأذريون، الفولاني، الأوزبكيون، البشتون، البربر، السُنديون، الأكراد، المادوريون (سكان جزيرة مادورا، شمال شرقي جاوه). ويتراوح تعداد هذه المجموعات ما بين 100 مليون نسمة تقريباً (البنغاليون)، و10 ملايين (السُنديون، الأكراد، المادوريون). ومن منات المجموعات الصغرى التي تضمها اللائحة، تأتي أصغرهما طراً، وهي: الواتيو، الذين يعملون في الصيد وجمع الثمار في إثيوبيا، ولا يزيد عددهم عن 2,000 نسمة كل ثلاث لغات يتكلم كلاً منها يزيد من 10 ملايين نسمة - وهي الجاوية والسوندانية والمادورية - تتعرّض حالها للخطر من جانب الـ «بهاسا إندونيسيا»، وهي اللغة الرسمية المعتمدة اليوم في المدارس الإندونيسية. وحيث إن الإندونيسيين يشكلون أضخم بلاد في العالم ذات أغلبية إسلامية، فمن الممكن أن تتجاوز الـ «بهاسا إندونيسيا» اللغة العربية من حيث كونها اللغة الإسلامية المحكية الأوسع انتشاراً.



على الرُّحَّل من ممتهني السلب والنهب أو عن ضباطهم ولجُمهم بواسطة القوة العسكرية، تعرَّضه نوعاً ما القوة الأدبية للإسلام وهيبته الثقافية. وقد حدث مراراً، في عصور ما قبل الاستعمار، أن صار الشُّهَاب أنفسهم مدافعين موثوقين عن الإسلام؛ أو إذا ما استعزنا هنا جُملة للعالم الأنتروبولوجي إرنست غيلنر، «صارت الذئاب كلاباً للرعيان». ومثلاً روض النبي محمد قبائل الجزيرة العربية بما ضربه لها من أمثلة شخصية، فضلاً عن الإعجاز القرآني ونظام الحكم المنبثق عنه، كذلك عملت الشريعة (الإلهية) وأنظمة الفقه (البشرية) معاً على تسوية الخلافات والنزاعات التي كانت تترى بين قطاع الطرق الرعويين والزُّراع وأهل الأمصار. وهذا النظام المتأصل في الذاكرة الاجتماعية لمسلمي الحاضر، كان يقوم على واجب الحاكم في إقامة العدل وذلك بالحُكم وفق الشرع الإسلامي. والمهمة الجسيمة التي تواجه الدول الإسلامية المعاصرة، هي كيف تُسَطِّر تقاليد سياسية واجتماعية يعرف الجميع أنها تشكَّلت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الظروف السائدة حالياً.

شرطي من الطوارق في منطقة الساحل جنوبي الصحراء الكبرى، من مركزهم في تيمكتو، سيطر الطوارق على طرق التجارة بين البحر المتوسط وغرب إفريقيا.



بممارسات من قبيل الزواج اللُّحمي بين أبناء العمومة المباشرين، وهو شرط لازم في العديد من المجتمعات الإسلامية. كما تدعمت الولاءات العشائرية أكثر فأكثر بالعامل الديني، مع لجوء زعماء القبائل في كثير من الأحيان إلى توسيع ثورتهم أو غزواتهم بالدعوة إلى الذود عن حياض الإسلام الحق في وجه أعدائه الكفار. إذا ما نظرنا إليها من منظور تاريخ الغرب الحديث، نجد أن أنظمة الحكم التي عرفتها المناطق الجافة أو القاحلة كانت بوجه عام غير مستقرة وباعثة للخلاف والشقاق. في أوروبا، وهي منطقة تتميز بمعدلات تساقط أمطار عالية، خرجت الدولة من رحم الصراعات الدستورية ما بين الحكام والمحكومين، تغذيتها الصراعات بين الطبقات الاجتماعية إنما داخل سكان متجانسين يتشاطرون نفس الهويات القومية والسياسية والثقافية (وإن شابهها نزاع في بعض الأحيان كما في إيرلندا مثلاً). أما في المناطق الجافة، فقد فرضت العشائر المتقلبة، أو السلالات ذات الركانز القليلة، هيمنتها على المجموعات المرووسة، أو سعت إلى ضمان هيمنتها تلك عن طريق استقدام المماليك (وهم من العسكر المسترق) من أطراف البلاد النائية، ممن لا يربطهم بسكان البلاد الأصليين سوى الحد الأدنى من العلاقات الاجتماعية. فبقي الزُّراع أهل الفلاحة وكذلك أهل المدن والأمصار، عُرضة لأعمال السلب والنهب من جانب البدو الرُّحَّل، ممن كان يُضرب بهم المثل بالصيحة: «البرابرة على الأبواب»! كانت العصبة التي تشدُّ أفراد العشيرة إلى بعضهم بعضاً أقوى من أي شكل من أشكال التضامن المدني. وإن افتقرت الطبقات المدنية المسلمة إلى روح التلاحم النقابي التي ميَّزت نظيرتها في الغرب، فقد أخفقت في تحقيق الثورة البرجوازية أو الرأسمالية التي أفضت إلى قيام أنظمة الدولة الحديثة في أوروبا وأمريكا الشمالية.

بيد أن هناك طريقة مغايرة لمعاينة المشهد ذاته. فعلى ضوء غلبة البداوة الرعوية على الحزام الناشع من الأراضي التي ضرب فيها الإسلام جذوره، والممتد من سهوب كازاخستان إلى سواحل الأطلسي (وكذلك الأمر في المناطق المشابهة في شمال الهند وإلى الجنوب من الصحراء الإفريقية الكبرى)، كان عجز الدول الزراعية الضعيفة نسبياً عن فرض الضرائب





## المصور القديمة المتأخرة ما قبل الإسلام

اللاحقة الذين كانوا يتمتعون بحماية البيزنطيين، والخصم الذين كانوا يدينون بالولاء للأمبراطورية الساسانية.

والتأثير الأكبر على الحياة الثقافية التي قبض لها أن تظهر في العالم الإسلامي، جاء من الأكاديميات ومعاهد التعليم التي صانته المؤثرات الفارسية والإغريقية والهندية. ولعل الإرث الهلنستي والفارسي في حقول الطب والعلوم والفلسفة بنوع خاص، هو ما سيخلق ذلك التقليد القوي المتمثل في حُب البحث والفضول الفكري في المجتمعات الإسلامية المتعددة.

هذا وقد تأثرت ثقافات المنطقة، وإن بدرجات متفاوتة، بالطابع الكونيمبوليتاني للعالم المتوسطي هذا، فحفظت بذلك تراث العصور القديمة الكلاسيكية

والتراث الهلنستي

بأشكالهما المختلفة،

المعمارية والفلسفية والفنية

والمدينية والزراعية. ومن

بين أبرز الديانات التي

عرفتها المنطقة، الديانة

المسيحية في صيغتها

الأرثوذكسية التي دانت لها

الأجزاء الجنوبية من الجزيرة

العربية، فيما سيطرت

الزرادشتية على إيران وبلاد

ما بين النهرين. وللمهودية

تاريخٌ مديد في الشرق

الأدنى، كما استقرت جاليات

يهودية صغيرة في اليمن

وإحاط الجزيرة العربية مثل

يثرب (المدينة). وقد تعايشت القيم والآداب والتقاليد

الموروثة من كل هذه الحضارات في تلك البيئة

الثاسعة، المتعددة الديانات والمتعددة الأعراق، التي

لن يعرض قرنٌ من الزمن على وفاة النبي محمد إلا

وتكون قد بوغت بالفتوحات الإسلامية لها. وسوف

تشكل مع مرور الزمن جزءاً من منظومة حضارية أكبر

مقترنة بالدين الإسلامي، إنما محافظة في الوقت عينه

على تواصل مع شتى تراثات العصور القديمة.

خرجت جماعة المسلمين إلى الوجود في الجزيرة العربية إبّان القرن السابع الميلادي، وكانت المنطقة التي شهدت مولدها محل سيطرة حضارات وأمباطوريات وثقافات ومجموعات عرقية عريقة. فما زالت آثار من حضارة بلاد الرافدين حية إلى اليوم في واديّ دجلة والفرات؛ ولطالما شعرت المناطق المحاذية للبحر المتوسط والخليج بوقع القوى المجاورة التي كانت تزرع خطوط التجارة البحرية في تلك المياه ذهباً وإياباً. كانت بيزنطة، الدولة الرومانية الأرثوذكسية الشرقية، التي تتخذ من القسطنطينية قاعدة لها، المملكة المسيحية الأولى في المنطقة، وكانت على خصام مع الأمباطورية الساسانية الزرادشتية الجبارة في بلاد فارس (إيران حالياً).

تُعدّ بارز على الصخر من ماغشي - رومانان، بصور أردشير الأول، مؤسس السلالة الساسانية، وهو يواجه محارباً معادياً من بارثيا.



والمد والجزر في النزاع بين مختلف القوى الكبرى آنذاك كان له أكبر الأثر على التجارة، وكذلك على العلاقات مع المنطقة المزدهرة الواقعة إلى الجنوب منها في الجزيرة العربية. ولا يزال تاريخ بعض الممالك العربية الغابرة محفوظاً إلى الآن في الأوابد والمعلقات الأثرية كتذك القائمة في البتراء النبطية (القرن الأول ق-م، القرن الأول م)، وتدمر (القرن الثاني - القرن الثالث)، وفي آثار الغساسنة في القرون



## رسالة محمد وغزواته الحربية

التنزيل الأخير من الله إلى البشر جُمع القرآن في عهد ثلث الخلفاء الراشدين، الخليفة عثمان بن عفان (ح 644-656)، وهو يتألف من 114 فصلاً أو سورة. ويُقال إنها تنزلت على محمد في مسقط رأسه مكة، حيث كان يعمل في التجارة؛ كما أن هناك سوراً تعود إلى فترة إقامته في المدينة (622-632).

في مكة، تسببت إدانة القرآن للأثام والشور، مثل الكبرياء والغرور والجنس وإهمال الواجبات الاجتماعية، وكذلك تحذيراته من يوم الحساب وتهجمات على عبادة الأوثان، بنشوب نزاع حاد بين محمد وأتباعه من جهة، وزعماء قبيلته قريش من جهة أخرى. فتعرض أبناء عشيرته للمقاطعة، والمهددون إلى الإسلام للاضطهاد، مما حمل بعضهم على اللجوء إلى أقبوشم (في الحبشة). إلا أن شهرة محمد كنبى ورسول الله الصادق الأمين، تجاوزت حدود مكة، فكان يُدعى إلى القضاء والتحكيم بين فئات القبائل المتخاصمة في يثرب، التي سُميت لاحقاً بـ «مدينة النبي»، وتُختصر عادة بـ «المدينة»، وهي واحة مأهولة تقع على مسافة 250 ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة. وهجرت المسلمين إليها في العام 622 تُوِّجَ لبداية العصر الإسلامي. وتحتوي آيات القرآن التي تعود زمنياً إلى حقبة المدينة، حين كان محمد بمثابة الحاكم الفعلي فيها، على سطر من المادة التشريعية، كأحكام الزواج والميراث، التي سوف تُشكّل لاحقاً ما يُعرف بالقانون أو الشرع الإسلامي.

وبعد سلسلة من الحملات والغزوات ضد المكّيين، خرج المسلمون ظافرين. وفي السنة الأخيرة من حياته، رجع محمد مظفراً إلى مكة، حيث أعلنت القبائل عن خضوعها له وامتثالها لأمره على امتداد طريق العودة. وقد قام بإصلاح شاعر الحج القديمة، فذرع عنها جوانبها الوجودية وأعاد توجيهها نحو ما آمن بأنه التوحيد الإبراهيمي الأصلي. وبعد تنظيمه بضع حملات إضافية، عاد محمد إلى المدينة، حيث وافته المنية بعد مرضٍ قصير ألم به في العام 632.



الإسلام اسم مشتق من الفعل العربي «أسلم»، أي سلّم المرء نفسه واستسلم. واسم الفاعل «مسلم» يعني، أولاً وأساساً، تسليم الإنسان أمره لله كما تجلّى في تعاليم الرسول محمد (ن 570-632). هذا ويؤمن المسلمون بأن محمداً قد تبليغ الوحي الإلهي بحذافيره منجّماً في القرآن، هذا الكتاب الذي ينظر إليه المسلمون على أنه

يُعدّ تصوير النبي محمد في رسوم من المحرّمات. لكن جرى تداول صور المناظر البطولية لعمه حمزة وأخريين إظهاراً لأولى المعارك الملحمية التي خاضها المسلمون. هذا الرسم من الهند (حوالي 1561-1576)، واحذ من سلسلة تصاوير كبيرة الحجم كانت تعرض على الجمهور أثناء سرد وقائع تلك القصص الملحمية.



## توسّع الإسلام حتى عام 750



تركت وفاة الرسول محمد جماعة المسلمين من دون أي قائد بَيِّن، فكان أن اختار عدد من الزعماء واحداً من أقدم أصحابه، هو أبو بكر الصديق (ح 632-634)، ليكون أول خليفة له. وخلال فترة حكمه وحكم خلفه عمر بن الخطاب (634-644)، أُعيد توحيد القبائل التي ارتدت بعد موت الرسول، وتحولت تحت راية الإسلام إلى قوة عسكرية وأيديولوجية جبّارة. اندفع المسلمون خارجين من الجزيرة العربية، ففتحو نصف الولايات البيزنطية، وهزموها جيوش فارس الساسانية. سقطت المدائن، عاصمة الفرس، في العام 736، والقدس في العام 638. وفي فترة حكم عثمان بن عفان، خلف عمر بن الخطاب، دانت مصر بكاملها لسيطرة المسلمين العرب، وكان ذلك بحلول عام 646. اقتني العرب السفن من مصر وسورية، وبواسطتها أخذوا يفتنون غارات بحرية، فانتزعوا قبرص في العام 946، ونهبوا رودس في العام 654. وعملت الغزوات والخلافات المذهبية بين الحكّام البيزنطيين ووعاياهم في مصر وسورية على تسهيل الأمر للمسلمين، فقبِلوا بالامبالاة، إن لم نقل بالترحاب، من جانب من يُشاطرهم الإيمان بإله واحد، الذين زادتهم عقوداً من الحكم البيزنطي الغريب عنهم شعوراً بالسخط والمرارة. غير أن العوامل الدنيوية كانت مهمة هي الأخرى. فالحافز المحرّك للعرب كان الرغبة في المغنم، فضلاً عن الإيمان الديني. في الماضي، كان المغيرون من البدو يكتفون بالنهب أو يُسيطرون على الأرض، إنما ليتفرّقا

قبة الصخرة في القدس، بناها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في العام 691-692. وتعتبر أكبر صرح شُيّد بعد الفتح العربي. يزاد المبنى بأبواب قرآنية تتحدث عن وحدانية الله، وهو يكتنف الصخرة التي يُعتقد أن النبي قد عرج منها في «إسراة» الإعجازي إلى السماء.







بعد ذلك بصفتهم أصحابها المقهورة. لكن الخليفة عمر، الذي عرف عنه تجسُّره وبعُد نظره، قرَّر تشجيع القبائل على الاستقرار وفق نظام من المعاش [العماء] يُدفع من الخزينة العامة [بيت المال] التي وضعت يدها على الأراضي المفتوحة. غير أنه أبقى العرب منفصلين عن بقية السكَّان، داخل معسكرات مسلحة نمت حتى صارت مُدناً أشبه ما تكون بالحاميات العسكرية، كالبحصرة والكوفة في العراق. صحيح أن التوتر الناشء عن توزيع الغنائم [الغنيء] كان ينفجر أحياناً على صورة حرب أهلية مفتوحة، إلا أن الإشراف العام من جانب الحكومة الإسلامية الحديثة العهد لم يتوقف في ظل الحكم السلافي. ولئن وجدت السلاطات الحاكمة من يتحداها في بعض الأحيان بوصفها حُكماً منافياً للمهادية الإسلامية في العدالة والمساواة، إلا أن الحُكم السلافي كان على أتم انسجام مع الشكل السائد من التنظيم الاجتماعي القائم على الجماعة القرابية ذات الطابع الأبوي، وبقي هو النمط الساري المفعول إلى يومنا هذا. وقد واصلت الإسلام انتشاره وتوسُّعه في ظل الأمويين، بحيث وصلت أقدام المغيرين العرب إلى مناطق قسبة كوست فرنسا ووادئ السند.

## انتشار الإسلام 751 - 1700

بموجبها لليهود والنصارى بالبقاء على دينهم إذا ما أتوا الجزية، كفل الظلفاء لجميع الشعوب من أهل الكتاب (بمن فيهم الزرادشتيون) الحق في ممارسة شعائهم الدينية شريطة أن يدفعا الجزية، وهي كناية عن ضريبة تُسَدَّد لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية في البدء، بقي الإسلام ديناً للعرب، ورمزاً للوحدة وشارةً للخلية. وحين اعتنق الناس الإسلام، طُلب من المهتدين الجُدد أن يكونوا موالى (أي وكلاء) للقبائل العربية، وبما يُقتضى معه احتفاظ العرب بالدور المهيمن.

بيد أن عوامل كثيرة شجعت الناس على الدخول في الإسلام بُعيد الفتوحات الأولى. فبالنسبة لأولئك المسيحيين الذين أرهقتهم قرون طويلة من المشاحنات اللاهوتية المتحدقة حول التوازن الدقيق بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية، جاء الإسلام حاملاً إليهم رحابة صدر دين يتبوأ فيه المسيح مكانة مشرفة بوصفه بشيراً بمحمد. كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فقد بدا الإسلام لهم كإيمان مقوم بديانة إبراهيم وموسى. وحتى الزرادشتيون الذين جردوا من أي دعم رسمي لديانتهم عقب الفتح العربي للأمبراطورية الساسانية، وجدوا في الإسلام ديناً مثل دينهم، يقيم وزناً لمسؤولية الفرد الأخلاقية؛ ولاحقاً في فكرة المهدي الشيعية، مفهوماً شبيهاً بعقيدة «الساوشانت» في الأخويات الزرادشتية. تتميز الأفكار المسيحانية (المخلصية) بجاذبية عامة، وهي منبئة في جميع التعاليم الدينية تقريباً. في أعقاب الفتوحات الإسلامية للهند، صار «الإمام المنتظر» بحسب الأخويات الشيعية يتماهي في بعض الأحيان مع التجسد المرتقب للإله فيشنو. وفي الحواضر، ساهم المهتدون إلى الإسلام من الديانات الأقدم عهداً في نزع الصيغة القبلية عن دين العرب من خلال توكيد حقهم كمسلمين، والتشديد على عالمية رسالته، وكذلك من خلال التنويه بوظيفته كمشرعن في إرساء النظام الاجتماعي الجديد وأشكال السلطة السياسية الجديدة. ولعل البساطة التي تسم عملية اعتناق الإسلام (النطق

لقد توسع الإسلام بالفتح والهداية معاً. وإذا قيل أحياناً إن الدين الإسلامي انتشر بحد السيف، فليس معنى ذلك أن الاثنين متطابقان. يقول القرآن وبصورة لا ليس فيها: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة، 256]. واقتداءً بالسابقة التي أرساها الرسول، والتي سمح

بُرج الجامع الكبير في القيروان بتونس. يعود بناء هذا المسجد إلى القرن التاسع الميلادي، وقد بُني في نفس موقع مدينة قرطاجة القديمة. وتصميمه الهندسي المتميز بثلاثة أبراج يعلو واحدتها الآخر، مقتبس من وظيفة المنائر وأبراج المراقبة في العصور الكلاسيكية



وإرسون متجولون؛ وروايض صمدانيون؛ أمراء أروميون محاطون بطبانات تلخ الأبواب؛ ملقون ودعاة مذاهب سرية متفلكون يعرفون كيف يكفون عقاندهم وطقوسهم بحيث تناسب جمهوراً تباين خلفياته الثقافية أشد التباين. وربما لافتقاره إلى برنامج تبشيري موجه توجيهاً مركزياً، أثبت الإسلام أنه أكثر ما يكون قدرة على الانتشار بصورة عضوية.

هذه النسخة من القرآن المرقونة بالخط المحقق، أنجزت في بغداد عام 1308. ويعدّ قياسها الكبير من كونها نسخة موهوبة كي يستخدمها عموم المصلين في المسجد.



جهراً بالشهادتين أمام شهود عدول ليس (إلا) كانت تتعاير مغايرة صارخة لصالحها مع الإجراءات الشديدة التعقيد لاعتناق الديانات الغامضة، ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، أمكن «أسلمة» الأرواح المحلية بسهولة عن طريق دمجها في المحشر القرآني من الملائكة والجان والشياطين كما أمكن لعبادة الأسلاف، هي الأخرى، أن تكيف نفسها بواسطة تطعيم مجموعات القرابة المحلية بأنساب روحية، عربية أو صوفية.

لكن كان هناك أيضاً المزيد من الاعتبارات الدنيوية وراء العديد من عمليات الدخول في الإسلام. فأحكام الزواج الإسلامية ترجح الكفة لصالح دين الإسلام قطعاً، ذلك أن امرأة من أهل الذمة غير ملزمة حين تتزوج من مسلم أن تغير دينها، والعكس غير صحيح. إذ من المفترض أن ينشأ الأولاد على دين الإسلام، وفي ذلك ما يضمن أسلمة الأجيال القادمة. وقد كان لهذه الميزة الديمغرافية شأن كبير في مجتمعات جرت العادة فيها أن يتزوج المنتصرون من نساء القبائل المهزومة. وبصورة أكثر عمومية، كان هنالك ذلك الميل الطبيعي لدى أناس يتصفون بالنباهة والطموح إلى الالتحاق بصقوف النخب الحاكمة. ففي المجتمع الإسلامي المتطور في الحواضر، كمدن إيران والعراق مثلاً، صارت معرفة الشريعة والأحاديث النبوية، إلى جانب تحصيل العلوم غير الدينية كالآداب والفلك والفلسفة والطب والرياضيات، بمثابة علامة فارقة على الطبقات الشريفة (الأرستقراطية). لكن التأسلم بدافع من الطموح الاجتماعي ينبغي ألا يوصم بوصمة الانتهازية البحتة. فالعالم الإسلامي في أوج ازدهاره في العصور الكلاسيكية، كان المجتمع الأرقى تطوراً والأرفع ثقافة خارج الصين. لذلك كان أمراً طبيعياً أن تكون للحضال المدنية، من رصانة ونظام وترتيب وغيرها، جاذبيتها الخاصة بمعزل عن النشاط التبشيري الواعي. فالقاطنون عند أطراف المناطق التي شكّل قلب الإسلام، سوف يطالعهم الدين الإسلامي بأشكال ومظاهر شتى: تجار متعلمون مثقفون؛ معلمون





## السنة، والشيعة، والخوارج 660 - ن 1000

صيغة معتدلة تُعرف بـ «الإباضية». وقد ثار أحد زعماء الخوارج، ويُدعى ابن ملجم، لرفاقه بأن اغتال علياً عام 661. فتوصل الحسن، أكبر أبنائه سنّاً، إلى تسوية مع معاوية المنتصر، الذي أضحى بذلك أول خليفة أموي. وعند وفاة معاوية في العام 680، ووراثته ابنه يزيد الحكم، قام الحسين، الابن الأصغر لعلي، بمحاولة لاسترجاع الخلافة وإعادة ثانياً إلى ذرية النبي الأقرين. لكن المذبحة التي أودت بحياة الحسين ونفرت من أتباعه في كربلاء في العام 680 على أيدي جنود يزيد، ولدت موجة من الندم والثوبه بين أتباع علي في العراق [حركة التّوابين] وصاروا هؤلاء يُعرفون منذئذ بـ «الشيعة»، أي شيعة علي.

الانقسامات الرئيسية في الإسلام، المتمحورة أساساً على مسألة الزعامة، ترجع زمنياً إلى وفاة الرسول محمد، إلا أنها اشتدت وتفاقت مع أولى الحروب الأهلية (656-661)، وتداعباتها في الجيل التالي (680-681). كان الخليفة الأول، أبو بكر، واحداً من أقدم صحابة الرسول ووالد أصغر زوجاته سنّاً، عائشة. وقد اختبر عند وفاة الرسول بدعم قوي من عمر، وكان من أوائل المهتدين إلى الإسلام ويتحلّى بكل مزايا القائد بالفطرة. وحين حضرت الوفاة أبا بكر، لقيت خلافة عمر قبولا عاماً. وخلال فترة حكمه التي دامت عشر سنوات، أخذت الدولة الإسلامية بالتشكل. كذلك بدأت تظهر في عهده التوترات والمنازعات الناجمة عن الفتوحات، وذلك حول تقاسم الغنائم ومكانة زعماء القبائل في النظام الإسلامي الجديد. وقد بقي هذا التوتر تحت السيطرة بفضل حكم عمر الذي اتسم بالصرامة والطهرانية، إلا أنه لن يلبث أن يتفجر على نحو فاجع إبّان عهد خليفه، عثمان، الذي اغتيل في المدينة على أيدي مقاتلين ساحطين عاندين من مصر والعراق. فبالرغم مما عُرف عن عثمان من التزام شديد بالدين الجديد، وهو الذي كان من أوائل الداخلين فيه، لطالما ارتبط اسمه بعشيرة بني أمية في مكة، التي عارضت في الأصل رسالة محمد. فقد اتهم بمحاباة أبناء عشيرته على حساب مسلمين أكثر تقوى وصلاًحاً منهم. وقد تكوّن هؤلاء حول علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وأقرب أنسابه الذكور من الأحياء، الذي رأى بعض أتباعه أنه الشخص المختار أصلاً لخلافة الرسول، والذي تنبأ الآن سنة الخلافة فعلاً. غير أن إخفاق علي في معاقبة قتلة عثمان حمل اثنين من أقرب صحابة النبي محمد، وهما طلحة والزبير، على شق عصا الطاعة بدعم من عائشة، ولئن هزم عليّ هذين الرجلين، إلا أنه لم يتمكّن من التغلب على نسيب عثمان، معاوية بن أبي سفيان، والي بلاد الشام، في معركة صفين. وقراره الأخير بالسعي إلى إجراء تسوية مع معاوية، أثار تمرداً في صفوف أشد أنصاره تشدداً وكفاحية. أولئك الذين عرفوا فيما بعد باسم «الخوارج». صحيح أن علياً أنزل هزيمة نكراء بالخوارج في تموز/يوليو 658، إلا أنه كتب اليقاه لعدد كافرٍ منهم لمواصلة الحركة إلى يومنا هذا، وإن في

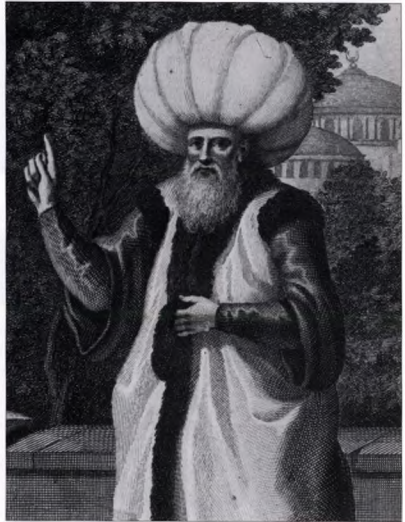
لطالما أبدى أباطرة المغول ودرّجهم عنابة ثابتة بتاريخ دينهم وحكمتهم، وقد تجلّى ذلك في مذكراتهم ورسومهم على السواء. بحلول منتصف القرن السابع عشر، كان الفنانون الشاهسون للأمبراطور جاهانغير قد طوّروا تصميمات تصويرية يظهر فيه حكيمان أو وليّان على الأقل وقد اقتعدوا بساطاً يتناقشون فيما بينهم. لم يتورع فنّانو الحقبة المغولية عن تصوير أولياء خرافيين في هذا الرسم كما لو أنهم بعد أحياء. الشخصيات البادية في هذا الرسم تُمثّل الاتجاه السلفي. وحده الدرويش حاسر الرأس إلى يسار الصورة يُمثّل الخروج عن «الخط المألوف».



## الخلافة العباسية فجي ظل هارون الرشيد

على البيزنطيين (الروم)، أجبرتهم على البقاء في وضع دفاعي حرج. لدى توبته سُدَّ الخلافة في العام 786، أقام هارون علاقات دبلوماسية مع شارلمان (ح 742-814) ومع أمبراطور الروم. كما أنشأ صلات دبلوماسية وتجارية مع الصين.

كثيراً ما يُشار إلى حكم هارون الرشيد على أنه «العصر الذهبي»: أي حقبة من النشاط الثقافي والأدبي الفائق الأهمية، ازدهرت خلالها الفنون، والنحو العربي، والآداب والموسيقى بفضل رعايته لها. هذا ويميز الرشيد كأجلى ما يكون البروز في العمل الأدبي الشهير: «الف ليلة وليلة»، ومن بين جلسائه وسُمَّاره، نذكر الشاعر أبا نواس (ت 815)، الذي عُرف بخمرياته وغزلياته، والموسيقي إبراهيم الموصلي (ت 804). وكان أبو الحسن الكسائي (ت 805)، معلم الرشيد ومسؤوب أولاده، وجهاً مرموقاً بين النخبة العرب ومقرئي القرآن في عهده. وفي عهده أيضاً، نقلت بعض النصوص الكلاسيكية من اليونانية والسيرانية وغيرهما إلى العربية. واشتهر هارون بهباته السخية: فكانت قصيدة سُحكمة النظم قميئة بأن تُكسب صاحبها فرساً، أو صرة ذهبية أو حتى عزة بحالها. كذلك عُرفت زوجته زبيدة بعمل البرُصنم الخير، ولاسيما ووقوفها وراء حفر عدد كبير من آبار



ثمة إجماع على أن فترة حكم الخليفة هارون الرشيد (ن 764-809) تُمثل ذروة الفتوحات العسكرية والتوسعات الإقليمية في ظل الدولة العباسية، حيث امتدت الخلافة من حدود الهند وآسيا الوسطى إلى مصر وشمال إفريقيا.

برز هارون الرشيد من خلال ارتقائه الصفوف كقائد عسكري قبل تسلّمه مقاليد الخلافة من أخيه المغدور، الهادي (ح 785-786): كما عمل والياً على عدد من الأمصار، منها إفريقية (تونس حالياً)، ومصر، وسورية، وأرمينيا، وأذربيجان. وحمالاته العسكرية

صورة تُعكّل هارون الرشيد يغلب عليها الطابع الرومانسي للقرن التاسع عشر، ويظهر في خلفية الرسم مسجد على الطراز العثماني. كان إحياء الخلافة الإسلامية من جانب سلاطين بني عثمان خطوة يُراد منها تخويلهم حق رعاية المسلمين في البلدان الأوروبية، وذلك لموازنة الحقوق المُتعمّدة من طرف هذه الأخيرة على رعايا السلطان من المسيحيين.

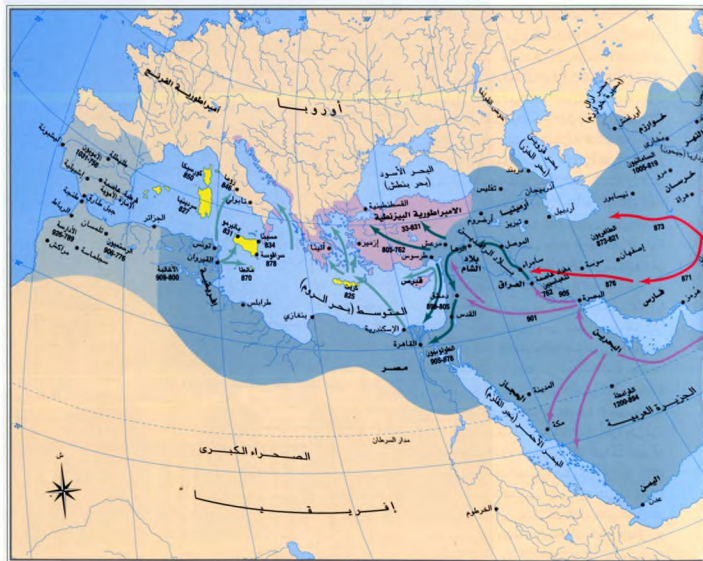




الدولة العباسية حوالي 850	
امتداد الدولة العباسية 809-786	
سلالات إسلامية أخرى	
انتشار الإسلام 800-750	
الإمبراطورية البيزنطية	
حملات حربية عباسية	
هجمات بحرية إسلامية	
تعدّيات الصليبيين	
توسّع القرامطة	

قضاؤه على آل البرمكي المتفتّنين، أفضيا إلى فترة سادها التدهور السياسي والإقليمي. إلا أن قرار الرشيد بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه الأمين والمأمون واختياره أكبرهما سناً، الأمين، ليخلفه على العرش (ح 809-813)، أسهم في نشوب حرب أهلية دامت سنتين، تلتها فترات من الاضطراب المتواصل والعصيان المسلّح. هذا ولشأن عرف عهد المأمون (ح 813-833) تألقاً فكرياً مثيراً للإعجاب، إلا أنه شهد مع ذلك تدهوراً على صعيد الامتداد الإقليمي، فضلاً عن انحسار دائرة النفوذ العباسي.

المياه على طريق الحجّ من العراق إلى المدينة. كذلك شهدت حركة التصوّف الإسلامي ازدهاراً كبيراً في عهد الخليفة هارون الرشيد. فكان الزاهد والمتصوّف الشهير، معروف الكرخي (ت 815)، من بين أبرز الشارحين للصوفية في بغداد. على النقيض من ذلك، انتهج هارون الرشيد سياسة التضييق على الشيعة، الذين دأبوا يتحدّون سلطانه على أرجح الظنّ. اتسم النصف الأخير من حكم الرشيد بالقلق وعدم الاستقرار السياسي. فمُنح والي إفريقية، إبراهيم بن الأغلب، حكماً شبه ذاتي في العام 800، وكذلك



## انتشار الإسلام، والشرع الإسلامي، واللغة العربية

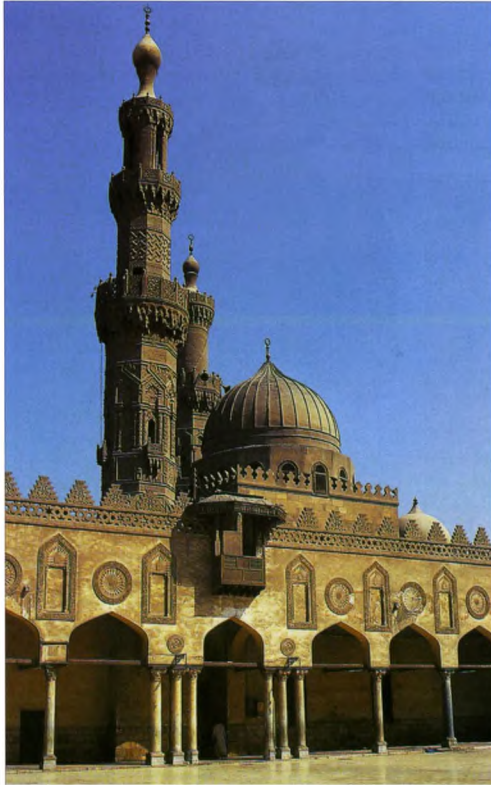
الأدبية نفسها، وفي حين سيطرت العربية على اللهجات المحليّة في الولايات الغربية، ظلّت الفارسية قيد التداول في الولايات الشرقية، وقد شهدت هذه الأخيرة نهضة أدبية كبرى في القرن العاشر الميلادي بظهور لغة جديدة هي مزيج من العربية والفارسية، ما لبثت أن سادت إيران بأسرها، فضلاً عن بلاد ما وراء النهر وشمال الهند.

وثمة موضوع ظلّ يطرح نفسه المرّة تلو الأخرى في تلك الحقبة التكوينية من الفكر الإسلامي، وأعني به العلاقة ما بين الوحي والعقل، التي غالباً ما اتسمت بالحدّة والتشجّع. في عهد الخليفة العباسي المأمون (ح 813-833)، خرجت إلى حيز الوجود مجموعة من المتكلمين (علماء العقائد) عُرفوا بـ«المعتزلة»، كانوا قد تشبّعوا بأعمال الفلاسفة الإغريق وتبنّوا الأسلوب العقلاني في الجدل والحجاج الذي يُسوّي ما بين الله والعقل المحض. بالنسبة للمعتزلة، العالم الذي خلقه الله إنما يسير وفق المبادئ العقلية التي يستطيع البشر إدراكها عن طريق أعمال العقل. وحيث إن البشر كانوا خُرّة، فهم مسؤولون أدبياً عن أعمالهم. ولما كان للخير والشر كليهما قيمة جوهرية، فإن العدالة الإلهية محكومة بنواميس عامّة، كونية. كان المعتزلة من أصحاب الرأي القائلين إن القرآن «مخلوق» في الزمن، وقد أوحى به الله لمحمد، لأنّه لا يس جُزءاً من جوهره. أما خصومهم من «علماء الحديث»، فكانوا يُصوِّرون على أن القرآن «غير مخلوق»، بل هو أزلي تماماً مثل أزلية الله نفسه. كما كانوا يرون أن ليس من شيمة الإنسان أن يُشكك في مشيئة الله أو يتحرّرها بصورة عقلانية، بل إن أعمال الإنسان كافة محكومة بالقضاء والقدر في النهاية. والنظرة المعتزلية هذه، التي زادت بها «المحنة» (محنة خلق القرآن) قوة على قوة، فرضت نفسها فترةً من الزمن. غير أنها ما لبثت أن تراجعت في عهد الخليفة المتوكل (ح 847-861)، بفضل الضغوط الشعبية المتركّزة على الشخصية البطولية لأحمد بن حنبل (ت 855)، الذي تحمّل كل صنوف السجن والتعذيب دفاعاً عن الرأي القائل بلا مخلوقية القرآن. وقد أمكن التوصل إلى حلٍ وسط بين

عمل الانتشار السريع للإسلام بمثابة قوة تغييرية هائلة في العالم القديم. فما إن انتهى عهد عمر بن الخطاب (ت 644)، حتى كانت الجزيرة العربية بأكملها قد تمّت فتحها، ومعها معظم أراضي الأمبراطورية الساسانية، علاوة على الأقاليم السورية والمصرية من الأمبراطورية البيزنطية. وفي أعقاب موقعة كربلاء المأساوية، التي انتهت بمقتل الإمام الحسين (680)، بدأت مرحلة جديدة بقيام الأمبراطورية الأموية (661-750)، التي امتد سلطانها في نهاية الأمر من نهر إربو في إسبانيا إلى نهر أوكسوس (جيحون) في آسيا الوسطى. واذ بسطت على هذا النحو سلطتها الشاملة على بلاد مترامية الأطراف، اتخذت السلالة الأموية من دمشق عاصمةً لها، وبقيت عملياً من دون أي تحدٍ لسلطانها إلى حين صعود الخلافة العبّاسية وعاصمتها بغداد (749-1258). وفي حين بسّقت إسبانيا (الأندلس) تحت الحكم الأموي (756-1031)، قامت قوى إقليمية جديدة بالتصدّي للهيمنة العبّاسية، كالفاطميين في مصر (909-1171)، والسلاجقة في إيران والعراق (1038-1194). وقد ترافق كل ذلك مع موجات من الغزاة الصليبيين ضربت الشرق.

لقد ازدهرت مدارس وتيارات عديدة في الفكر، مثل مذاهب الاجتهاد السنيّة (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي)، والمذهب الشيعي «الإثني عشري» المتحدّر من إمامة عليّ (ت 661). كذلك طبع فوراً النشاط الفكري ظهور تياراتٍ المعتزلة والأشعرية في مناهج «علم الكلام»، ونضج الفلسفة والعلم والتصوّف. وقد تأسّست العديد من مراكز التعليم المرموقة، واقتترنت بإنتاج غزير للمخطوطات، نذكر منها: الأزهر في القاهرة، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس، وعلقات قرطبة في الأندلس، وحوزات النجف وكربلاء في العراق، وحوزات قم ومشهد في إيران.

وبوصفها لغة القرآن، انتقلت العربية إلى المتأسلمين الجدد، وبصيرورتها اللغة المشتركة للإسلام القروسطي، تجلّت أوجه تفوّقها في سائر حقول الثقافة العالية، من المجال الديني إلى القانوني، ومن المجال الديواني إلى الفكري، وصولاً إلى الأساليب



الوحي والعقل في أعمال أبي الحسن الأشعري (ت 935)، الذي كان يلجأ إلى استخدام طرائق عقلية دفاعاً عن فكرة عدم خلق القرآن، ويقبل بقدر معين من مسؤولية البشر عن أفعالهم. بيد أن هزيمة المعتزلة كانت لها ذيول بعيدة المدى: فقد بطل بعد الآن أن يكون الخلفاء أصحاب الكلمة الفصل في أمور العقيدة. واعتنق التيار السائد في علم الكلام السني نظرية الأمر على صعيد الأخلاق: أي أن عملاً ما يكون صائباً لأن الله أمر به: والله لا يأمر به فقط لأنه صائب. والمعتزلية اصطلاح دال على الفساد والاعتساف في نظر الكثر من الإسلاميين المحافظين، ولاسيما في المملكة العربية السعودية، ممن يأخذون بالمذهب الحنبلي في الشرع.

صحن الجامع الأزهر في القاهرة. أسسه الفاطميون الشيعة عام 970م، لكنه صار فيما بعد أهم مركز للدراسات الفقهية السنية وينبوعاً غزيراً للمخطوطات.

## الدول الوريثة إلى العالم 1100

إدريس الثاني مدينة فاس في العام 808. وفي إفريقية (تونس حالياً)، قام أحفاد إبراهيم بن الأغلب، عامل هارون الرشيد الذي مُنح حكماً ذاتياً على البلاد التي يتولّاها لقاء دفع أتاوة سنوية، بتأسيس سلالة حاكمة [الأغلبية] دام عهدها حتى عام 909. والخوارج



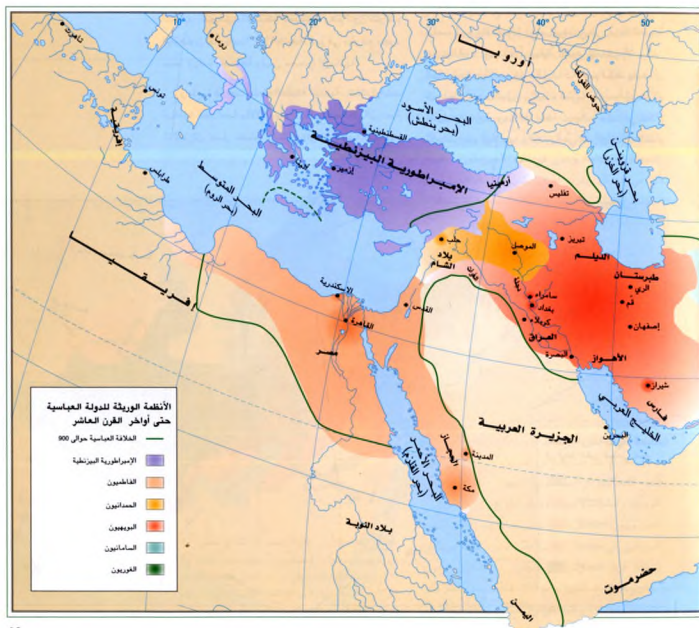
هذا التمثال من الصلصال يُبين بجلاء القسامات الجسدية التي لفتت أنظار المعلمين العرب والفرس بوصفها الملامح النموذجية للجنود الأتراك الذين يجنّدهم الخلفاء في جيوشهم.

لم يتسنّ للدولة العباسية، حتى وهي في أقصى امتدادها، أن تضم العالم الإسلامي برمّته. ففي إسبانيا، تأسست سلالة حاكمة مستقلة على يد تاج من بني أمية هو عبد الرحمن الأول (ح 756–788). كان عبد الرحمن هذا حفيداً للخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أفلت من مذبحه أودت بذويه وأقاربه، وتمكّن بعد مغامرات شتّى من أن يجد طريقه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية. هنا أقتنع العرب والبربر المتخاصمين بأن يقبلوا به زعيماً بدلاً من الوالي المعين عليهم من قبل العباسيين. وإلى ما يُعرف بالمغرب حالياً، وصل أحد المتحدّرين من نسل علي وفاطمة، ويُدعى إدريس بن عبد الله، بعد فراره من الجزيرة العربية إثر فشل ثورة شيعية في العام 786، وحلّ في العاصمة الرومانية القديمة: فولبوليس. هنا شكّل إدريس انتحافاً قليلاً سرعان ما استولى على جنوب المغرب. أنشأ ولده

والأمان الذي يتمتع به الجميع في الأنفس والممتلكات جميعاً».

غير أن التوترات السياسية والدينية كانت ما فتئت مستفحلة في عقر دار الأباطورية. فالنزاع على الخلافة بين ولدي هارون الرشيد، الأمين والمأمون، انفجر احتراباً أهلياً دام قرابة عقر من الزمن، مما فتت في عضد الجيوش العباسية وأوهن مؤسسة الخلافة

المتزمتون، المعتصمون بمبدأ انتخاب الإمام أو الخليفة، أقاموا لأنفسهم دويلات مستقلة في كل من واحة ورجلة وتاهرت وسجلماسة. وعن مدينة تاهرت التي دمرها الفاطميون في القرن العاشر، كتب الإخباري ابن الصقر يقول: «ما من غريب توقف فيها إلا واستوطنها وبنى فيها، مأخوذاً بالحبوحة الزائفة عليها، وعدل إمامها، وحقانيته تجاه البرية،



على بناء طبقة من مَلَكَ الأراضي على حساب الحكومة المركزية. وفي إيران والولايات الشرقية، أقام طاهر [بن الحسين بن مصعب]، أكفأ قواد المأمون العسكريين على الإطلاق، حكماً وراثياً. وبغية التصدي لقوة الطاهريين، عوّل خلف المأمون، الخليفة المعتصم، وبشكل متزايد على المرتزقة المجنّدين من القبائل الناطقة بالتوركية في آسيا الوسطى - هذه الممارسة التي عجّلت بتفكّك الدولة العباسية وظهور سلالات قبلية حاكمة بحكم الأمر الواقع. ولعلّ بناء عاصمة جديدة للدولة في سامراء زاد في عزلة الخليفة عن رعاياه. ولم تحلّ نهاية القرن العاشر إلّا وكان الخلفاء العباسيون ملوكاً بالاسم فقط، يتحدّى شرعيتهم مُطالبون بالحكم لذريّة عليّ. وأخذ هؤلاء تلمّحاً وجذريةً، وهم القرامطة، لم يألو جهداً في إنكسار نار الثورات الفلاحية والبدوية في العراق وبلاد الشام

نفسها. ولئن كسب المأمون الحرب، إلّا أن محاولته فرض عقيدة المعتزلة القائلة بـ «خلق» القرآن، واجهت مقاومة عنيفة من جانب العلماء الشعبيين المتخلّفين حول أحمد بن حنبل. في عُرّف هذا الأخير، الذي كان يؤمن بأن النصّ الإلهي «غير مخلوق»، لا بل ويتّصف بـ «القدّم»، من شأن العقيدة القائلة بعكس ذلك أن تنتقص من فكرة أن القرآن كلام الله. لذلك كان ابن حنبل وأتباعه ينظرون إلى القرآن والحديث على أنهما المصدر الوحيد للسلطة الدينية، وهم دون سواهم المؤهّلون لتأويلهما. أما الخليفة، فهو في نظرم مجرد منفذ لإرادة الجماعة وليس مصدرأ لإيمانها.

ومثلما ضعفت سلطة الخليفة الدينية، كذلك تراخت قبضته السياسية والاقتصادية. ففي المناطق الزراعية كالعراق، عمل نظام الإقطاع (أو الزراعة الخراجية)



ممتلكاتهم مع قبيلة الكراكلة التركية بزعماء السُلالة القرخانية، وقد بذل محمود قصاره لحصرها في حوض نهر جيحون في الشمال، كذلك عبر محمود نهر السند حيث أرسى لنفسه حكماً دائماً في البنجاب، وراح يشن غارات على شمال غربي الهند، ناهباً المدن ومُحطماً العديد من الآثار الغنية بحجة أنها «وثنية»، وهذا ما أكسبه سمعة مخيفة كغازٍ للكفار، وعلى جبهته الغربية، في أراضي «الإسلام القديم»، دحر محمود البوهيين حتى تخوم العراق تقريباً.



محمود الغزنوي [يمين الدولة] يعبر نهر الغانج. حظي الغزنويون، وكانوا ولاية عسكريين أتراكاً، بشهرة طائلة في الأزمنة المتأخرة باعتبارهم أول من أدخل سلطان المسلمين إلى الهند. الرسم مأخوذ من «جامع التواريخ» للوزير رشيد الدين، المصنّف في مطلع القرن الرابع عشر ميلادي.

والجزيرة العربية باسم «مخلص»، يتحدّر من نسل عليّ عبر سليله إسمايل بن جعفر، وفي عشرينيات القرن العاشر الميلادي، أصاب القرامطة الذين خلقوا دولة مستقلة لهم في البحرين، العالم الإسلامي كله بالصدمة والذهول عندما نهبوا مكة ونقلوا معهم «الحجر الأسود»، وفي عام 969، انتزعت مصر، وكانت شبه مستقلة تحت حكم ابن طولون وخلفائه الأحمديين، من جانب الفاطميين الإسماعيليين الذين أقاموا خلافة يتولّوها «إمام حي» من نسل علي وإسماعيل، وفي شمال سورية وأعمال نهر دجلة، حكمت أسرة بني حمدان العربية البدوية - وكانت هي الأخرى من الشيعة - دولة شبه مستقلة، وفي بعض الأحيان مستقلة بالتمام، وفي خراسان وبلاد ما وراء النهر، حلّ السامانيون محل الطاهريين كمدافعين عن الثقافة العالية العربية - الفارسية في وجه القبائل البدوية المتكاثرة، وحتى في قلب الأمبراطورية نفسها، أي في العراق وغرب إيران، كان الخلفاء العبّاسيون سجناء فعليين للبوّهيين الشيعة، وهم عشيرة محاربة من الديلم كانت تستوطن جنوبي بحر قزوين.

وفي آسيا الداخلية، حيث أسس السامانيون عاصمة مزدهرة في بخارى، أفسد اعتناق القبائل الناطقة بالتوركية الإسلام على السامانيين دورهم كغزاة. كان هؤلاء محاربين أشداء عُهد إليهم بالدفاع عن حدود الإسلام من تعديّات البدو الرُحّل. لكن تجنيد المحاربين بالاسترقاق، المعروفين بالممالك أو الغلمان، من سكان المناطق الجبلية أو القاحلة، عجّل في تفكك أوصال الأمبراطورية. وحينما تداعت السلطة في المركز، تنطّح الممالك إلى إنشاء «سلالاتهم الرقّية» الخاصة بهم. وهكذا شرع الغزنويون - الذين حلّوا محل سادتهم السامانيين السابقين في خراسان - بالعمل جنوداً مستقرّين في منطقة غزنة الحدودية إلى الجنوب من كابول. وحين انهار حكم السامانيين عام 999، قام محمود الغزنوي (ح 998-1030)، وهو ابن والرمن الأرقاء، بتقاسم

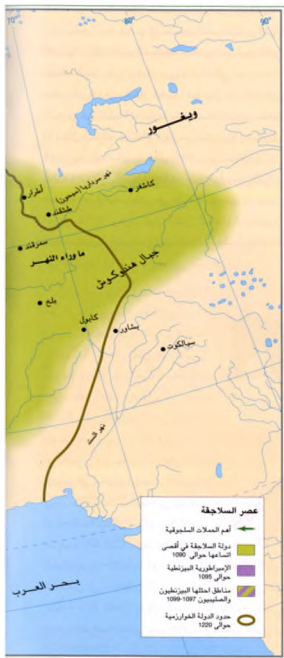
## العصر السلجوقي

البويهيين عام 1055، آلت بغداد إليهم، حيث قام الخليفة العباسي بتتويج زعيمهم مطربك سلطاناً، اعترافاً منه بسُلْطَنه العُليا. وفي مقابل هذا الاعتراف

بالرغم من كل التحدّيات التي واجهت سلطة الخلفاء العباسيين وفقدانهم المنحة العسكرية والسلطان السياسي الفعّال، إلا أنهم احتفظوا بهيبة كبيرة واعتبار لا يُستهان به في أعين معظم أهل الأمصار والعديد من القبائل باعتبارهم الورثة الشرعيين للنبي محمد ورأس جماعة المسلمين. لقد ساعد تقسيم العالم إلى «دار الإسلام» و«دار الحرب» على انتشار الإسلام وتوسّعه في اتجاهين، اتجاه طارد بعيداً عن المركز، وآخر جاذب نحو المركز: حين كانت القبائل تتقبّل الإسلام من خلال احتكاكها بالتجار والعلماء المسلمين أو بالتصوّف الجوالين، كان الخلفاء يميلون إلى إضفاء الشرعية على حكمها، فيُعيّنون زعماءها ولاة على مناطقهم. والدخول في الإسلام عمل على تمدين الأقاليم البدوية والرعية بإخضاعها شكلياً - وإن ليس دائماً - إلى المراسم الشرعية، مما قلّص الفجوة الثقافية بين

سكّان البوادي والسهوب من جهة، وسكّان المدن والأمصار من جهة أخرى. وكمن مرة صارت القبائل الداخلة حديثاً في الإسلام من كبار بناء ورعاة الثقافة العالمية الإسلامية، ممثلة بالفن والعمارة والأدب. لكن الدخول في الإسلام صعب، في الوقت عينه، على الحكّام أن يدافعوا حتى عن قلب العالم الإسلامي في وجه غزوات وتعدّيات البدو الرُحّل، طالما أن هؤلاء لم يعودوا بعد الآن في عداد الكفّار، وبالتالي فقدّ الجهاد (أو «الحرب المقدسة») ضدهم كل أسبابه الموجبة.

وتمت مجموعتان من الشعوب الناطقة بالتوركية، وهما الأتراك الكراكلة والأتراك الغزّية (الغزّ)، أسست دولتين كان لهما إسهامهما الكبير في هذه السيرة. فضي بلاد ما وراء النهر، قبلت السُلالة القرخانية بالسلطة الصورية للخلفاء العباسيين، وأضحت راعية لثقافة تركية جديدة مستمدة جزئياً من النماذج العربية والفارسية. وبعد إنزال الأتراك الغزّية، بقيادة الأسرة السلجوقية، الهزيمة بالغزنويين، بسطوا سيطرتهم على خراسان، واضعين بذلك الحجر الأساس للإمبراطورية السلجوقية. وفي أعقاب دحرهم



في أعقاب التقدّم السريع الذي أحرزه السلجاق داخل بلاد الأناضول، اتخذ هؤلاء من قونيا (التي كانت سابقاً عاصمة لهم. هذه البوابة ذات الزخرفة البديعة لمدسة «إينجه مينار» دليلاً وافر على الثراء الاستثنائي لطرز السلجوقي في العمارة. والمعدّنة للهيئات، التي اشتقت منها المدرسة اسمها، دُمّرت جزئياً حين ضربتها إحدى الصواعق عام 1900.



العام 1096. صحيح أن السلاجقة استولوا على نصف بلاد الأناضول، مما أسس لقيام الحكم التركي العثماني فيما بعد، إلا أن نظامهم السلطوي كان أكثر تشرذماً من أن يحفظ وحدة الدولة، أو يحمي تخوم الإسلام من المزيد من غارات وانتهاكات البدو الرحّل.

الرسمي، وافق السلاطين السلاجقة على التقيد بأحكام الشرع الإسلامي والذود عن حياض الإسلام في وجه أعدائه الخارجيين. والهزيمة الفادحة التي أنزلها السلاجقة بجيش الروم في ملازكرد عام 1071، شكّلت أحد العوامل المُفضية إلى أولى الحملات الصليبية في



## التجنيد العسكري 900 - 1800

كانت أم ثقافية أم لغوية أم تاريخية، بالشعوب التي يحكمونها، فقد رأينا المجتمع ينزع إلى التطور خارج نطاق سلطة الدولة ومسؤوليتها، ووجدنا العلماء (رجال الدين وقضاة الشريعة) يندمجون بالشعوب والبيوتات المتملكة ليشكلوا معاً نخبة من الوجهاء والأعيان تتوقف الهيبة التي تتمتع بها على مدى تضلعها في المعارف الدينية. ولئن سمحت الظاهرة المملوكية بنشوء شكل من أشكال المجتمع المدني المنفصل عن الدولة العسكرية، إلا أنها عملت ضد بلورة نمط من الولاء المجتمعي، أو الروح الوطنية، كالذي سيجري لاحقاً في بلدان غرب أوروبا. وكنت تجد هذه الممارسة، أي تطويع المغيرين البدو لحماية المجتمع

صار تجنيد الجيوش من مناطق الأطراف، ولاسيما من أراضي السهوب في آسيا الداخلية والقوقاز والبلقان، من أبرز العلامات الغارقة لأنظمة الحكم الإسلامية حتى العصر الحديث. كان هؤلاء المغالطة المعروفون بهـ«المماليك»، يُشْتَرُونَ كعبيد أرقاء في التجنود والسهوب، أو يُؤسسون من بين أفراد القبائل المهزومة. ولما كان يُؤتى بهم خصيصاً للانخراط في جيش السلطان الخاص أو للعمل في حراسة قصوره، فقد كانوا يُغنون مبادئ الدين الإسلامي وشيئاً من الثقافة الإسلامية، ويتلقون تدريباً على فنون القتال. إلا أن لصاق الصفة «أرقاء» بالمماليك (مثلما نقول: «مقاتلة أرقاء»، أو «سلالات رقية»)، أمر مضلل إلى حد ما. فلئن كان المماليك والغلمان (الرقيق المنزلي) يُشْتَرُونَ ويُباعون كمتاع شخصي، فإن مكانتهم الاجتماعية كانت تعكس مكانة أسيادهم أنفسهم وليس وضعهم هم العبودي. ولدى إعتاقهم من نير العبودية في نهاية المطاف، كان هؤلاء يُصبحون أحراراً، بل وكلاء لأسيادهم السابقين، يتمتعون بكامل حقوقهم في التملك والزواج والأمن الشخصي، لا بل ويرتقي بعضهم إلى مصاف الأمراء.

بدأت هذه الظاهرة، أعني ظاهرة المماليك، مع الخلفاء العباسيين الذين أخذوا يجنّدون أبناء القبائل في بلاد ما وراء النهر وأرمينيا وشمال إفريقيا، كي يوازنوا بهم قوة الطاهريين. كما عمدوا إلى موازنة تلك القبائل بدورها بواسطة الغلمان الأتراك الذين كانوا يُشْتَرُونَ في أسواق النخاسة فرادى. قبل أن يُصار إلى تدريبهم وتطويعهم في كتائب ذات إمرة فردية. ولما كان هؤلاء الغلمان يقيمون داخل معسكرات منفصلة، لها مساجدها وأسواقها الخاصة، فقد كان ولازمهم لقادتهم أكثر منه للخليفة. وبعد سقوط الدولة العباسية في العام 945، تبسّنت هذه السياسة حكام الأمر الواقع من ورثوا السلطة السياسية عن العباسيين. فجميع الدول التي ظهرت في الشرق غداة العصر العباسي، أي البويهية والغزنوية والقراخانية والسلاجوقية، إنما نشأت على أكتاف أقليات عرقية، من بينهم مرتزقة جاؤوا من منطقة بحر قزوين، وقبائل تركية وبدوية أخرى أتت من آسيا الداخلية. ولما كان الأمراء العسكريون الجدد لا تربطهم أية رابطة، عرقية



يقاوموا كل محاولات امتصاصهم داخل صفوف النُخب الأصلية. وظلّوا في الأغلب الأعمّ يشكّون شريحة أرستقراطية من جبل واحد، لا تجمعها أواصر القربى ببقية المجتمع المصري.

وقد تطوّر نظام الاسترقاق العسكري في اتجاه مختلف نوعاً ما في ظل العثمانيين. فاعتباراً من أواخر القرن الرابع عشر، بدأ السلاطين يوازنون قوة الخيالة السباهية في جيوشهم الخاصة، المجدّدين أساساً من إقطاعات النبلاء والأشراف أو المتطوعين كمرتزقة من عشائر البدو العربية والكردية والناطقة بالفارسية، بتشكيلات عسكرية من المشاة عرّف أفرادها من العساكر الجُدّد بـ«الإنكشارية»، المجدّدين غالباً من الولايات العثمانية المسيحية في البلقان. فكان

من بدو آخرين – ويعني آخر: «تحويل الذئاب إلى كلاب رعيان» – قائمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، من المغرب إلى وادي السند.

ونظام الاسترقاق العسكري هذا بلغ ذروة اكتماله في مصر، البلد الكثيف السكان من الفلاحين والمفتقر إلى أية طبقة عسكرية أصلية من صلبه. وقد تأسس هذا النظام في مصر بنجاح مُطلق، حتى إن حكم المماليك دام ما يربو على قرنين ونصف القرن (1250–1517)، وعاد وظهر ثانية، وإن في شكل معدّل، في ظل العثمانيين (1517–1811). وحيث إن المماليك المصريين كانوا يسدّون النقص الحاصل في صفوفهم باستمرار من الخارج (بدايةً من الأتراك الكيبتشاك ثم لاحقاً من الشركس في القوقاز)، فقد استطاعوا أن



التجنيد، المعروف بـ«الدفرشمة» (ضريبة الدم بالتركية)، يجري في القرى والداكر كل أربع سنوات مرة تقريباً. في حين كانت المدن والبلدات مغطاة من ذلك، لاعتبارهم أبناء المدن والحواسر متعلمين أكثر مما ينبغي أو غير أشداء جسدياً بما فيه الكفاية. فكان يقع الاختيار على الفتيان ممن تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة (وإن أفادت بعض التقارير عن تجنيد صببة دون الثامنة من عمرهم). ولما كان الرجال المتزوجون مستثنين من التجنيد، فقد كان الفلاحون الأرثوذكس يلجؤون في كثير من الأحيان إلى تزويج أولادهم وهم بعد صغار السنّ للتهرب من أخذهم إلى العسكرية. والفتيان الذين يتمّ انتقاؤهم من بين البقية (وتصل نسبتهم إلى 20 بالمئة)، كانوا يُعطون هوية إسلامية ويُدربون على فنون القتال، مع اختيار أبرعهم وأمعهم لخدمة السلطان شخصياً. ومن موقعهم هذا، كثيراً ما كانوا يرتقون الصفوف ليعتدوا حكماً للأباطورية نفسها. وإذا كان التجنيد الاسترقاقي قد توقف منذ أربعينيات القرن السابع عشر، إلا أن ظاهرة الإنكشارية لم تعرف الانحسار بفضل التحاق المزيد من الصبية المولودين مسلمين هذه المرة بصوفهم. وبالنظر إلى ما كانوا يتمتعون به من مصالح تجارية لا يُستهان بها، وما يتفاوضونه من رواتب ومعاشات تقاعدية من خزينة الدولة، فقد تحول الإنكشارية إلى نخبة ذات امتيازات، مستبذة ومانعة لكل تغيير. في عام 1826، استخدم السلطان محمود الثاني قوته العسكرية المكونة حديثاً للإجهاز على معظم هؤلاء الإنكشارية أثناء تجمّعهم للقتيش في استنبول.

عرض لسرايا الإنكشارية يكامل بهارجهم وثيابهم الموشاة بالذهب أثناء أحد الاستقبالات في بلاط السلطان. والإنكشارية المجهذون أصلاً من نصارى البلقان، صاروا قوة تُحسب لها حساب داخل الدولة. وقد خطر السلطان محمود الثاني تشكيلات الإنكشارية هذه عام 8281 كجزء من برنامجه التحديثي.





## الدولة الفاطمية 909 - 1171



الدولة الفاطمية والدول الإسلامية الأخرى حوالي 1000	
<span style="color: green;">■</span>	الدولة الفاطمية حوالي 1000
<span style="color: pink;">□</span>	العقلاء الفاطمية في أقصى اتساعها
<span style="color: purple;">□</span>	الدولة العباسية حوالي 900
<span style="color: black;">✕</span>	معارك كبرى



تأسست الخلافة الإسماعيلية الشيعية للفاطميين في إفريقية بالمغرب، عندما قبلت عشيرة بوكاتمة البربرية إسماع أبي عبدالله المهدي بأنه السليل الشيعي لعلي وفاطمة، وشارت على الأغالبة في العام 909. وبحلول عام 921، كان المهدي قد استقر في عاصمته الجديدة، مدينة المهديّة، الواقعة على ساحل إفريقية. وبوصفهم ورثة الأغالبة، ورث الفاطميون كذلك أسطولهم البحري وجزيرة صقلية. وفي أواخر عهد المهدي (ح 909-934)، امتدت الدولة الفاطمية من الجزائر وتونس الحاليين إلى ساحل طرابلس في ليبيا. بنى الخليفة الفاطمي الثالث المنصور (ح 946-956) عاصمة جديدة سُميت على اسمه: «المنصورية». وظلت المنصورية الواقعة بالقرب من صبرة إلى الجنوب من القيروان، عاصمةً للفاطميين من عام 948 إلى عام 973.

إلا أن الحكم الفاطمي لم يتوطد على وجه الرسوخ في شمال إفريقيا إلا إنسان سلطة العضو الرابع من السلالة الحاكمة، المعز لدين الله (ح 953-975)، الذي حول الخلافة الفاطمية من مجرد قوة إقليمية محلية إلى إمبراطورية كبرى. فقد نجح في إخضاع المغرب بأسره، فيما عدا صبرة، قبل أن ينصب اهتمامه على فتح مصر، وهذا ما تحقّق له في العام 969. فأقيمت عاصمة فاطمية جديدة خارج القسطنطينية، وقد دُعيت في البدء «المنصورية»، إنما أعيدت تسميتها بـ«القاهرة المعزية»، أي مدينة المعز الظافرة، عندما تسلّم الخليفة عاصمته الجديدة في العام 973 وأضحى توسيع رقعة السلطة الفاطمية لتشمل بلاد الشام الشغل الشاغل لولد المعز وخلفه، العزيز بالله (ح 975-996). وفي نهاية عهده، تمكّنت الدولة الفاطمية من بلوغ اتساعها الأقصى، أقلّه من الوجهة الاسمية، مع الإقرار بسيادة الفاطميين من المحيط الأطلسي وغرب المتوسط غرباً، إلى البحر الأحمر والحجاز وسورية وفلسطين شرقاً. وفي عام 1038، مذ الفاطميون نطاق سلطانهم إلى إمارة حلب شمالاً.

في عهد الخليفة المستنصر بالله المديد (ح 1036-1094)، دخلت الخلافة الفاطمية طور الانحطاط. فقد خسرت شمال بلاد الشام إلى الأبد في العام 1060. آنذاك كان الفاطميون يجابهون الخطر المتعاظم

للأتراك السلاجقة، الذين كانوا في صدد إرساء الدعائم لدولتهم الجديدة. في العام 1071، صارت دمشق عاصمة لأتابكية سورية وفلسطين الجديدة التابعة للسلاجقة. ولم ينتهِ عهد

قصعة خزفية من الفسفاط (القاهرة) تعود إلى القرن العاشر - الحادي عشر ميلادي. هذا الإناء الخزفي المطلي بطلاء لامع، مزوَّق بموتيفات فاطمية نموذجية. كالأثراب الطاهر في وسط القصعة، والنباتات



المستنصر بالله إلا ولم يبق في أيدي الفاطميين من ممتلكاتهم في سورية وفلسطين سوى عسقلان ويضع مدن ساحلية من بينها عكا وصور. وبحلول عام 1048، قام الزبيريون، الذين استخلفهم الفاطميين في حكم إفريقية، بالانفصال عنهم وأعلنوا الخطبة للعباسيين. وفي العام 1070، حين خسروا صقلية لصالح النورماندين، صارت برقة الحد الغربي للدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن انحصرت فعليا داخل حدود مصر وحدها. أما عسقلان، وهي آخر موطئ قدم فاطمي في سورية وفلسطين، فقد انتزَعها منهم الفرنجة عام 1153. وانتهى حكم الفاطميين في العام 1171، يوم أعلن صلاح الدين الأيوبي، وكان آخر وزير فاطمي يُعهد بسط سيطرته على مصر، الخطبة للخليفة العباسي فيما كان الخليفة الفاطمي الأخير، العاضد لدين الله (ح 1160-1171) يُعاني سكرات الموت في قصره.



## طُرُق التجارة ن 700 - 1500

الأمبراطورية حمل معه تدهوراً اقتصادياً في بعض المناطق، مع قيام السلالات الحاكمة المتنافسة برفع ميزانياتها عن طريق فرض المزيد من الضرائب والرسوم، إلا أن الوتيرة التي سُجِّبت بها مثل هذه الخطوات بوصفها تدابير غير مشروعة، وجائرة وغير عادلة، إنما تدلّ على المزاج العام الذي ظلّ محابياً للنشاط التجاري حتى وإن كانت الظروف السياسية غير مواتية له.

كان من نتيجة الفتح العربي في بادئ الأمر جمع طريقين للتجارة البحرية - واحد عبر الخليج والثاني عبر البحر الأحمر - ضمن سوق واحدة قائمة على شرعة ولغة وعملة مشتركة. في العصر العباسي، كان الطريق المفضّل للبضائع الآتية من شرق آسيا وجنوبها إلى المتوسط هو مجرى نهر دجلة صعوداً حتى بغداد، أو مجرى الفرات وصولاً إلى أيسر وسيلة نقل إلى حلب، ومنها إلى مرقأ سوري كإنطاكية. وكانت المدن الواقعة على امتداد هذه الطرق تعتمد في معيشتها على تبادل البضائع.

كانت مدن بلاد ما بين النهرين تمتص السلع الكالمية الآتية من الهند والصين؛ فكانت هذه تُباع في الأسواق إلى جانب السلع الضرورية، مثل الحبوب والوقود والأخشاب وزيت الطهي. كما كانت بلاد ما بين النهرين المحطة الأولى على الخط التجاري الرئيسي المتجه نحو الصين والهند، وكذلك شمالاً نحو حوض الغولغا وأراضي أوروبا الشرقية المروية جيداً، منبع الفراء والكهرمان والسلع المعدنية والمدبوغات الجلدية. في الفترة المبكرة، كانت السفن الإسلامية المنطلقة من موانئ كالبيصرة أو هرمز، تقطع الطريق بطوله إلى الصين، وتعود من هناك بعد سنتين أو ثلاث محملة بالبضائع كالحرير والخزف الصيني والبش وسواها من الأشياء النفيسة. لكن مع ازدياد التجارة تعقيداً وتكلفاً، لم يعد التجار يتعاملون مباشرة مع غوانغزو (كانتون) وهانغزو في الصين، بل صاروا يقتنون البضائع الصينية من موانئ في جاوه وسومطرة أو على ساحل مالبار.

أما التجار المسلمون من المغرب فكانوا ينشطون في تجارة الذهب، التي أخذتهم عبر قبافي الصحراء الكبرى إلى مدن الساحل، مثل تمبكتو وغاو وما بعدها إلى مناجم الذهب في غرب إفريقيا، وسلسلة المراكز

يقال إن النبي محمد كان يُسافر إلى خارج الجزيرة العربية طلباً للتجارة؛ وقبيلته قريش، التي قادت الفتوحات العربية، كانت من بين أوائل التجار في الجزيرة العربية. وقد ظلّ التجار موضع تقدير واحترام، وكثيراً ما كانوا يُصاهرون عائلات العلماء الذين يحظون بدعمهم على هيئة وقفيات تُوقف على مؤسساتهم التعليمية. إن الأعراف الإسلامية تحدت النشاط التجاري، فالمساجد غالباً ما تكون في جوار الأسواق. ولئن كان يوم الجمعة مُكرساً للصلاة الجامعة، فهو لم يتكرس عطلة رسمية إلا في أزمنة متأخرة فحسب. كانت الأسواق تُفتح قبل صلاة الظهر وبعدها. حيث إن معظم السكان الذكور متجمعون في المدينة، فقد كانت أيام الجمع ملائمة جداً لتعاطي التجارة. وكذلك الأمر بالنسبة للحج أو العمرة في مكة، حيث يأتيها المسلمون من أقاصي الدنيا ليلتقوا بعضهم بعضاً، فكانت هذه المناسبات هي الأخرى عامل تسهيل لأمر التجارة. كان الحجاج يؤمنون بنفقات رحلتهم الطويلة والشاقة (التي ربما كانت تستغرق من المراه نصف عمره في الأزمنة القديمة)، عن طريق تبادل السلع فيما بينهم، أو من خلال صنع بعض المشغولات الحرفية. كما كان التجار يلتحقون بقوافل الحجيج كي يبيعوا بضائعهم في الحجاج.

إن إخضاع الفاتحين العرب مساحات شاسعة من الأراضي الساحلية لسلطة حكومة واحدة، أتاح لهم خلق منطقت هائلة للتجارة الحرة، وسهل عليهم مد النشاط التجاري إلى ما وراء حدود الأمبراطورية بعبود. وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع نطاق هذه التجارة، فعثر على عدد وفير من النقود المعدنية للعائدة إلى العصر العباسي في البلاد الاسكتدينافية، وعلى أقمشة حريرية وأتنية خزفية صينية مطورة في مقابر في غرب آسيا. لم يكن التجار المسلمون مجبرين على دفع المكوس أو الرسوم الجمركية داخل حدود الأمبراطورية. أما التجار الأجانب الذين يدخلون ديار الإسلام، فكانوا يخضعون للنسب نفسها من الرسوم المفروضة على التجار المسلمين في ديارهم هم. ولعلّ النخب الجديدة التي عرفتها صور اللغفاء، وما كانت تتطلبه من سلع مترفة وكماليات، كانت وراء تشجيع التجارة ومضاعفة حجمها. صحيح أن تفكك أوصال



كانت الطرق البرية التي تربط غرب آسيا والبحر المتوسط بشرق آسيا وجنوبها لا تقل أهمية، بأي حال، عن الطُرُق البحرية. فوجود العديد من المدن مُحاطة باليابسة أو بعيدة عن الأنهار والمحيطات، تَمَيَّنَ لزمام نقل البضائع، بما فيها السلع ذات الأحجام الضخمة، بواسطة الدواب. لذلك، كان الأمر يتطلب تخطيطاً دقيقاً وحذراً قبل انطلاق القوافل في رحلاتها الطويلة. كما كان من الضروري تأمين العلف للدواب والغذاء للمسافرين، ناهيك عن استئجار أفراد من البدو لحراسة

التجارية التي أقامها التجَّار المسلمون على الساحل الشرقي لإفريقيا، مثل لامو وماليندي وجزيرة زنجبار، وصلت جنوباً حتى إلى صوفالا في موزامبيق الحالية. لقد اخترق رجالون مسلمون يتصفون بجسارة فائقة الداخل الإفريقي بحثاً عن الذهب والعبيد والعاج والأخشاب النادرة والأحجار الكريمة قروناً عديدة قبل أن يقفني أثرهم الأوروبيون. وحين جعل انحطاط الدولة العباسية وغزوات القبائل التركية الطُرُق التجارية عبر بلاد الشام أقل

لم يحلَّ القرن السادس عشر إلا وكانت الأموطورية العثمانية، وعاصمتها القسطنطينية (إستنبول)، قد صارت واحداً من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي. فكان السلطان، فضلاً عن بطانته ومستشاريه، أمث ما يكونون حرصاً على الوقوف على حالة التجارة سنّة بسنة.



القوافل. وفي المناطق النائية، كانت هناك شبكة من الخانات (للاستراحة والمبيت حتى صباح اليوم التالي)، والخانقانات (مهاجع للمتصوفة) توفر الطعام وحسن الوفاة. وقد شُيِّد بعضها على هيئة حصون لتصد في وجه عصابات النهب البدوية. ونظراً لطول المسافات وسط تضاريس بالغة الوعورة، زُنَّ على ذلك انهيار السلطة الإقليمية، صار بناء الطُرُق أمراً غير عملي بالمرّة. حتى في أواخر أيام الرومان، كان النقل المدولب قد اختفى أو يكاد. وبالإمكان تلمس نتيجته ذلك في كثير من مدن غرب آسيا وشمال إفريقيا. فقبل العصر الحديث، لم تكن سوى قلة قليلة منها تلك جادات عريضة بما يكفي لممر الكارّات والمركبات.

أمناً، برز إلى الوجود طريق بحري يبرّع عبر البحر الأحمر ونهر النيل. كانت صعوبات جمّة تكثف هذا الطريق، حيث إن المسافة من خليج السويس إلى نهر النيل كانت أشدّ وعورة من المسلك المارّ عبر سورية، باستثناء فترة وجيزة أحيها فيها سلاطين المماليك ترعة قديمة كان حفرها الفراعنة أصلاً. وقد جنت موانئ البحر الأحمر، مثل عدن وجدة وعيذاب والقلم (السويس حالياً)، فوائد جمّة من هذه التجارة، وكذلك فعلت القاهرة والإسكندرية. وهكذا احتكر المسلمون التجارة في المحيط الهندي إلى حين مجيء البرتغاليين ومن بعدهم الإنجليز والهولنديين اعتباراً من القرن السادس عشر فصاعداً.



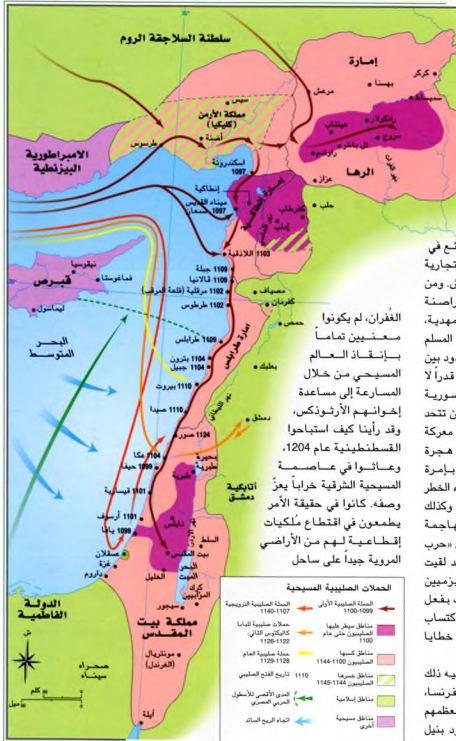


## الممالك الصليبية

جاءت الحملات الصليبية في زمن الانحلال والتراجع الإسلامي: ففي الأندلس، تسالت النجاشات المسيحية، فسقطت طليطلة عام 1085، ثم استولى النورمانديون على صقلية في العام 1091-1092 من الناحية الاقتصادية، أسفر تدهور أحوال الخلافة العباسية

وغزوات السلاجقة عن تحويل خط سير التجارة مع شرق آسيا بعيداً عن بغداد والقسطنطينية. ومن خلال مرور البضائع في الأراضي المصرية لتتلقفها من ثم السفن التجارية الإيطالية، انتعشت مدن إيطاليا أيما انتعاش. ومن جراء المضايقات التي كان يُسببها القراصنة المسلمون، أقدمت بيزا وجنوى على تدمير المهديّة، العاصمة السياسية والتجارية لشمال إفريقيا المسلم عام 1087. فيما أتاح تذبذب خط الحدود بين الأماطورية البيزنطية والدولة الفاطمية قدراً لا يُستهان به من الاستقلالية للمدن السورية والفلسطينية، وهذا ما جعل من المعتدّل عليها أن تتحد معاً لصد الغزاة. لقد فتحت هزيمة الروم في معركة ملاذكرد عام 1071 مراعي الأناضول أمام هجرة أرهاط من الأتراك الغزّية لا تأتمرّ كلّها بإمارة السلاجقة. انتاب البابا أوربان الثاني الذعر إزاء الخطر الذي يهدّد العالم المسيحي من جانب الأتراك، وكذلك من جانب النورمانديين الذين دأبوا على مهاجمة الممتلكات البيزنطية في إيطاليا، فأمر بشن «حرب مقدسة» دفاعاً عن وحدة العالم المسيحي. وقد لغيت هذه الحركة حافزاً قوياً بفضل وعظّ كاريزميين وشعبيين من أمثال بطرس التاسك، وكذلك بفعل الشعبية المتزايدة للحج إلى القدس لاكتساب الجدارة الروحية أو لغزّ بالتوبة والغفران على خطايا مرتكبة كالتفكّر مثلاً.

لكن الغفران من الغرب اللاتيني، بما فيه ذلك إنجلترا واستكندنافيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا، ترافقهم جيوش من الغوغاء والرعاغ، وهم في معظمهم من أهل المدن والفلاحين الذين أغرّتهم الوعود بتبيل





المعتاد لكن النجاحات الباهرة التي أحرزتها الحملة الصليبية الأولى، والتي نتجت بالاستيلاء على مدينة القدس من الفاطميين في العام 1099، حملت معها بذور الأضمحلال النهائي للإمبراطورية البيزنطية. فمع الحاجة إلى دعم الدول اللاتينية الطفيلية في الشرق، التي يتوقف وجودها نفسه على تفرق شمل المسلمين وتشردهم، انتفت الحاجة الأخرى إلى حماية الحدود الشرقية لبيزنطة. وعلى وجه العموم، كان الفرنجة - كما كان يُسمى الغزاة - مكروهين لبطشهم وظلمهم من المسلمين والمسيحيين المحليين على حد سواء، ناهيك باليهود الذين فقدوا الحماية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم الإسلامي، ودُبحوا في فلسطين كما دُبحوا في أوروبا. وهكذا بدلاً من صد التقدم التركي على الأراضي المسيحية، ساعدت هجمات الصليبيين على بيزنطة في تدمير الدولة الوحيدة القادرة على التحول دون ذلك، ولئن قضى على الممالك اللاتينية في نهاية المطاف، إلا أن وجودها أوقع أذى الضرر بالعلاقة الجيدة التي كانت قائمة فيما سبق بين الكنائس الشرقية وحماياتها المسلمين والمجتمعات الإسلامية المحلية، تاركة خلفها إرثاً من الارتباب بالغرب لم يتجدد إلى يومنا هذا.

الصليبيون يقتحمون دمياط في مصر في حزيران/يونيو 1249. بعد فقدانهم القدس، شنَّ الصليبيون عدَّة هجمات على مصر أملاً باستعادة المناطق التي خسروها في الأراضي المقدسة. الرسم مأخوذ من مخطوط موسى بالألوان وماء الذهب وضع في عكا بعد عام 1277 بقليل. ويُعتقد أن مدرسة المخرنفيين هذه أنشأها الملك لويس التاسع إبان مكوثه في فلسطين (1250-1254)



## الطُّرُق الصوفية 1100 - 1900

للطُّرُق الصوفية، يمثلون للإرشاد الروحي الصادر عن مشايخ تلك الطُّرُق، ويستمدون من «بركتهم» منافع جمّة. وخارج ديار الإسلام، أثبتت الطُّرُق الصوفية فائدتها العملية في نشر الإيمان في مناطق طرفية، مثل أرخبيل الملايو وآسيا الوسطى وجنوبي الصحراء الكبرى الإفريقية. كان الوصول إلى الإسلام النصّي المعياري المأثور عن العلماء والقائم على القرآن والحديث والفقه والتفسير، يتطلب معرفة باللغة العربية، وهذا ما كان يحدّ كثيراً من تأثيره وجاذبيته. في حين أن مشايخ الصوفية (ويُسمون بالفارسية «السيبر») كانوا مهرة في الارتجال الروحية، فاستطاعوا إيصال تعاليم الإسلام شفاهاً بواسطة اللغات المحليّة. كما أتاحت لهم الطقوس الصوفية السريّة المعروفة بمجالس «الذكر» (أو الحضرة) أن يطوّروا فنوناً روحية تتماشى والممارسات المستمّدة من التقاليد غير الإسلاميّة، كالرقص الطقسي أو التحكم بالتنفس على منوال اليوغا في الهند. أما في إفريقيا، فقد تمكّن الصوفيون والمرابطون (الذين كانوا في أول أمرهم زهاداً مسلمين) من نشر الإسلام من خلال تشبيههم الآلهة أو الأرواح المعبودة محلياً بالقوى الخارقة للطبيعة كالجان والملائكة الوارد ذكرها في القرآن. كما أمكن تكيف عبادة الأسلاف عبر إضافة بُنى قرابية محلية على أنساب عربية أو على سلاسل صوفية، في ما يُشبهه غري روحية تربط المشايخ والأولياء بالنبي محمد وصحبه. وقد وفّرت مثل هذه السلاسل، في مناطق طرفية كجبال الأنطلس الأعلى، إطاراً شبه دستوري حققت من خلاله الأفضاء والبطون القليلة حدّاً أدنى من التعاون فيما بينها، مع قيام زعماء الأسر المحاطة بهالة من القداسة بدور الوسطاء المحكّمين في حل النزاعات الناشئة بين القبائل المختلفة. وفي كل أرجاء العالم الإسلامي، صار الأولياء من المتصوّفة (وكان ثمة نساء من بينهم من وقت لآخر) موضع تجمّل شعبي يبلغ حد التقديس. لكن هذه البدعة ما لبثت أن صارت بعد حين هدفاً للمصلحين الذين اعتبروا الغلو في تجمّل الوسطاء

كانت الطُّرُق الصوفية ولا تزال أهم تعبير منظمّ للتعلّق بالقيم الروحية في الإسلام. إن كلمة «صوفية» (أو تصوّف) مشتقة من اللفظة العربية: صوف، أي لابس الصوف؛ ويُعتقد أنها عائدة إلى الملابس الخشنة المصنوعة من الصوف التي كان يرتديها أوائل الزهاد المسلمين، ممّن سعوا إلى إنماء ما لديهم من طاقة روحية جوّانية. وهذا ما يُعبّر عنه في بعض الأوقات بتشدان الاتحاد مع الخالق (الخلول)، ويُميزهم عن سائر المؤمنين الذين يقنعون بالتقيّد الشكلي بالشرعية والشعائر الدينية. وثمة بعض المريدين الأوائل، وكانوا يُدعون أحياناً بالمتصوّفة «السكرى»، قد صقلوا لديهم حالات ذهنية تقودهم إلى تجربة الفناء في الحضرة الربّانية، والتوق إلى الاتحاد وجدانياً مع الله، والألم المتأني عن الافتراق عنه، وهي الموضوعات التي يطرّفها الكثير من الشعر الصوفي.

هذا وتتخذ الصوفية «السكرى» أحياناً شكل عروض مسرفة في التهور ترمي إلى ابداء الازدراء بالجسد، من غرز أسباح الحديد في اللحم إلى الإمساك بحيوانات ضارية... أما الصوفية «الصاحبة»، كما تجسّدتها تعاليم أبي حامد الغزالي (ت 1111)، فتصنّف على أن السبيل إلى تحقيق الكمال الروحي إنما يقع قطعاً ضمن حدود العبادات الشرعية والطقوس الشعائرية المتعارف عليها.

وكونها حاضرة منذ بدايات الإسلام الأولى، فقد كان في مستطاع جميع الحركات الصوفية أن تدّعي أنها تعود في منشئها إلى التجربة البدئية للنبي محمد واثنتين من أقرب صحابته إليه، هما: أبو بكر وعلي. غير أن التصوف المنظم لم يستتب على أسس راسخة إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، محرراً تقدماً سريعاً في آسيا إثر الغزوات المغولية حين اختلّت الركائز المؤسّساتية للحياة الإسلامية على نحو خطير. داخلياً، عملت الطُّرُق الصوفية على تميّن النظام الاجتماعي - السياسي بأن وفّرت للأمرء المصادر الشعبية للشرعية الدينية، وأكملت حيازات السلطة الرسمية التي يُملّتها العلماء. فكان العديد من الأمرء بمثابة رعاة وحماة

لغيف من المتصوفة المولويين أو الدراويش، أثناء تأديتهم طقوسهم المدمجة التقليدية الرقص، ويدعى «الذكر» (أي ذكر الخالق) يحمل المرید على الاقتراب من الحضرة الربانية، في ما يشبه التوازن الدقيق بين المشوة الروحية والسيطرة المنهجية على الذات. تأسست الطريقة الصوفية المولوية على يد الشاعر والمتصوف الشهير جلال الدين الرومي (1207-1273).



اكتسحت العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين. فعبارة «الصوفية الجديدة» تنطبق أحياناً على حركات تجهد لإقامة توازن ما بين النشاط السياسي «البراني» والتجربة الروحية «الجوانية»، فيما يوفّر البناء الهيكلي للطريقة الألية الضرورية لنقل الأفكار ووضعها موضع التنفيذ. ولعل أشهر مثال على ذلك، حركة «نور خُلق» التي أسَّسها سعيد نورسي (1876-1960) في تركيا. كان سعيد نورسي هذا داعيةً وكاتباً ذا خلفية نقشبندية، وقد سعى إلى إحياء الفكر الإسلامي عن طريق دمج العلم والإيمان واللاهوت والتصوّف في صيغة جديدة من الطعار النقشبندية: «اليد تنكبّ على العمل، والقلب يهفو إلى الله». وعلى عكس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تأثرت هي الأخرى بالأفكار الصوفية، فإن حركة «نور خُلق» تعمل على وفاق قام مع الدولة العلمانية في تركيا.

استهدفت الأفكار الصوفية والممارسات التقليدية، في العقود الأخيرة، بالهجوم من جهتين: من جانب الحدّثيين الذين يعتبرون الصوفية اتجاهًا رجعيًا، ومن جانب الإسلاميين الوهابيين الذين يضعون أيديهم على العديد من المؤسسات الإسلامية بفضل الدعم المالي من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان الغنية بالنفط. وإذا كانت هاتان الأجندتان مختلفتين إلى حد ما، إلا أن نتائجهما واحدة في المحصلة. لقد بدأ الحدّثيون، المعتنقون أفكار التنوير الأوروبي، بالمطالبة بدين «عقلاني» لكنهم انتهوا برفض الدين جملةً وتفصيلاً. وفي ردّهم على الحدّثيين، وقع الإسلاميون أسرى الموقف ذاته: «إما كل شيء أو لا شيء».

تحتل الصوفية مكاناً وسطاً بين الحدّثة والأصولية، وهذا ما يتيح للدين أن يتكيف مع الظروف الاجتماعية المتبدّلة. ومن غير هذه القوة التوسّطية والتكيفية التي تتمتع بها الصوفية، من غير المرجّح أن يتمكّن أنصار الإسلام السياسي من النجاح في استيعاب أطبياف الإسلام المنوّعة ضمن النظام الإسلامي «المستعاد» الذي يهفون إليه.

وإضفاء هالة من القداسة عليهم انتهاكاً لتحرير الإسلام الوثنية.

وخلافاً للعلماء الذين يعكسون، في العادة، إجماع الرأي لدى المتعلمين، طوّرت الطُرق الصوفية منظمات ذات تراتبية هرمية تتمتع بالسلطة الروحية المتركَزة في يد الرئيس الذي يكنى بأسماء شتى، مثل: الشيخ، أو المرشد، أو البير، أما المريدون أو المنتسبون إلى الطريقة، فهم مقيدون بالبيعة أو يمين الولاء للرئيس أو المرشد الذي يترقب على رأس مراتب متسلسلة من الصوفاء داخل الطريقة، وفقاً لدرجة تسامي الحالة الروحية للمرء. ومع أن الأنظمة السارية المفعول تختلف وتتفاوت إلى حد بعيد فيما بينها، مع انتصاف بعض الطُرق الصوفية بدرجة أكبر من الحصرية والانضباطية من بعضها الآخر، فإن الجمع بين التعلق بالرئيس وتكريس الذات للصفوف ضمن الجماعة الصوفية تتيح لأتباع الطريقة أن يجلطوا من أنفسهم قوة مقاتلة جيّارة. ففي القوقاز مثلاً، خاض الإمام شامل ثورة ضد الروس دامت من عام 1834 إلى عام 1839، وذلك تحت جناح مُرشدته الروحي وحميه السيد جمال الدين الغازي الغموقي، شيخ مشايخ الطريقة الخالدية المتفرّعة عن النقشبندية. وفي شمال إفريقيا، تقدّم عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، الصوفوف في النضال ضد الفرنسيين، وكذلك فعلت الطريقة السنوسية في المقاومة ضد المحتلّين الإيطاليين (في ليبيا). لكن في مناطق أخرى، سارت بعض الطُرق الصوفية في ركاب قوى الاستعمار. ففي مراكش مثلاً، وما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، قبلت الطريقة التيجانية الواسعة النفوذ إعانات مالية طائلة من الفرنسيين الذين سخروا تلك الطريقة لتعزّيز مصالحهم الاستعمارية. وفي السنغال، انصرفت الطريقة المريدية التي أسَّسها أسادو بامبا (ن 1850-1927) عن المقاومة لتتبع عوضاً عنها ضرباً من أخلاق العمل قائماً على زراعة القول السوداني، مما أعاد الاستقرار إلى البلاد في ظل نظام خاضع للسيطرة الفرنسية.

وفي حالات كثيرة، أمّنت الطُرق الصوفية القيادة اللازمة للحركات الإصلاحية والنهضوية التي



**الطرق الصوفية 1389-1145**

مقام ولي مؤسس لولاية من أدم الطرق الصوفية

تقاليد صوفية مصرية ومغربية شمالية منشأ من تقاليد عراقية

تقاليد صوفية إيرانية وأسبوية من وسط القارة مستمدة من الجنبه والبساطامي

تقاليد صوفية عراقية مستمدة من الجنبه

الطريقة الرئيسية في تطور مؤسسة الصوفية ويعود أصل جميع الطرق اللاحقة إلى إحدى هذه الطرق الرئيسية. وقد سادت في مكان نشأتها الأولى، ولم أهما انتشرت بعد عام 1500 خارج هذه المناطق. ما عدا الطريقة النولوية والقادرية والكنشبية

الواقعية طرق صوفية أخرى ذات أهمية في العام 1500. مشار إلى موقعها حيث تكون هي الأبرز

الطريقة	الوليّ المؤسس	موقع التأسيس
السهرودية	شهاب الدين أبو حنبل عمر (1145-1234)	بغداد
الرفاعية	أحمد بن علي الرفاعي (1106-1182)	أم عبيدة
القادرية	عبدالقادر الجيلاني (1077-1106)	بغداد
الناقلية	أبو مدين شهب (1126-1197)	تلسمان
الدوية	أبو الحسن علي الشاذلي (1196-1258)	عظما
الكبرائية	مريد المرادي أبي مدين، وعلى اسمه سميت هذه الطريقة الصوفية	حوية
الهاوسية	أحمد بن إبراهيم بن علي الهاسي (1166-1221)	تركستان
النولوية	جلال الدين الرومي (1207-1273)	قونية
الكنشبية	محمد بهاء الدين الكنشبندي (1318-1389)	بشاري
الكنشبية	معين الدين حسن الكنشي (1142-1236)	أجمير



## الأيوبيون والمماليك

مصر بسماحه للعلماء والدارسين من مختلف المذاهب الفقهية بالعمل سوية. مع ترك التعلُّق الشَّعبي بالمطالبيين (آل علي بن أبي طالب) يأخذ مجراه في مسجد الحسين، حيث يُعتقد أن رأس السبط الشهيد قد دُفِن هناك. ومن مصر، انطلق صلاح الدين لإخضاع بلاد الشام وأعمال بلاد الرافدين، فأعاد بذلك الحياة للدولة الموحَّدة في الشرق للمرة الأولى منذ العصر العباسي الأول. وفي عام 1187، توجَّ صلاح الدين بإنجازاته بانتزاع مدينة القدس من أيدي الفرنجة.

غير أن سلالة صلاح الدين، السلالة الأيوبية، لم يُكتب لها البقاء. ففي عام 1250، قُتل آخر سلطان أيوبي على أيدي جنده من المماليك الأتراك، الذين نادوا بباقتدهم هم سلطاناً عليهم، مفتحين بذلك حقبةً جديدة من الحكم المملوكي دامت أكثر من قرنين ونصف القرن. بعدها بعشر سنوات، أنزل القائد المملوكي اللاحق، بيبرس، الهزيمة بالغرابة المغول في موقعة عين جالوت في فلسطين. وبحلول عام 1291، كان خلفاؤه قد وحَّدوا بلاد الشام، وطردوا الصليبيين، ووسعوا حدود دولتهم إلى وادي الفرات الأعلى وأرمينيا. احتفظ المماليك بأسمائهم التركية وبحقهم الحضري في ركوب الخيل واتخاذ ممالك آخرين عبيداً لهم. لكنهم كانوا على وجه العموم، لا يتزوجون إلا بمن يجلبون من نساء مسترقَّات. لأنهم إذا ما اقترنوا بنساء محليَّات أو تسمَّوا بأسماء عربية - إسلامية، فقد يفقدون اعتبارهم واحترام أبناء جلدتهم لهم. وحين بدأ إمداد العبيد من الأتراك الكيبيشاك (وكانوا يُعرفون بالمماليك البحرية) بالنضوب، حلَّ محل المماليك الكيبيشاك الشركس (الذين عُرفوا بالمماليك البرجية). هذا ولتبنَّ حاول معظم السلاطين المماليك إقامة سلالات حاكمة لهم، إلا أن مساعيهم نادراً ما كان يُكتب لها النجاح، نظراً إلى أن القاصرين منهم أو الضعفاء كانوا يُزَلون على الدوام من قبل منافسين أقوى شكيمية منهم. مهما يكن من أمر، فقد أبدى المماليك إخلاصهم للإسلام بأن رعوا العلم والطرق الصوفية، وكذلك من خلال تلك الصروح المعمارية المهيبة، من مساجد ومدارس وخانات، التي أُنشأتها على القاهرة بطرازها الهندسي المميَّز والمنمَّق الذي يحمل اسمهم.

أما وقد فرضت نفسها على ذلك الشطر المتشرذم من العالم الإسلامي، لم تفعل الممالك الصليبية سوى أنها خلقت استجابة متضامنة ضدها. وبالسوس تتبع آثار هذا الشبهوض إلى استيلاء أتابك (والي) الموصل السلجوقي، عماد الدين زنكي، على مدينة حلب في العام 1128. وإبنه نور الدين زنكي، الذي حكم دمشق في الفترة 1154-1174، وطَّد دعائم سلطته في الشام وبلاد ما بين النهرين، وبعث بقائد كردي لديه، يدعى صلاح الدين الأيوبي، إلى مصر في العام 1169 كي يقبض على زمام الأمور هناك. وبالفعل، تولَّى صلاح الدين السلطة رمزياً في مصر عندما عزل آخر خلفاء الفاطميين بعد ذلك بستين. وقد وسَّع صلاح الدين وديريته، الأيوبيون، من جاذبية المذهب السنِّي في

يظهر صلاح الدين الأيوبي، في هذا الرسم لغوستاف دوريه (1884) بوصفه النموذج الأضل للبطال السراسيني (الشرقي)، كان صلاح الدين موضع إعجاب المسلمين وكذلك أعدائه الصليبيين سواء بسواء، نظراً لما كان يتخلَّى به من حن رفيع بالشرف والإنسانية، وقد طارت شهرته في الغرب بفضل الرواج الواسع الذي حظيت به رواية ووتلرستوك: «الطلم» (1825)





## الغزو المذولجي

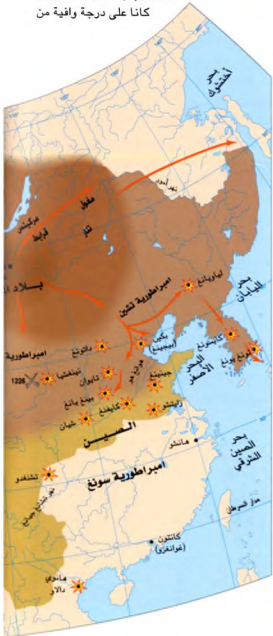
وخانات جغتاي في منطقة أموداريا (جيجون)، والسلالة الإيلخانية التي غزت إيران وقضت على سلطان السلاجقة في بلاد الأناضول.

لم يكن المغول مجرد قبائل بدوية تتصف بالعنف ولا تعرف قلوبها الشفقة، بل إن نظام الاتصالات عندهم، وأطّلاعهم على أحدث الأساليب والتقنيات الحربية، كانا على درجة عالية من

خلاقاً للبدو في الجزيرة العربية، تتصف أراضي السهوب في آسيا الداخلية بقدر كافٍ نسبياً من حاجتها إلى المياه، ويمساحات واسعة من المراعي لرعي الخيول. والبدو الخيالة ممن سكنوا تلك المناطق كانوا منظمين اجتماعياً وفق خطوط مماثلة للعرب في تشكيلات قبلية ذات طابع أبوي، وعلى شاكلة البدو العرب والأتراك أيضاً، تمكن هؤلاء من إنشاء كتلتات ضخمة بما يكفي لشنّ غارات ناجحة على المدن والمناطق الزراعية، فأسسوا إمبراطوريات لها وزنها بقيادة زعماء مرعبين، لعل أشهرهم أتيليا، الذي عاث وحجافله من قبائل الهون نهبا وخراباً في وسط أوروبا إبان القرن الخامس. أدرك أباطرة الصين ما تمثله هذه التشكيلات الضخمة من الغزاة المحمولين على صهوات الجياد من أخطار ومخاطر، واستخدموا قواتهم لكسر شوكة هؤلاء في كل مرة جدوا أنهم أقوى بما فيه الكفاية للقيام بذلك. وقد شُيد «الصور العظيم» بمثابة حاجز دفاعي لصدّهم واتقاء شرهم.

في مطلع القرن الثالث عشر، ظهر تشكيل جديد بين المغول في منطقة نائية محاذية للغابات السيبيرية بزعامة جنكيزخان (ن 1162-1227). تسلّم جنكيزخان، الذي عُرف بدهائه الشديد وقسوته اللامتناهية، قيادة جمع عريض من القبائل اعتباراً من عام 1206. وحين وافقه المنية، كان قد سيطر على معظم أراضي شمال الصين، وبلغت جيوشه سواحل بحر قزوين. تقاسم أبناءه أجزاء إمبراطوريته، لكنها استمرت في التمدد والتوسع، متغلبة على ما تبقى من شمال الصين، ومكتسحة شرق أوروبا حتى تخوم ألمانيا. لكن وعلى غرار سائر التشكيلات البدوية، لم تكن هناك قواعد واضحة للوراثة، وعليه، فقد اختلف ورثة جنكيزخان وتنازعوا على «تركته»، فأقاموا عدة دويلات مستقلة وأحياناً كثيرة متعادية، نذكر منها: منغوليا الحالية، وشمال الصين، ومملكة «القبيلة الذهبية» (المتركزة في حوض الغولغا).

جنكيزخان في إحدى المناسبات الرسمية وقد أحاط به أفراد حاشيته. لكن بصرف النظر عما بلغه بلاطه من ترف وفخامة، كما هو ظاهر من هذه الخيمة المغولية (البورت) ذات الزركشات والتزيينات السخية، فقد بقي هذا الحان الأعظم بدوياً حتى نهاية حياته.

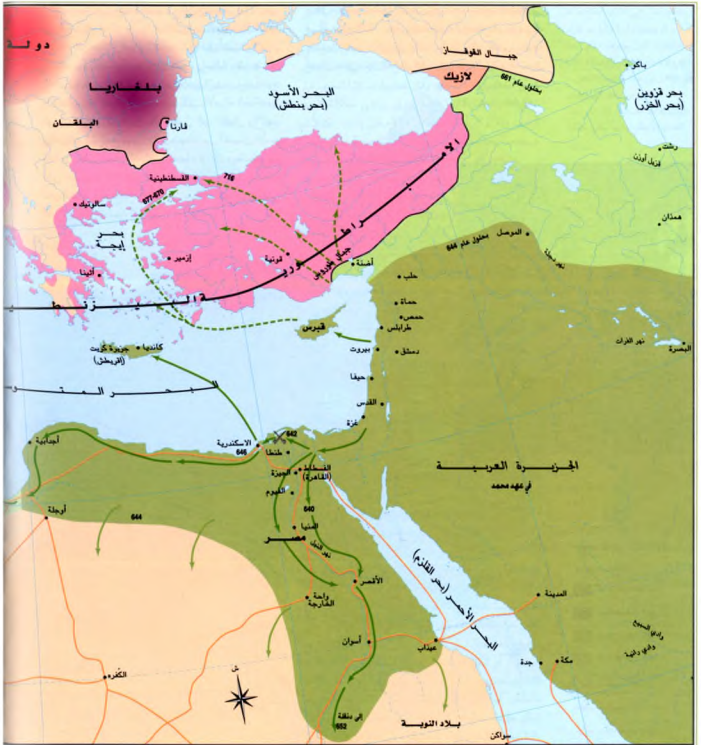


فالمؤرخ السَّني علاء الدين الجويني، مثلاً، وافق هولكو في حملته على قلعة ألموت، حيث دُمِّر آخر معقل للإسماعيليين الذين نجوا بعد سقوط الفاطميين في العام 1256. وفي أعقاب فتح بغداد بعد ذلك بستين، عيَّن الجويني والياً عليها. ولم تمض بضعة أجيال حتى دخل المغول الغربيون في الإسلام، فاتحين بذلك عصرًا جديدًا لامعاً في مسار تطوره.

التطوُّر أتاحت لهم إحداث مستويات غير مسبوقة من التخریب والتدمير. في فتوحاتهم الأولى، أُبِيدت مدن بأكملها عن بكرة أبيها، وسُوِّت ميان بالأرض، وارتفعت إهرامات مقزَّرة من الرؤوس المقطوعة النقتة. كانت الوحشية المغولية شكلاً من أشكال الحرب النفسية، الغاية منها إيصال رسالة مفادها أن المقاومة عديمة الجدوى. وكإستراتيجية، أثبت الإرهاب أنه فعَّال للغاية: فقد كان الأمراء الحاكمون في الهضاب الإيرانية يتسارعون إلى إظهار ولائهم، والموظفون المحليون والوجهاء من أعيان الأسر يقبلون على إبداء التعاون معهم، لا بل ويشجعونهم على مهاجمة أعدائهم هم من المسلمين لنيل الحظوة لدى الغزاة. وقد سما البعض من طبقة العلماء إلى أعلى المراتب من حيث الشهرة والتنفوذ.



## المضرب وإسبانيا 650 - 1485





القرنين الحادي عشر والثاني عشر، هما: المرابطون (1056-1147)، والموحّدون (1130-1269). وقرب نهاية حكم الموحّدين، تكثُر سائر الأمراء المسيحيين معاً، مدسّنين بذلك حقبة «حروب الاسترداد»، وباستثناء حكم بني نصر في غرناطة، الذي مكث حتى عام 1492، كان معظم شبه الجزيرة الإيبيرية قد خرج من قبضة المسلمين.

غداة سقوط غرناطة في العام 1492، سلك معظم المسلمين واليهود طريقهم إلى شمال إفريقيا هرباً من محاكم التفتيش. بعضهم رضع واعتنق المسيحية، فيما سُمح لقلّة قليلة منهم بالبقاء على دينهم، ولكن في ظروف تميّزت بالشدّ في تقييد حركتهم. غير أن عملية «التنصير» وطرد المسلمين كانت قد اكتملت أو تكاد بحلول نهاية القرن السادس عشر، ولم يبق من وجود الإسلام في المنطقة سوى ما خلفه وراهه من آثار ثقافية ليس إلا.

ارتبطت الحضارة الناشئة في الأندلس المسلم بالتحولات الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، غير أنها تميّزت عنها من عدة وجوه. فالفن والعمارة المقتزمان بحدن قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، باقياّن معالم حية ومنازل مشرقة على من الزمن. كما أن التراث الأدبي الذي ازدهر أيّما ازدهار في الفترة الأخيرة من الحكم الإسلامي، أصاب امتيازاً هو الآخر بإسهامه العظيم في الأدب الرومانسي. لكن ربما كان

التراث الأبقى على من الدهور هو ذلك المنجّس في كتابات المسلمين واليهود الفلسفية والعقائدية والقانونية، والتي سيكون لها أعظم الأثر في بروز النزعة السكولائية (المدرسية) اللاتينية لاحقاً في أوروبا. ومن أبرز المرجعيات في هذا الصدد، ابن رشد، المتوفى عام 1198؛ وابن عربي، المتوفى عام 1240،

الأندلس هو الاسم العربي لقسم من الأراضي الواقعة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الذي دال لحكم المسلمين ونفوذهم طوال ما يقرب من 800 سنة. أول احتكاك للمسلمين بالمنطقة حدث في عام 711. يومذاك عبر جيش مسلم مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا. وبحلول عام 716، كان عدد من المدن والممالك قد منّي بالهزيمة. غير أن طبيعة السيطرة الإسلامية ونطاق اتساعها في المنطقة، ارتبط ارتباطاً دراماتيكياً بسقوط الدولة الأموية وعاصمتها دمشق في العام

إسبانيا الإسلامية حوالي 1030	
دول مسيحية	●
خلافة قرطبة حتى 1031	■
غرناطة	■
سلطنة إسلامية بعد 1031	■
أراضي	●
جارية بربورية مهمة	●
السكان	
مسيحيون	■
عالية البربرية وبنو أمونون	■
عالية سلمية	■



750. فقد فرّ أحد أفراد البيت الأموي إلى إسبانيا، حيث صار والياً قبل أن يؤسّس سلالة أموية جديدة أعلنت إيبيريا وشمال إفريقيا في نهاية المطاف خلافةً مستقلة.

وثمة حركتان مدفوعتان بنظرة أكثر سلفية إلى الحكم الإسلامي، تولتا السيطرة تبعاً على المنطقة في





## إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى شرقاً

شجرة النسب القرشية، وتلك نزعة سوف تتبدى جلياً للعبان بين سواهم من الرّعاء الدينين والقبليين. وفي حين احتفظت العربية، وفي بعض الحالات الفارسية، التي جاء بها البحارة، بمكانتها الاعتبارية وامتيازاتها بوصفها لغة «الإسلام الحق»، طوّرت اللغات العامية أداًباً فظية ثرية لن تلبث أن تكتسب آخر الأمر شكلاً مكتوباً. يعود تاريخ أول نصّ كتب باللغة السواحلية إلى عام 1652. والثقافة السواحلية المهمة على الشريط الساحلي الممتد مسافة ألف ميل، من مقديشو إلى كلوة، هي ثمرة قرون عدّة من التفاعل بين الأفكار التي حملها معهم التجّار والمستوطنون العرب والفرس، والشعوب الأصلية في الساحل الشرقي لإفريقيا التي تزأجوا معها.

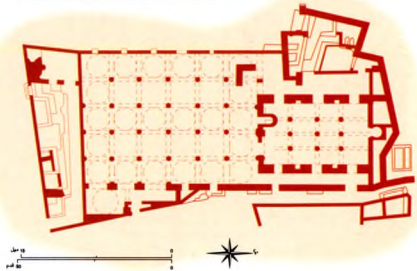
بعدما دار فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح في العام 1498، دمر البرتغاليون وبشكل منتظم المدن السواحلية المزدهرة التي كانت قد نبئت على امتداد الساحل. في عام 1505، تم الاستيلاء على كلوة واستُبيحت مومباسا لأعمال السلب والنهب. وبحلول عام 1530، كان البرتغاليون قد بسطوا سيطرتهم على الساحل برمّته، انطلاقاً من حصونهم المنبئة في بما وزنجبار وغيرها من الجزر. غير أنه في الخمسينيات من القرن السابع عشر،

استطاع العُثمانيون، وهم من المسلمين الإباضيين، أن يطردوهم من مسقط، ويُعيدوا الشطر الشرقي من المحيط الهندي إلى حظيرة الحكم الإسلامي، وأقام العُثمانيون شبكة لتجارة الأقمشة والعاج والعبيد بين شرق إفريقيا والهند. وفي القرن التاسع عشر، اتحدت مسقط وزنجبار لفترة وجيزة تحت سلطان حاكم واحد، هو السيد سعيد بن سلطان (1804-1856). مما فتح الباب أمام توطّن موجات جديدة من المهاجرين المسلمين القادمين من جنوب الجزيرة العربية. وتحوّلت زنجبار في مجملها إلى مركز لإنتاج كيش

منذ زمن الفراغة القدماء ومناطق أعالي النيل في شرق إفريقيا تنتمي إلى الفضاء الثقافي نفسه الذي تنتمي إليه مصر. فإثيوبيا اعتنقت المسيحية على يد الإرساليات القبطية اعتباراً من القرن الرابع؛ ويحسب أقدم المصادر الإسلامية، فقد وفر النجاشي المسيحي الملاذ الأمان لمجموعة من المسلمين المضطّهدين قدمت من مكّة حتى ما قبل الهجرة المحمدية. وصل الفاتحون العرب لمصر إلى حدود أسوان عام 641، واستمروا لعدّة قرون بعدها يزحفون جنوباً، مانحين منطقة أعالي

كلوة. الموقع الجنوبي المتقدم لدار الإسلام حتى الأزمنة الحديثة كان يبلغ تعداد سكانها زهاء عشرة آلاف نسمة عام 1505 حين احتلها البرتغاليون في هجوم كاسح أوائل المسلمين الذين استوطنوها (حوالي 800 م). كانوا من البحارة والتجّار القادمين إليها من سواحل الخليج.

ملعب أرضي للجامع الكبير في كلوة



النيل طابعها العربي الغالب. وقد أسّس سلطنة الفُنج، التي حافظت على احتكارها لتجارة الذهب إلى مطلع القرن الثامن عشر تقريباً، قومٌ من الرّعاة سلخوا طريقهم جنوباً في موازاة مجرى النيل الأزرق. وعملت تلك السلطنة على توطيد النفوذ العربي باستقدامها فقهاء وأولياء من مصر والمغرب والجزيرة العربية.

وما عزّز الطابع العربي للإسلام في شرق إفريقيا، قُرب المناطق الساحلية من الحجاز واليمن. فننذ زمن مبكر، اكتسب مريو العواشي الصوماليون أشرف الأنساب الإسلامية جميعاً وذلك بإرجاع أصلهم إلى

القرنفل وغيره من التوابل، باستخدام أساليب للزراعة الرقبة شبيهة بتلك التي طبقت في الولايات المتحدة الأميركية. واثراً تقسيم السلطنة بين أبناء السلطان سعيد، تعرّضت زنجبار لضغوط متزايدة من جانب الإنجليز لحظر تجارة العبيد، وقد استخدم هؤلاء أسطولهم الحربي لغرض قوانين مكافحة تجارة العبيد وخدمة مصالحهم التجارية الخاصة. وبعدها صارت محمية بريطانية. استقبلت زنجبار موجة جديدة من المهاجرين القادمين هذه المرة من الهند البريطانية. وكان الكثير من هؤلاء المهاجرين مسلمين، إنمّا من يُخلّ تصنّف في خانة الأقليات، مثل: المؤمنة، والخوجية، والإسماعيلية.



مدخل أحد البهوت الخاصة في البلدة الحجرية من زنجبار. أبواب البهوت المزخرفة محفورة من الأخشاب المتوافرة محلياً، أو من الأخشاب المستوردة من البر الإفريقي، وكانت ترمز إلى المكانة الاجتماعية لصاحب المنزل. أما الجدران، فمبنية من الكسر المرجاني، لذلك كانت بحاجة إلى صيانة دائمة للحيلولة دون انهيارها بفعل الأمطار الموسمية الغزيرة.



## إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى - غرباً

القسية للإفريقيين جنوبي الصحراء الكبرى، غير أنها كانت نادرة جداً. فقد كانت الأسر المالكة، كما هي العادة، من بين أوائل الداخلين في الدين الجديد، وهي التي طالما ألهمتها الهيبة الدينية لاعتزاز الضرائب أو فرض التجنيد على العشائر وأبناء الجاليات الخاضعة لها. وحيث أن التجار المسلمين كانوا قد استقروا في مدن الساحل [بلاد الزنج]، وصار لمعظمهم أحياناً هم الإسلام الخاصة بهم بحلول القرن العاشر، فقد سعت تلك الأسر المالكة إلى الاستفادة من السمعة الثقافية العالية التي حملوها معهم بأن اتخذت الإسلام ديناً للبلاد.

في أغلب الأحوال، استمرت الممالك المحليّة بالتشكّل وإعادة التشكّل في ظل مختلف السلالات القبليّة الحاكمة، مع امتزاج الشعائر والعبادات الإسلاميّة بالعبادات والأعراف القبليّة. ومع نشوء كل دولة جديدة، كانت عاصمتها تتحوّل إلى مركز للثروة والتعليم الإسلامي، بحكم سعي حكّامها إلى الفوز بالهيبة والاعتبار من خلال بسط رعايتهم على المتعاطين بالعلوم الدينية. ولعلّ المركز الثقافي الأدهى إلى الإعجاب حقاً، كان مدينة تمبكتو الطوارقية الواقعة على نهر النيجر، والطوارق شريحة نخبوية تركب الإبل، وقد ازدادت ثراءً من التجارة العابرة للصحراء الكبرى. كما استخدمت العبيد الأرقاء لاستئصال مناجم الملح، والأقنسان المتوطنين من القبائل الإفريقية لزراعة الواحات الواقعة على امتداد الطرق التي يسلكونها.

وأشهر حاكم مسلم من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، هو مانسا موسى، ملك مالي (1307-1332)، الذي حجّ إلى مكّة في العام 1324-1325، محاطاً بأفخم وأعظم أئمة في زمانه، فترك وراءه انطباعاً قيض له أن يدوم طويلاً. وخلافاً للسودان النيليّ حيث ضربت اللغة العربية جذوراً مؤثّلة فيه، انتشر الإسلام هنا باللغات العامية المحليّة منذ المراحل المبكرة نسبياً. فاعتباراً من العام 1700 تقريباً، أو حتى في زمن أبكر من هذا بعد، طوّر الدارسون والمعلّمون صيغة معدّلة من الأجيديّة العربيّة لإيصال التعاليم الإسلاميّة بالفّلّدة والهوسا، أوسع اللغات انتشاراً في منطقة غرب الساحل.

كان انتشار الإسلام في غرب إفريقيا سلبياً إلى حد بعيد، فاليده باستخدام الجمال لأغراض النقل عبر الصحراء الكبرى في زمن يرجع إلى ما قبل عام 600 ميلادية، كان قد أرسى شبكة متنامية من مسالك القوافل بين المغرب والساحل، ذلك الحزام الشاسع من السياسات المعشبية الواقعة ما بين الصحراء الكبرى والغابات الاستوائية الغنيّة. سلعة التصدير الرئيسيّة من الجنوب، كانت الذهب من بامبوكو على ضفة نهر السنغال، التي ظلت لقرون عديدة المصدر الأوّل للذهب

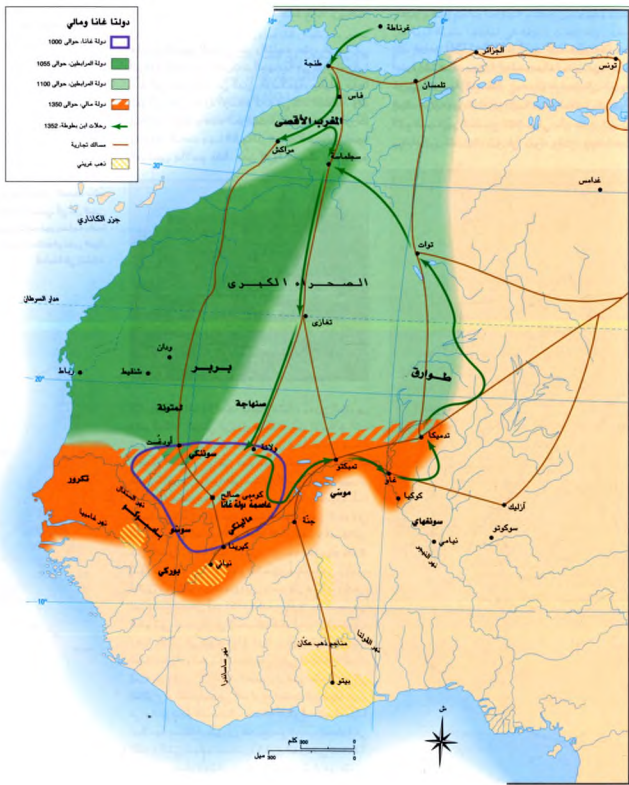
المصدّر إلى المغرب وغرب آسيا وأوروبا. وإلى جانب الذهب، كانت تجري مقايضة العبيد وجلود الحيوانات والعاج بالنحاس والفضة والمشغولات الحرفيّة والفاكهة الجفّة والأقمشة. لكن ما هو أخطر شأناً من التجارة، كان بث الأفكار. فقد تغلغل الإسلام جنوباً بواسطة التجار والمعلمين الذين أساهم الفرنسيون «مربوط»، نسبة إلى

تصليح من خريطة كاتالونية يصور ملكاً مترعباً على العرش وحوله كل الرموز والشعارات الدالة على ملكيته، ربما يكون الرسم للملك مانسا موسى من مالي، الذي بهرت ثروته معاصريه حين سافر إلى مكّة عام 1324-1325 لتأدية فريضة الحجّ.



المرابطين العرب، وكان الأخيرين في الغالب من الأسر المشهورة بالقوى والورع وتكتنّفها هالة من القداسة، فكانوا يقومون بدور الوسيط والحكم المتوارث بين أبناء القبائل في الأرياف.

في القرن الحادي عشر، أقام المرابطون من قبيلة لمتونة البربرية مركزاً لهم في موريتانيا من أجل نشر الإسلام، ومن هناك خاضوا الجهاد ضد ملوك غانا. حكّام أكبر وأغنى دول غرب إفريقيا على الإطلاق، والحامسة للإصلاحية المانورة عن المرابطين، حملتهم شمالاً إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث أعادوا توحيد إمارات الأندلس الصغيرة لتفادي خطر الفتح المسيحي المضاد. صحيح أنه جرت بعض عمليات «الأسلمة»



## الدول الجهادية

دان فوديو (1754-1817)، الذي كان عالم دين من أسرة اشتهرت بوفرة العلماء والدارسين في مملكة غويير الهوسية المستقلة. فبعد أن هاجم دان فوديو الملك لمزجه بين الشعائر الإسلامية والطقوس الوثنية، اتبع السيناريو المحمدي الكلاسيكي بأن هاجر إلى ما وراء حدود المملكة، قبل أن يعود ويشن جهاداً ضد

ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، خرجت إلى الوجود سلسلة من الحركات الجهادية في غرب إفريقيا أدت إلى قيام عدد من الدول الإسلامية، وطرأت معها تحولات على وجود الإسلام ذاته في تلك المنطقة. وقد انطوت معظم هذه الحركات الجهادية على ثورات وتمردات قامت بها القبائل البدوية ضد حكامها المسلمين بالاسم فقط، ممن أثروا التمسك بالمفاهيم

مسجد في جثة بمالي، المسجد مُشيد على الطراز البلدي، أي من الطين المحمون، ولذلك، فهو بحاجة دائماً إلى الترميم باستخدام نفس المواد الداخلة في إنشائه.



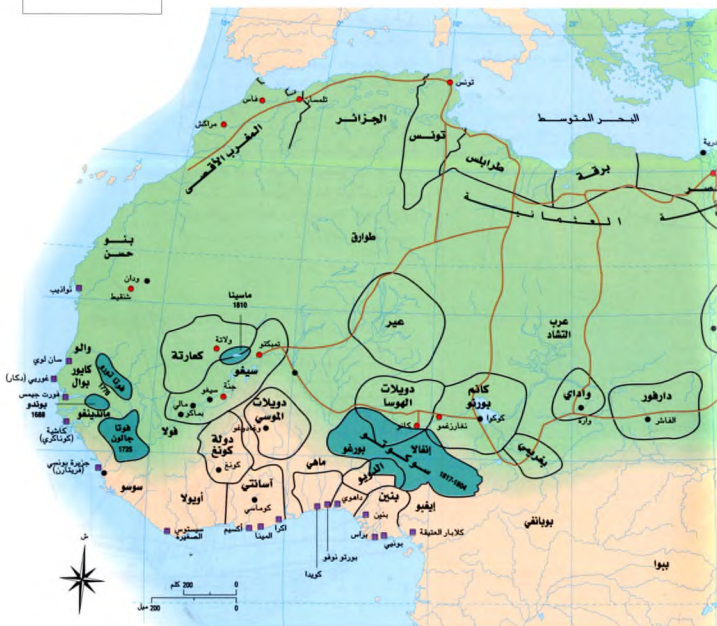
الإفريقية التقليدية لجهة تأليه الملوك، ومزج الطقوس ذات المنشأ الوثني بمرموز مستقاة من الإسلام. أدت قيادة هذه الحركات، على جري العادة، من طبقة العلماء المتفقة، أي من الدارسين والمعلمين والطلاب، الذين كانوا قد درسوا على مشايخ الصوفية المحليين أو اعتنقوا أفكارهم الإصلاحية في مكة والمدينة. أما أشباعهم فكانوا من رعاة الماشية من الغولاني المرتحلين جنوباً بحثاً عن الكلأ لقطعانهم، والمستائنين من الضرائب الباهظة التي يفرضها عليهم ملوك الهوسا، وقد التحق بهم فلاحون ساخطون وعبيد آبقون وسواهم من المذبذبين، واحد من هؤلاء، ويدعى إبراهيم موسى (ت 1751)، كان رجلاً متعلماً من الغولاني، انخرط في النضال ضد الحكام المحليين، وهذا ما آل إلى قيام دولة فوتا جالون في مرتفعات سنغامبيا. والحركة الجهادية، التي استغلها أبناء إبراهيم موسى للانقطاع العبيد بغرض تصديرهم إلى الخارج أو تخيلهم في المزارع، امتدت إلى فوتا تورو في وادي نهر السنغال. هناك أقام العلماء دولة إسلامية مستقلة، قبل أن تندمج مع النخب المحلية في الفترة التي سبقت مباشرة الغزو الفرنسي للمنطقة. وأشهر الزعماء الجهاديين في غرب إفريقيا، هو عثمان





التالين، اتسع نطاقها لتشمل الشطر الأكبر من شمال نيجيريا وشمال الكاميرون. في عام 1817، اعتزل دان فوديو العمل في الشأن العام كي يتفرغ للقراءة والكتابة والتأمل، تاركاً أمر تسيير دولته لابنه محمد بلو، الذي صار سلطاناً على سوكونو، أقوى الإمارات الإسلامية على الإطلاق في ما أصبحت أخيراً مستعمرة نيجيريا البريطانية.

الملك وغيره من حكام الهوسا باسم إسلام طاهر مطهر. وقد حملت دعوته في ثناياها شحنة قوية من العدالة الاجتماعية على النسق الكلاسيكي المأثور عن النبي محمد، كما جمعت ما بين الهجوم العقائدي على الوثنية والتفديد الاجتماعي بالضرائب غير المشروعة ومصادرة الممتلكات وفرض التجنيد الإجباري واسترقاق المسلمين. وبحلول عام 1808، كانت الحركة قد أطاحت بمعظم ملوك الهوسا. وفي غضون العقدين



## المحيط الهندي إلى العام 1499

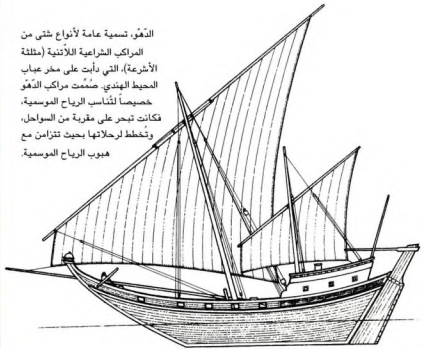
ساحل شرق إفريقيا مروراً بمونوثياس القريبة من جزيرة ممبا إلى أن يبلغ منتهاها في رابطا (التي لم يكتشف موقعها بعد، وإن كان يُظن أنها باغامويو على ساحل تنزانيا الحالية). أما الطريق الثاني، فكان ينحرف نحو السواحل الشمالية الغربية للهند ليصل

قبل مجيء الإسلام، كان المحيط الهندي جزءاً من شبكة متداخلة ومتراكبة من طرق التجارة المحلية والإقليمية والدولية تمتد من الصين وجنوب شرقي آسيا إلى شرق إفريقيا والبحر المتوسط.

كان ثمة دليل للتجار والبحارة وُضع باللغة اليونانية في القرن الأول الميلادي بعنوان: «مسالك الإبحار في بحر إريتريا»، يصف اثنين من طرق التجارة البحرية ينطلقان من موانئ على البحر الأحمر [بحر القلزم]، مثل: ميوس، وهورموس، ولوك كوميه، وبرنيكه. على هذين الخطين التجاريين العائدين إلى العالم الإغريقي - الروماني القديم، كانت تُنقل سلخٌ و مواد من قبيل الأقمشة والتوابل والعميد إلى شركاء لهم في المناطق الساحلية في غرب المحيط الهندي. أحد هذين الطريقين كان يتجه نزولاً عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، ماراً بموزا (المخا) وديوسكوريدس (سقطرى)، نحو شمال شرقي إفريقيا (أوليس وأويونه في بلاد أقشوم بالحيشة)، ثم يحاذي



الدّفوف، تسمية عامة لأنواع شتى من المراكب الشراعية اللاتينية (مظلة الأشعة)، التي دأبت على محر عباب المحيط الهندي. صُنعت المراكب الدّفوف خصيصاً لتناسب الرياح الموسمية، فكانت تنحر على مقربة من السواحل، وتُخطط لرحلاتها بحيث تتزامن مع هبوب الرياح الموسمية.





بقوة المحركات، كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية هذه تسمح لمراكب «الدهو» ذات الأشرعة الضخمة المثلثة الشكل (الأشرعة الأتنية)، العربية والفارسية والهندية، بالإبحار من عدن إلى كوتشين مثلاً وقد نشرت أشرعتها على نحو يضع المركب أدنى ما يُمكن في اتجاه الرياح، فكانت تتاجر وتتسوق على

إلى بارياغارا (برواش) ثم يتجه جنوباً نحو موزيس كراغانور وكومار (رأس قمرين). كانت تحكم حركة تنقل البشر والبضائع دورة الرياح الموسمية المؤكدة في المحيط الهندي. تدم الرياح الشمالية الشرقية المعتدلة، أو الرياح الموسمية الشتوية، قرابة نصف السنة (من شهر تشرين الأول/نوفمبر إلى آذار/مارس)، قبل عصر الملاحة



في القرن السابع، كانت العوالم التجارية التي جاء الدليل اليوناني، «مسالك الإبحار...» على وصفها قد اندثرت منذ أمد بعيد، ووقعت المرافئ وطُرُق التجارة في غرب المحيط الهندي في حماة التنافس المحتدم بين الأمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (الفارسية).

امتداد ساحل مالجار الهندي في عكس اتجاه الرياح، قبل أن تعود أدراجها وقد انتفخت أشرعتها عن آخرها. أما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تحمل معها الأمطار إلى غرب الهند، وتولد طقساً عاصفاً، فكان من المستحسن تجنّبها قدر الإمكان.

أمير سلجوقي متربع على عرشه بحكم وجود السلاجقة عند نهاية الطرف الغربي من «طريق الحرير»، فقد أتبع لسلطانهم أن يذوقوا طعم الترف ويتعموا بالكماليات من قديبل أجود أنواع الحرير الصيني والمجوهرات من أسيا الوسطى. مخطوط من القرن الثالث عشر.



وقد استُكملت السيطرة السياسية والاقتصادية للسلالات الإسلامية الحاكمة في الشرق الأوسط على الطُرُق التجارية في المحيط الهندي بتمامي الجاليات المسلمة وتكاثر المحطات التجارية وحتى قيام الدويلات المستقلة هنا وهناك على امتداد المناطق الساحلية. وثمة العديد منها تملك تواريخ معقدة ومتشعبة ما زالت بحاجة إلى درس وتحصيص. فساحل إفريقيا الشرقي بشعوبه الناطقة بالسواحلية، كانت له أواصر متعددة ومتنوعة بالجزيرة العربية والخليج والهند. فالمساجد والمقابر الإسلامية في شانغا تعود زمنياً إلى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وهناك شواهد على وجود أسر حاكمة إسلامية محلية وإسماؤها جيداً بالمستوطنات المسلمة على جُزر بمبا وزنجبار ومافيا وكلوة في الفترة 1000-1650. والعديد من هذه المجتمعات كانت مزدهرة حين زار المنطقة الرحالة ابن بطوطة في العام 1331 من طريق مقديشو.

كذلك يُعدُّ ابن بطوطة مصدراً ثراً للمعلومات بشأن وجود المسلمين على امتداد ساحل الصين الجنوبي، وصولاً إلى قوانزو (زيتون) التي وصلها عام 1347. في قوانزو توجد جبانة ومسجد (يعود تاريخه إلى العام 1009 تقريباً)، يدلان على وجود جالية مسلمة في ذلك المرفأ التجاري. كما يُستدل على تواريخ الجاليات المسلمة في جنوب شرقي آسيا من بيانات التجارة عبر المحيطات. في القرن الخامس عشر، كان المركز التجاري في ملقا على ساحل الملايو قد برز كأهم محطة بحرية في شبكة التجارة الإسلامية الضخمة في المحيط الهندي. حتى إنه برز المراكز التجارية الأخرى في جاوه وسومطرة. كان عدد المسلمين في ملقا كبيراً جداً، وكانت لهم علاقات وارتباطات قوية بالتجار والمراغاة في غرب الهند مثل كامباي (قوجارات). ومن سخرية الأقدار أن ابن ماجه، البحار الذي كان له الفضل الأكبر في إرشاد فاسكو داغاما عبر المحيط الهندي عام 1498، قدَّم لنا وصفاً غير مستحب لملقا هذه. سقط المرفأ في أيدي البرتغاليين عام 1511، وبذلك أُرست أول قوة بحرية أوروبية دعائم وجودها المستتب في المحيط الهندي.

فقد ساند البهزنتيون الغارات الحبشية على جنوب الجزيرة العربية انطلاقاً من موانئ على البحر الأحمر، فيما ضمن الفرس سيطرتهم على الخليج (البحرين) والساحل الجنوبي للجزيرة العربية (من عدن إلى صُحار إلى دابا)، وما بين هاتين الأمبراطوريتين، كانت هناك قُربى، التي ستكون من أوائل المتعاطين بالتجارة البرية من المسلمين في ملائها بمكة.

ابتعد المسار المبكر للفُتوحات الإسلامية والتوسُّع الإسلامي عن المحيط الهندي واتجه أكثر نحو البحر المتوسط (بحر الروم). غير أن السلالات الحاكمة الإسلامية المتعاقبة بذلت جهودها للفوز بالهيمنة السياسية والاقتصادية على المحيط الهندي. وكان استيلاء الأمويين على ديوبل في بلاد السند عام 712، الخطوة الأولى في هذا السبيل. وفيما بعد، عندما أنشأ العباسيون عاصمتهم ببغداد عام 762 على نهر دجلة وصار لها بواسطة مجراه منفذ إلى الخليج عبر البصرة، اكتسبت التجارة البحرية الإسلامية زخماً مضاعفاً. وكذلك عمليات الاستيطان من سواحل شرق إفريقيا إلى جنوب الصين. ومشاهدات البحارة التي جُمعت في كتاب «أخبار السند والهند» (حوالي 850)، تعطينا لمحة عمّا كانت رحلة تجارية بحرية نموذجية نهاباً وإياباً من سيراف (جنوبي شيراز) إلى كانتون في الصين أيام العباسيين. ولنا شاهد حيٌّ على مجريات النشاط البحري آنذاك في الجنوب الغربي للمحيط الهندي، المعتمد من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا، في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي (ت 928).

في عام 969، استولى الفاطميون على مصر وأسسوا مدينة القاهرة، فشكّلوا بذلك تحدياً سياسياً وتجارياً خطيراً للعباسيين. نجح الفاطميون في تحويل وجهة التجارة في غرب المحيط الهندي من بغداد والخليج إلى الفسطاط والبحر الأحمر. وقد صان من خلف الفاطميين، الأيوبيون أولاً ثم المماليك، الأهمية التجارية لمصر وحافظوا على الطريق التجاري الممتد من البحر الأحمر إلى غرب المحيط الهندي، هذا وتسوق لنا مجموعة «الجنيزة» القاهرة أدلةً بيّنة تظهر مدى تعدُّد شبكة التجار المتخدين من الفسطاط قاعدة لهم، التي تصل شمال إفريقيا بالهند عبر المحيط الهندي، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر.

## المحيط الهندي 1500 - 1900

الحصن القائم عند مدخل المرفأ في مدينة مسقط، بناء في الأصل البرتغاليون خلال القرن السادس عشر في نفس الموقع لحصن أقدم عهداً، استطاعت حامية الحصن البرتغالية أن تصمد في وجه هجمات العثمانيين، لكنها اضطرت إلى الاستسلام للإمام الشاهي سلطان بن سيف عام 1650.



كانت رحلة فاسكو داغاما حول رأس الرجاء الصالح عام 1498 حدثاً فاتحاً لعصر جديد: حدثاً مدوياً وضع نهاية لاحتكار المسلمين التجارة في المحيط الهندي، وفتح الباب على مصراعيه لدخول الأمبراطوريتين البريطانية والهولندية إلى جنوب آسيا وجُزُر الهند الشرقية. وقد استُهلكت حقبة الاستعمار الأوروبي بإنشاء التجار المغامرين محطات تجارية لهم في

البحار الجنوبية، ومنها انطلقوا إلى مزيد من التوسع. كان البرتغاليون في الطليعة، فاستولوا على كلوة واستباحوا مومباسا عام 1505، قبل أن يقيموا قواعد لهم في زنجبار وبمبا. في العام 1509، هزم البرتغاليون أسطولاً مصريةً - هنديةً مشتركاً لاحتلال غوا على ساحل مالبار الهندي. وفي عام 1515، استولوا على ملقا، وفي العام نفسه انتزعوا هرمز المطلّة على الخليج. غير أن هيمنة البرتغالية ما لبثت أن انحسرت لصالح هيمنة الهولنديين، الذي سبق وأن حاول البرتغاليون استبعادهم من تجارة الفلفل والتوابل المريحة. تغلب الهولنديون على البرتغاليين في أمبونا عام 1605، وهكذا انتزعوا منهم باندا عام 1621، وسيلان (سرانديب، أو سري لانكا حالياً) عام 1640، وملقا عام





1641. وقبل ذلك في العام 1619، تأسست باتافيا (جاكارتا الحالية)، لتُصبح منذ ذلك الحين فصاعداً عاصمة جزر الهند الشرقية.

ولكن اتسم التدخل البرتغالي بالتدرج البطيء، إلا أنه تمخّص عن تحولات وتغيرات في أنماط التجارة السائدة، وكذلك في الاقتصاد السياسي للدول الإسلامية في المنطقة. ففي نهاية القرن السابع عشر، كانت إنجلترا وهولندا، البلدان الصغيران القابعا عند الطرف الغربي للقارة الأوراسية، قد صارتا (سوية مع فرنسا) القوى المهيمنة على مقدرات التجارة العالمية. فاخذت التجارة التقليدية بالسلع الكمالية لتحل محلها حمولات السفن من المواد الخام كالأخشاب والحبوب والأسماك والملح. وهذا التحول في طبيعة الحمولات أذن حتى يحدث انقلاب أبعد أقرأ انقسم العالم بوجهه إلى مستعمرات تنتج المواد الأولية ومراكز صناعية وتجارية تنتج سلعاً وخدمات ذات قيمة عالية. وإذا ما نظرنا إليها من منظور القرن





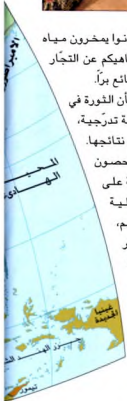
عندما أخذ البريطانيون يرسّون أقدامهم في الهند، شرعوا باستحضار طرزهم المعمارية العاصم، كما ترمينا هذه اللوحة بالألوان المائية لإحدى الدور المشيدة في شابرا عام 1796.

الحادي والعشرين، نستطيع القول إن رحلة فاسكو دا غاما تمثل عملية بلغت ذروتها في «العولمة».

ثمة عاملان تقنيان دفعا بقوة كل تلك التحولات، وهما: أشرعة أفضل وملح البارود. إن وجود البرتغاليين على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي قد حدا بهم إلى تطوير مراكب بحرية متينة بما يكفي للصدور في وجه الأنواء الأطلسية العاتية، والإبحار على مسافة أدنى من مهبط الرياح من مراكب الدَّهْو العربية ذات الأشرعة اللاتنية. كانت السفن البرتغالية أضخم بديناً وأكثر ثباتاً من مثيلاتها العربية أو الفارسية، وهكذا تسّنى لها أن تنقل حمولات أكبر وتُبحر لمسافات أطول بعد. وقد جنّب المرور بالطريق الجديد الذي يدور حول جنوب إفريقيا قاصداً جُزر الهند، المرور بالمسالك التجارية المعهودة في غرب آسيا. فكانت البضائع تُنقل من جنوب آسيا وجُزر الهند، بما فيها التوابل والأقمشة والسلع النفيسة، إلى لشبونة رأساً. وهذا ما عاد بالثراء على التجّار البرتغاليين، نظراً لتقليصه عدد المستفيدين المباشرين من التبادل التجاري بين أوروبا وآسيا؛ ومن هؤلاء

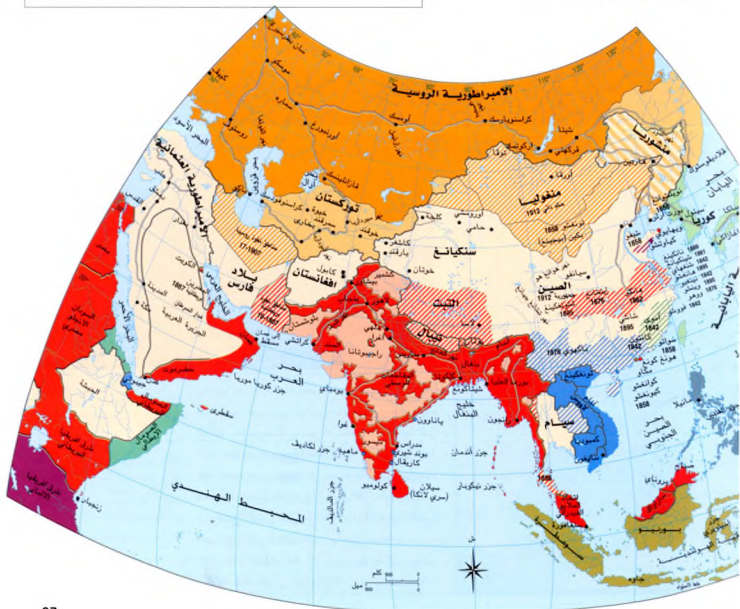
تجّار الهندية وجنوى من كانوا يمخرون مياه المتوسط الشرقية جيئةً وذهاباً، ناهيك عن التجّار المسلمين الذين كانوا ينقلون البضائع برّاً.

أما ثورة البارود فكانت، شأن الثورة في تقنيات الملاحة الشراعية، عملية تدريجية، وكانت مثلها بعيدة الأثر من حيث نتائجها. فمع تطوير المدافع، لم تعد الحصون الحجرية منيعة كفاية أو عصية على السقوط. وهذا ما أعطى الأفضلية العسكرية للقوى الحسنة التنظيم، القادرة على تحمل أعباء الاستثمار المكلف في مضمار المدفعية والأسلحة النارية. ومع استمرار التقدّم في مجال التكنولوجيا العسكرية، طرأ تحوّل على ميزان القوى بين الطبقات المحاربة التقليدية، التي تردّي البراعة الحربية عندها رداء التلاحم القبلي والشرف والسمة





والبسالة (الأ وهي المناقب الكلاسيكية القديمة المأثورة عن الغزاة والفتاحين من البدو)، وبين القوى الاقتصادية ذات المراكز الإدارية المعقدة القمينة بمسايرة واقتناء أحدث التقنيات العسكرية. وتحت الضغط الأوروبي هذه تكتلت الدول الإسلامية المتشرذمة التي جاءت في أعقاب الخلافة العربية والغزوات المغولية، ضمن وحدات أكبر تهيمن عليها «أمبراطوريات البارود» الكبرى الثلاث، وهي: أوراسيا العثمانية، وإيران الشيعية، والهند المغولية.



## صعود العثمانيين حتى 1650

لا جدال في أن الأمبراطورية العثمانية كانت الأوسع نطاقاً والأبعد نفوذاً من بين سائر الدول الإسلامية جميعاً. فقد بدأت توسعها المذهل كإمارة حدودية تشن غارات على الأراضي البيزنطية من يقينها بالقرب من بحر مرمرة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر، في العام 1242-1243، أنزل المغول الهزيمة بالسلاجقة، وجعلوا منهم مقطعين تابعين لهم، وهذا ما دفع بأعداد متزايدة من البدو الأتراك إلى آسيا الصغرى بحثاً عن الكلا والغنيمة. وأدى انهيار الدولة السلجوقية إلى نشوء عدة دويلات تحت سلطان المغول الضعفاء،

حدثت الطفرة الكبرى في التوسع العثماني إبان حكم السلطان سليمان الأول، الملقب بـ«العظيم». اللوحة أدناه تصور الأسطول البحري العثماني يُهاجم مدينة طولون الفرنسية عام 1545.



ومن هنا دولة الأتراك العثمانيين، الذين انقلبوا بعد استيلائهم على بورصة واتخاذها عاصمة لهم في العام 1326، لابعين أساسيين في المشاحنات الطائفية التي أمتت بالأمبراطورية البيزنطية في آخر أيامها. فمقاتلتهم قوات أجنبية في خدمة الأطراف البيزنطية المختلفة، اجتاح العثمانيون المضائق بإدائه ذي بدء واحتلوا أراضي بيزنطة في أوروبا. وهكذا احتلوا اليونان، ومقدونيا، وبلغاريا، وأخيراً بسطوا سيطرتهم على غرب البلقان بعد أن كسروا شوكة الصرب في معركة كوسوفو في العام 1389. وقد فشلت حملات







لكنها شديدة التأثر بالثقافة اليونانية. صحیح أنها خلقت السلاجقة، إلا أنها كانت كذلك وريثة الأعراف والبنی العائدة إلى الأبراطورية الرومانية - البيزنطية التي حلت محلها. وبمحك امتدادها بين البلقان المسيحي والتقوم الغربية لدار الإسلام، فقد عملت الدولة العثمانية كجسر بين حضارات متفانسة. ونظراً لقربها من القسطنطينية، التي طالما كانت هدفاً للفتح الإسلامي، اجتذبت السلطنة التي تحكمها أسرة «العثماني» العديد من العُرَبِ (مفرداً غازي، وهم المحاربون الصلحاء) الساعين إلى المجد السماوي في جهاد النصارى. هؤلاء الوافدون والرعوون الأتراك اتصفوا بالتحامل على القرى والبلدات المسيحية في الأناضول، وربما يكون بعضها قد لجأ إلى الدخول في الدين الإسلامي تحاشياً للاضطهاد. غير أنه كان من بين الوافدين أيضاً دراويش وأعضاء من الطُورُك الصوفيّة من آسيا الداخلية، مثل حاجي بكطاش (ت 1297)، الذي كان يُنادي بصيغة خاصة به من الإسلام تميل إلى مزج المعتقدات الإسلامية، السنيّة والشيعية كليتهما، بالمعتقدات والممارسات المسيحية، مما سهّل على الشعوب الناطقة باليونانية والأرمنية عملية الدخول في الدين الإسلامي. وقد دعم الولاة العثمانيون هذه العملية بإبغادهم الأساقفة والمطارنة عن أبرشياتهم، الأمر الذي ترك المسيحيين بلا قادة عملياً، وكذلك باستبدالهم المؤسسات الأرثوذكسية من مستشفيات ومدارس وميامت وأديرة بمؤسسات أخرى إسلامية يقوم على تسييرها علماء عرب وفرنس. ولم ينقض القرن الخامس عشر إلا وكان أكثر من 90 بالمئة من سكّان الأناضول قد صاروا مسلمين، وإن بقيت ثمة أقلّيات لا بأس بها من النصارى واليهود في المدن. وإذا كان الفلاحون هم من تأسلم في الأغلب الأعمّ، فإن طبقة النبلاء والموظفين المدنيين العائدة إلى النظام الأبراطوري القديم اندمجت في الجيوش والإدارات العثمانية، مما أضفى على الدولة طابعاً بيزنطياً مميّزاً. صحیح أن قدرأ من الاستقلال الديني كان سموحاً به عبر تطبيق النظام الملّي، الذي تحكم الأقلّيات الدينية بموجه نفسها بنفسها، إلا أن الأبراطورية العثمانية كانت على درجة فائقة من المركزية. وفي المناطق الإسلامية الأخرى (بما فيها بعض الولايات والسناجق

متعاقبة قامت بها أحلاف شتى بين دول لاتينية وأرثوذكسية، ومنها نابولي، والبندقية، وترانسلفانيا، وصربيا، وجنوى، في صدّ التقدم العثماني داخل أوروبا. في عام 1453، سقطت القسطنطينية في أيدي قوات محمد الفاتح، مما ألهم التطلعات الأبراطورية لدى العثمانيين ووفّر لهم الأرضية لمزيد من التوسّع. في عام 1521، انتزع العثمانيون بلغراد من المجرين، وبحلول عام 1529، كانوا قد وصلوا إلى أبواب فيينا، عاصمة آل هابسبورغ. ولدى وفاة سليمان العظيم (سليمان القانوني)، كان العثمانيون قد أحكموا قبضتهم على مساحة شاسعة من التراب الأوروبي تمتد من شبه جزيرة القرم إلى جنوب اليونان.

لكن انتصارات العثمانيين كانت أشدّ دويماً بعد في ديار الإسلام منها في أوروبا. فبعد أن هزموا الصغوبيين في كالديران عام 1514، عمداً إلى ضم شرق الأناضول وشمال بلاد الرافدين، مما أتاح لهم التحكم بطرق التجارة في آسيا الوسطى ما بين تبريز وبورصة. في العام 1516-1517، تمّت للعثمانيين الغلبة على الدولة المملوكية في سورية ومصر، الأمر الذي منحهم مفاتيح السيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز، وبتطويرهم الفنون الملاحية اليونانية التي اكتسبوها من أسلافهم الروم، تنطّح العثمانيون لمقارعة قوة البندقية في شرق المتوسط وتحدي سلطان إسبانيا الهابسبورغية في غرب المتوسط، واستولوا تبعاً على الجزائر (1529)، وتونس (1534-1535)، وجربة (1560)، وجزيرة مالطا الاستراتيجية، آخر معقل للصليبيين (1565)، فضلاً عن جزيرة قبرص (1570). هذه السلسلة من الانتصارات البحرية، أثارت في آخر الأمر هجوماً مضاداً ناجحاً. وبالفعل، استقبلت هزيمة العثمانيين البحرية في معركة ليبانت عام 1571 بحفارة بوضها نصرأ مؤزراً للعالم المسيحي. هذا ولئن أعاد العثمانيون تجديد أسطولهم البحري وانتزعوا تونس مجدداً عام 1574، إلا أن توازناً في القوى ساد المتوسط، ارتسمت معه الحدود التي بقيت تفصل الأراضي الإسلامية في الجنوب عن الأراضي المسيحية في الشمال.

ووجه المفارقة هنا أن السلطنة العثمانية في بواكير أيامها كانت إسلامية من الوجهة التضالية،



العربية التي كانت خاضعة لأشكال أقل إحصائياً من السيادة العثمانية). كان تطبيق الإسلام على صعيد القانون والمجتمع تطبيقاً ذاتياً في واقع الأمر. كان الولاة يُعيّنون القضاة، لكنهم في معظم مناحي الحياة الأخرى، كانوا يدعون المؤسسات والمرافق الدينية تنمو وتزدهر على نحو مستقل، ومنها المساجد والمدارس حيث يتم إعداد رجال الدين، وشبكات الزوايا والتكايا الصوفية، ونقابات الحرفيين التي غالباً ما كانت على صلة وثيقة بها. على أية حال، إن العثمانيين، وخلافاً لأنظمة الحكم الإسلامية الأخرى، كانوا يشرفون على المجتمعات التي يحكمونها ويضبطونها ويقولونها. فإذا كان السلاطين خاضعين نظرياً للشريعة الإسلامية، غير أنهم كانوا يُردفون الشرائع السماوية بالفَرَمانات الهمايونية التي تتلاعب بمكانة واجبات جميع الرعايا، بما في ذلك أحكام اللباس. لقد أخضعوا العلماء والزوايا الصوفية والنقابات الحرفية لسلطة الدولة بإملائهم التعيينات والتصنيفات والأذونات إتماماً. كان المجتمع ينقسم إلى طبقتين: طبقة الحكام وطبقة المحكومين، والفرق الرئيسي بينهما هو حق الحكام في استغلال ثروات المحكومين عبر فرض المكوس والضرائب عليهم. نظرياً، كانت الأرض كلها ملكاً شخصياً للسلطان (جفتلك). والنخب الحاكمة لم تكن محصورة فقط بالباشوات والبكوات والأعيان الذين يقبضون على مقاليد السلطنة في الولايات، بل كانت تضم كذلك عائلات يونانية أرستقراطية، وسلطات كنسية، ورجال مصارف بارزين من اليهود والأرمن. فضلاً عن أسر أميرية من البلقان.

قُصد من هذا الرسم الشخصي للسلطان سليمان، تقديمه إلى أتاده من ملوك أوروبا. إذ لم يعتد سلاطين بني عثمان أن يعرضوا رسومهم الشخصية على رعاياهم إلا في زمن متأخر من القرن التاسع عشر.

## الأمبراطورية العثمانية 1650 - 1920

حين وصل النظام العثماني إلى أوجه في القرن السادس عشر، كان نظاماً فعالاً وغباً في النجاعة. إنما كانت تشوبه كذلك نقطة ضعف كبرى، ألا وهي نظام الوراثة. في المجتمعات التي تغلب عليها البداوة، يكون لغباب نمط محدد للوراثة منطقه الدارويني



عبد الحميد الثاني هو السلطان العثماني الأخير الذي تسنى له أن يمارس سلطة فعلية علي الأمبراطورية. كان ملكاً مستبداً وعدواً للحريات السياسية، إلا أنه شجّع مع ذلك الإصلاحات التعليمية والقضائية والاقتصادية.



الثابت: بعد صراع بين الأناد، يخرج زعيم يكون هو الأقدر والأصلح لقيادة القبيلة. لكن انتقال هذا المنطق إلى صلب نظام أمبراطوري معناه احتراباً داخلية. وهكذا بعد سلسلة من التنازعات الدامية بين الإخوة، حسم العثمانيون معضلة الوراثة لديهم بأن قيّدوا حركة أقرباء السلطان من الذكور وجعلوهم حبيسي أفنية القصر الداخلية أو أجنحة الحرم، وهذا ما كان يحول دون السلطان العتيد واكتسابه أبة دراية حيوية بالشؤون العسكرية والمدنية. وهكذا، بدأ بالقرن السابع عشر، كان السلاطين العثمانيون ممن وصلوا إلى سدة السلطة عن طريق المناورات «البيزنطية» ومكائد الحرم، يفتقرون إلى الخبرة في الميدان العسكري، وعلى غير دراية كافية بحقائق السياسة. وقد تعطلت سلطة الدولة والجيش لفترة وجيزة بوجود



وتمكنّ الروس بفضل جيشهم الذي جرى تحديثه مؤخرًا في عهد بطرس الأكبر، من الاستيلاء على آزر في شبه جزيرة القرم. ولئن استطاع العثمانيون استعادة بعض من هذه الأراضي المفقودة خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، إلاّ أنهم كانوا عاجزين على المدى الأبعد عن إيقاف مدّ التقدم الروسي، في عام 1768، شرع الروس بحملة جديدة، فاحتلوا مولدافيا وولاشيا (شمال رومانيا) والقرم. وبموجب الشروط المهيّنة لمعاهدة «كوتشوك كينارك» المبرمة عام 1774، أُجبر العثمانيون على منح روسيا موطنه قدم على البحر الأسود، والسماح لها بحرية الملاحة والتجارة فيه مع إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط، فضلًا عن فتح أبواب التجارة البرية أمامها في ولايات السلطنة جميعًا، الآسيوية منها والأوروبية. وفي حين ظلّت مولدافيا وولاشيا تحت السلطة العثمانية من الناحية التقنية، إلاّ أنّ ما حازته من حكم ذاتي متزايد جعلها عرضة للتلاعب الروسي بهما. ولسوف يتحوّل بندّ شرطي أدخل تحت ضغط روسي يقضي ببناء كنيسة روسية في استنبول إلى حقّ عام في أن تتدخل روسيا لصالح جميع رعايا السلطان من المسيحيين الأرثوذكس.

بيد أن تدفق الأفكار الذي جاء في أعقاب الانتصارات الأوروبية كان، في حقيقة الأمر، أشدّ وقعاّ وإعصارًا من الهزائم العربية. فاحتلال نابليون بوناپرت القصور الأمد لمصر عام 1798، جاء ليبدؤ بذور الفكر العلمي والتحوّل الثوري في أغني ولايات السلطنة، لكن أكثرها تعرّضًا للإهمال. لقد فتح نابليون بإنزاله الهزيمة في أمراء المماليك الجدد، الذين يحكمون مصر تحت جناح السلطنة العثمانية، الطريق أمام تغلغل الأفكار الغربية في ظل أسرة حاكمة تأخذ بأسباب التحديث وطراق العصرية، هي أسرة محمد علي (ح 1805-1848). الضابط الألباني الذي استولى على السلطة عام 1805، جاعلاً من نفسه حاكمًا مستقلًا في كل شيء إلاّ بالاسم. والمطامع الاستعمارية لفرنسا بعد عودة الملكية إليها، أفضى إلى خسارة العثمانيين الجزائر امتحارًا من عام 1830، وإنشاء محمية في تونس عام 1881. ورياح النزعة القومية التي عصفت بأوروبا غب الثورة الفرنسية، وصلت إلى الجاليات المسيحية في البلقان، بدءًا بثورة

وزراء اتعدمت في قلوبهم الرحمة، أمثال محمد كوبرولو (ح 1656-1661)، وكان أبنا لرجل نصراني من ألبانيا، وابنه أحمد (ح 1661-1676)، مما أتاح التوسّع أكثر إلى الشمال من شبه جزيرة القرم، لا بل وضرب حصار ثانٍ (بعد موت أحمد) على فيينا عام 1683. لكن تبيّن أن سيورة الانحطاط عملية لا رجعة فيها. فتدفّق الغضة الإسبانية من الأميركيتين خلق تضخمًا هائلًا ألحق الأذى بالطبقات ذات العلاقة بالتجارة، وكذلك بقدرة الحكومة على الصرف على الجنود الذين كان سلاحهم الحديث من بنادق وبارود يتطلّب مبالغ نقدية لا غنائم حرب. وهكذا كسب ولاة المقاطعات والإيالات المحليون سلطات على حساب المركز، فانكروا جيوشًا خاصة لهم وضاعفوا الضرائب لجيوبهم. والإنكشارية الذين كانوا قد شكّلوا كيانًا ينعم بالامتيازات داخل الدولة ذاتها، انغمسوا من جانبهم في إساءة التصرف ومحاباة الأقارب على نطاق واسع. وتنازل الحكومة عن الأراضي الذي كان من المفروض أن يتعشش الزراعة، تحوّل إلى مزارع خراجية لاعتصاف الضرائب ليس إلاّ، مما دفع بالمزارعين إلى التخلي عن أراضيهم وتكوّبتهم عصابات من قطاع الطرق الريفيين أو من المهجرّين إلى المدن المكتنح أصلاً بسكانها والمعرضة لتفسيّ المجاعة والأوبئة واضطراب حبل الأمن. وجاء تطبيق النظام الممّي الذي يتيح للجالياتين المسيحية واليهودية (وللشيعة في العراق) درجة عالية من الاستقلال الإداري، ليقوّض شرعية الدولة من خلال منحه لتجار الغربيين امتيازات، وتشجيعه المسيحيين في اليونان والبلقان على التطلع نحو أعده السلطنة - روسيا وأوروبا الغربية - طلبًا للمساندة والحماية. ويانحلال مركزيّتها على الصعيد الداخلي، أثبتت السلطنة العثمانية أنها ليست صنوّاً لدول أوروبا الصاعدة، التي كان نظامها العسكري والاقتصادي قد بدأ يجني الفوائد من الثورة في مضمار الفكر العلمي. وخلال العقود الأخرين من القرن السابع عشر، قطعت الدول الأوروبية أشواطاً بالغة الشأن على حساب الأمبراطورية العثمانية. فما بين عامي 1684 و1687، انتزعت أسرة هابسبورغ معظم أراضي المجر الواقعة شمالي الدانوب وأتبعتها ببلاد الصرب عام 1689؛ واستولى البنادقة على الساحل الدالماسي وجنوب اليونان (المورة)؛ وغزت بولندا بودوليا؛

على البلقان في صورة حرب كونية، اصطفت فيها السلطنة العثمانية إلى جانب النمسا وألمانيا في وجه بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا. وجاءت هزيمة دول المحور في العام 1918، وخلع السلطان عام 1922، وإلغاء الخلافة الإسلامية عام 1924، ناهيك عن تبادل السكّان بين تركيا واليونان في العام 1921، لتسدل ستار النهاية على الأمبراطورية العثمانية.

قصر «ضوامة بهجة» في إستنبول، إن واجهة هذا القصر المبنى على الطراز البندقي الكلاسيكي، شأن باقي القصور التي شُيّدت للسلطين العثمانيين في القرن التاسع عشر، لتتمّ عن حدود تحوّل كبير في التوجّه الثقافي، إذ راحوا يتخلّون عن نزعتهم السابقة إلى العزلة ويجاهرون بما يملكون من جاه وسلطة على غرار ملوك أوروبا.

الصرّب (1804-1813)، فحرب الاستقلال اليونانية (1821-1829)، وبلغت ذروتها في معاهدة سان ستيفانو لعام 1878، التي أجبر العثمانيون بمقتضاها على منح الاستقلال لبلغاريا وصربيا ورومانيا والجبل الأسود، ولم يتأجل الفصل الأخير من تقطيع أوصال السلطنة إلا بسبب التنافس بين القوى الأوروبية، وقيام بريطانيا وفرنسا بمساندة «رجل أوروبا المريض» ضد روسيا في القرم (1854-1856)، فيما راحت النمسا تتنافس وروسيا على البلقان. في عام 1911، غزت إيطاليا ولايتي طرابلس وبرقة، مكّره العثمانيين على التنازل عنهما لها. وفي عام 1912، انتزعت القوى البلقانية مجتمعةً، وهي صربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، ما تبقى من أراض عثمانية في أوروبا، باستثناء قطاع من الأرض حول استنبول، وذلك قبل أن يدبّ الخلاف بينها. وفي شهر آب/أغسطس 1914، انفجر النزاع بين الدول الأوروبية



## إيران 1500 - 2000

اليهود والزرادشتيون لعلميات «أسلمة» قسرية. وجرى ثني الناس عن الحج إلى مكة والاستعاضة عنه بـ«زيارة» مزارات الأئمة الشيعة التي تُغذَق عليها الأموال بلا حساب. وفي القرن الثامن عشر، وإثر تفكك الدولة الصفوية، مرّت إيران بفتره من الاضطرابات كان فيها العثمانيون والروس يسيطرون على الشمال، وزعماء القبائل الأفغان والأفشار والزند والقاجار يتنافسون على السلطة في الجنوب. ولئن قام نادر شاه، الزعيم القبلي الأفشاري الذي أعلن نفسه شاهاً عام 1736، بكنج جماع العلماء الشيعة، إلا أن القلاقل التي عمّت القرن التاسع عشر سمحت لأولئك العلماء بحياة قدر أكبر من الاستقلال المؤسساتي بالمقارنة مع نظرائهم السُنّة.

وفي عهد السلالة القاجارية (1779-1925)، تعرّضت قدرات العلماء الشيعة بفضل الزكاة والخمس التي كانت تُدفع إليهم مباشرة، في حين منحهم رعايتهم للمزارات والأوقاف عائدات إضافية من إيجار الأراضي والمسكن. إن وجود اثنين من أهمّ المزارات في كربلاء والتنجف بالعراق الخاضع للسيطرة العثمانية، وفرّ لهم قاعدة لممارسة السلطة خارج نطاق الدولة. فشنعائير الجداد التي تحيي ذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء ومجالس الغزاء المقترنة بها، أصبحت معالم مُميّزة للتدبير الشعبي، وجعلت من العقيدة الشيعة مكوناً أساسياً من مكونات الهوية القومية الإيرانية.

ولمّا بدأت الضغوط تشدد على إيران من جانب روسيا وبريطانيا في القرن التاسع عشر، سارع العلماء إلى تصدّر الصفوف في المقاومة الوطنية. ففي العام 1873، أجبر العلماء الشاه على إلغاء امتيازات اقتصادية ومالية بعيدة الأثر كان قد منحها ل مواطن بريطاني يدعى البارون دو رويتر، وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، قادوا حركة إضراب عمّت البلاد بأسرها ضد منح بريطاني آخر، هو الميجور تالبوت، حق احتكار التبغ، والزخم السياسي المتولد عن إضراب التبغ بلغ ذروته في الثورة الدستورية لعام 1906، حين أُجبر تحالف من العلماء الليبراليين والتجار وأفراد من الشريحة المثقفة المتغربة الشاه على الدعوة لعقد جمعية وطنية والقبول بشكل من أشكال الحكم

بدأ تاريخ إيران الجديد مع السلالة الصفوية (1501-1722)، التي اتخذت من المذهب الشيعي الاثني عشري ديناً للدولة، ومؤسس الأسرة الصفوية هو الشيخ صفى الدين (1252-1334) الذي كان شيخاً صوفياً ومجدداً للولاء السنيّ، وقد استهلّ حركة من الإصلاحات بين القبائل شرق الأناضول وشمال غربي إيران. أما خلفه الشاه إسماعيل (1487-1524)، فقد أحيا آمال الأخرية الشعبية في فترة الغوضى التي سادت عقب انهيار الدولة التيمورية بأن أعلن نفسه «الإمام المستور»، أو المخلص المنتظر لدى الشيعة. أتاحت هذه الحركة، وفي مقدمتها عصبة شرعية من المحاربين يُعرفون بـ«القرلباشي»، أي أصحاب الرؤوس الصهباء (نسبة إلى العمامة الحمراء التي



كانوا يعتمرونها)، أتاحت للشاه إسماعيل، الذي كان أعلن نفسه ملكاً في تبريز عام 1501، بأن يخضع لأمره معظم الأراضي الإيرانية في غضون العقد التالي. بالرغم من أن سلطان الدولة الصفوية من عاصمتها الجديدة الرانغة أصفهان التي بناها الشاه عباس الأول (1588-1629)، لم يكن مطلقاً لاعتمادها في ممارسته على شيكة من «الأوياق» (شيوخ القبائل الصغار)، وعلى نظام الإقطاع التقليدي في الزراعة الخراجية، فإن استراتيجية الاندماج الديني التي اعتمدها الصفويون منحت إيران طابعها الشيعي المميّز الذي ما برحت تحتفظ به إلى يومنا هذا. ما إن أدى القرلباشي المهمة المنوطة بهم حتى خفّت نبرة التشديد على مزارع إسماعيل «المهدوية»، واستقدم فقهاء شيعة من سورية والعراق والبحرين والإحساء لإعلاء شأن الصيغة «الرسمية» من الشيعة الاثني عشرية، ومؤداهما أن عودة الإمام المهدي المنتظر مَوْجَّلة إلى أجل غير مسمى. فتمّع المذهب السنيّ، ودُنست أضرحة الأولياء الصوفيين، وأفردت الخانقانات لاستعمال الشباب الشيعة. كذلك تعرّض

الشاه سليمان وبعض خاصته، فضلاً عن ضيوف غربيين، بظهور هنا على خلفية منظر طبيعي من النمط الأوروبي الشعاعي كان الحكام الصفويون يصدرون السجاد والحبر إلى أوروبا، وكذلك الأئمة الزغرفية من تصميم حرفيين صينيين إلى أسواق الغرب. لقد أُنقذوا عن إهداء ذلك العزاء الديني المعهود حبال تصوير الأشخاص بالزعم أن الإمام عليّ، الذي يهيكه الشيعة، كان هو نفسه رسماً وخطماً أيضاً.



المذكور عمل على تنفير رجال الدين، والعديد منهم كانوا هم أنفسهم ملاك أراض ثرية أو قيمين على مساحات شاسعة من أراضي الوقف، والارتفاع المفاجيء في أسعار النفط بعد عام 1973، ضاعف من ثروة القطاع الاقتصادي الحضري الصغير، إنما أثر سلبيًا على قطاع الأعمال الصغيرة المركزية في مجتمع «البازار»، الوثيق الصلة برجال الدين كذلك، فإن فساد أسرة بهلوي والقمع والحشي الذي كان يمارسه البوليس السري (السافاك)، أسهما في تعميق اغتراب الطبقة الوسطى المتعلمة، ولا سيما جيل الطلاب الشباب المتأثرين بالماركسية أو بالنسخة اليسارية من الأيديولوجيا الإسلامية كما كان يروج لها الدكتور علي شريعتي، وجمال علي أحمد صاحب الكرّاس بالغ التأثير الذي يحمل عنوان: «التسميم الغربي». لقد شكّل النازحون من الريف إلى المدن مادة لثورة سريعة الالتهاب.

بمقتضى صفة توصل إليها الشاه مع صدّام حسين، طرد العراق رجل الدين المنقذ آية الله روح الله الخميني من الحوزة الشيعية في النجف، حيث كان يمدّو في دروسه إلى إحياء الحكم الإسلامي تحت إشراف العلماء، فتلقى محاضراته أذنانًا صاغية من رجال الدين والطلاب على حد سواء. ومن منغاه في إحدى ضواحي باريس، وجد الخميني منفذًا إلى وسائل الإعلام العالمية، فيما كانت الأشرطة المسجّلة بصوته لغتاويه وخطبه المنذرة بالشاه تُهرَّب إلى داخل إيران. في مستهل عام 1979، وقعت سلسلة من المظاهرات الحاشدة تزامنت مع إحياء ذكرى عاشوراء، اضطُر معها الشاه إلى مغادرة البلاد إلى المنفى، فعاد عندئذ الخميني إلى دياره ليستقبل استقبالًا صالحًا. ولعدة عشر سنوات، أي إلى حين وفاته عام 1989، حكم الخميني الجمهورية الإسلامية بوصفه المرشد الديني الأعلى، وإذا كان آية الله الخامنئي، خلف الخميني كأعلى سلطة دينية في البلاد، يفتقر إلى الجاذبية الزعامية التي كان يتمتع بها سلفه، فإن الحق المخوّل إلى «مجمع تشخيص مصلحة النظام» الذي يسيطر عليه في فحص واختيار المرشحين لضبوة البرلمان، قد أعاق إلى حد بعيد قدرة هذا الأخير على إدخال إصلاحات تعتبرها المؤسسة الدينية مُناقضة لمصالحها.

البرلماني، تلت ذلك فترة وجيزة من الحكم الدستوري، برزت خلالها إلى السطح حالة من التوتر بين العلماء المحافظين والعلماء الليبراليين، ولم تنته إلا على أيدي الروس عام 1911 حين تدخلوا لإعادة حكم الشاه الأوتوقراطي ثانية.

في عام 1925، وصل إلى السلطة ضابط من كتيبة فرسان القوزاق، هو رضا خان بهلوي، وذلك بعد فترة من عدم الاستقرار أعقبت الثورة الروسية. أقام رضا شاه نظام حكم يتميز بمنزعة التحديثية الجذرية، وقد سعى ذلك النظام إلى تحطيم سلطة زعماء القبائل والحد من استقلالية رجال الدين عن طريق إدخال التعليم المدني العلماني وفرض إشراف الدولة على المدارس الدينية. كذلك أقيمت المحاكم المدنية التي جرّدت العلماء عن احتكارهم للشؤون القضائية، بما في ذلك معاملات تسجيل وانتقال ملكية الأراضي التي كانت تدرّ عليهم أموالًا طائلة. وخلال الحرب العالمية الثانية، احتاجت بريطانيا وروسيا إلى حكومة إيرانية طيعة لتسهيل أمر وصول الإمدادات الحربية إلى الجبهة الشرقية، فأجبرتها رضا شاه على التّخني ونصبنا مكانه ابنه الشاب محمد رضا بهلوي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، صار النفط، الذي اكتُشف لأول مرة في العام 1908، وتمّ تسأجيره للبريطانيين بموجب الامتيازات السخية الممنوحة لهم، محل نزاع وتنافس حين حاول رئيس وزراء إيران الوطني، محمد مصدق، تأميم شركة النفط الإنجليزية - الإيرانية، وفي خضم الأزمة الناجمة عن مقاطعة شركات النفط الغربية للبتروال الإيراني، تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (سي آي إيه) لمساعدة الجيش في إعادة أسرة بهلوي إلى سدة الحكم الأوتوقراطي من جديد.

كان انهيار نظام حكم الشاه في العام 1979 وقيام الثورة الإسلامية بعيد ذلك، حصيلة مجموعة مركبة ومعقدة من العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية. فبدلاً من أن يعود برنامج الإصلاح الزراعي الطموح الذي نفذّه الشاه في ستينيات القرن العشرين بالفائدة على صغار الفلاحين ممن يستأجرون الأرض أو ممن لا يملكون أية أرض بالمرّة، جاء محابياً للشركات الكبرى ومشاريع الأعمال في قطاع الزراعة التي كان للعائلة المالكة مصالح أكيدة فيها. زد على ذلك أن البرنامج

## آسيا الوسطى إلى العام 1700

بذلك أمبراطورية سوف تمتد في أوجها من غرب الهند (بما في ذلك دلهي) إلى سواحل البحر الأسود. وقد طبقت شهرته الأفاق في أوروبا عندما هزم العثمانيين في أنقرة عام 1402، حيث أسر السلطان بايزيد الأول (ح 1389-1402). وهذا الخلل الذي اعتور قوة العثمانيين في الأناضول خفف من الضغط على القسطنطينية، التي ستستجو لمدة نصف قرن آخر، وأعاد فتح طريق التجارة إلى الصين. في حين ساعدت الهزيمة التي أنزلها تيمورلنك بالقبيلة الذهبية في صعود نجم روسيا المسيحية.

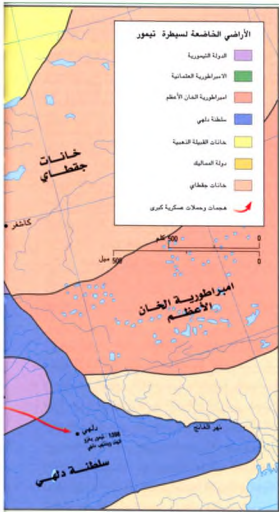
في عهد تيمورلنك وخلفه أولنغ بك (ح 1404-

على غرار تاريخ الهلال الخصيب حيث ظهر الإسلام، حكمت تاريخ آسيا الداخلية العلاقة ما بين الأقوام الرومية البدوية والأقوام الحضرية المستقرة. في تلك السهوب الرحبة شبه القاحلة، الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين، عاشت شعوب تعتمد في معاشها بالدرجة الأولى على الأبقار والخيول والماعز والغنم والإبل والياك. كانت تلك الشعوب منتظمة في جماعات قروابية أبوية أساسها الحوامل والأفخاذ والبطون والعشائر وما ينجم عن اتحادها من قبائل، كذلك التي انضوت أكبرها تحت لواء جنكيزخان وخلفائه، فيقيادة ابن جنكيزخان، باتو (ح 1227-1255)، اتخذت «القبيلة الذهبية»، المشكلة من أقوام مغولية - تركية عُرفت بالتتار في روسيا، قاعدة لها من سراييتين (مقردها سراي، وتعني مقر البلاط) على نهر الفولغا، ومن هناك فتحت أوكرانيا وجنوب بولندا والمجر وبلغاريا وروسيا، حيث أقامت أمبراطورية مترامية الأطراف كان فيها الحاكم في موسكو بمثابة دافع الجزية الرئيسي. دخلت الأسر اللتيرية البارزة في الإسلام منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد اتصالها بالشعوب المستقرة في إيران وخوارزم وبلاد ما وراء النهر. والإسلام الذي حملته التجار والدرابيش الصوفيون المتنقلون على طريق الحرير إلى مناطق آسيا الداخلية، اكتسب هناك طابعاً غيبياً وتعدياً بفعل احتكاكه بالزرادشتية والبوذية والمسيحية النسطورية والديانات الشامانية الأقدم عهداً.

كان لدخول ترمارشيرين في الإسلام، وهو الذي حكم مدة ثماني سنوات (1326-1334) بلاد ما وراء النهر التي كان أورثها جنكيزخان لابنه جغتاي، عاقبةً تمثلت بانشقاق أصاب عشيرته. وقد عرف تيمورلنك، وهو فرد حاز على احترام عشيرة التركمان الفقيرة، كيف يستثمر هذا الانشقاق بذكاء. بالرغم من أنه ولد أعرج، فقد كان تيمور (أو تيمورلنك كما يُعرف في الغرب) استراتيجياً سياسياً أمعياً وقائداً عسكرياً فذاً طوال فترة حكمه (1370-1405). فتوحيده بلاد ما وراء النهر وإيران (التي كانت محكومة فيما سلف من قبل الإيلخانيين، أحفاد هولكو)، أعاد تيمورلنك من السلطة التركية - المغولية إلى آسيا الوسطى، خالقاً

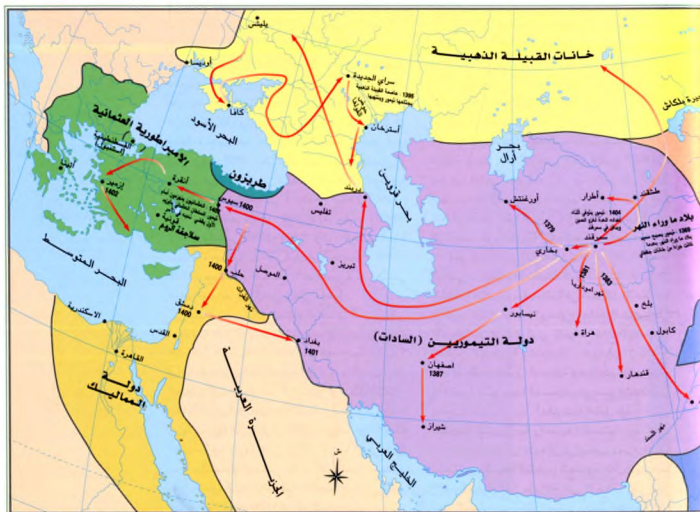


مسجد الشاه (مسجد الإمام حالياً) في إصفهان بإيران، وقد حملت منذئذته اسمي «الله» و«محمد» بأحرف هندسية بارزة. كان بناء المسجد في الفترة 1612-1630، وتلخّص زخرفته الرائعة بالفيشاني الأزرق في حد ذاتها أسلوب الشاه عباس والأبهة التي كان عليها.



العالية الإسلامية، تلك الثقافة الممتازة التي سيقلدها من جاء بعده وأن بمزيد من الصقل والإنقاذ. كما عرف عنه تسامحه وسعة صدره في الأمور الدينية. صحيح أنه كان مسلماً سنياً قام بفتحاته باسم الشريعة وبذريعة أن أعداء زنادقة ومرتبون عن الإسلام، غير أنه حمى الشيعة من كل أنى، كما كان مشايخ الصوفية يُسدونه النصائح الروحية. وفي تلك الفترة بالذات، خرجت إلى حيز الوجود الطريقة الصوفية النقشبندية، التي سُميت كذلك نسبة إلى بهاء الدين النقشبندي المتوفى عام 1389، والمدفون بالقرب من مدينة بخارى، لتضرب من ثم جذورها عميقاً في عموم آسيا الداخلية.

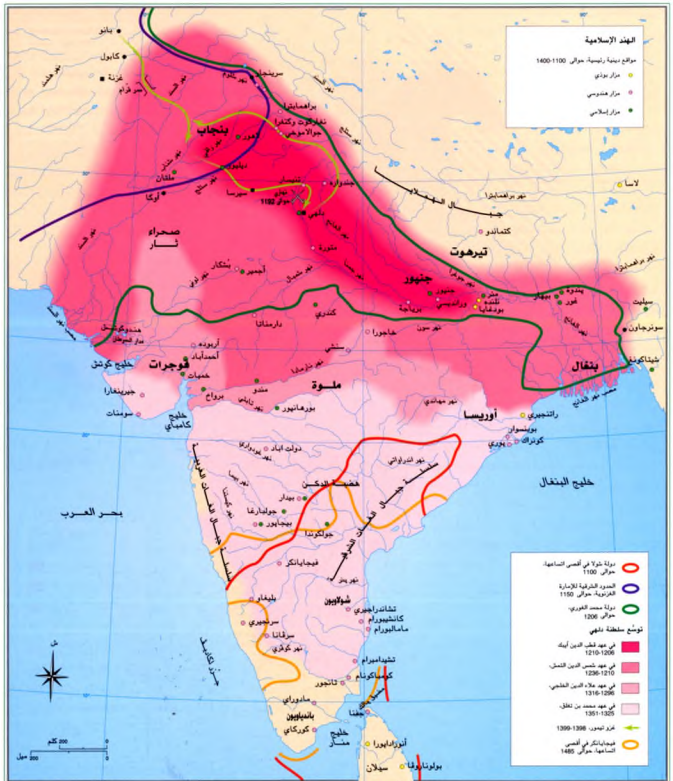
1449)، وتمت حُكم الشيبانيين الأوزبك (1500 - ن الذين ورثوا سلطة التيموريين في آسيا الداخلية، تحوّل مدن هراة وسمرقند وبخارى إلى حواضر من الطبقة العالمية فقد ازدهرت تلك المدن بالفنانات ويأروع ما أبدعه الحرفيون والفنانون الذين استقدمهم تيمورلنك وخلفاؤه من بلاد فارس والهند والعراق وسورية. لكن تيمورلنك، وبالرغم مما عُرف عنه من قسوة ووحشية فائقة (حتى إنه أمر قبل استسلام دلهي له بالاجهاز على آلاف الأسرى الذكور كي لا يتسنى لهم الالتحاق بأعدائه)، لم يكن بذاك الهمجى الجاهل البتة. فقد كان يجيد الفارسية، ويحيط نفسه بكوكبة من أئمة العلماء والدارسين والفنانيين والمؤرخين والشعراء في عصره؛ واضعاً المواصفات للثقافة

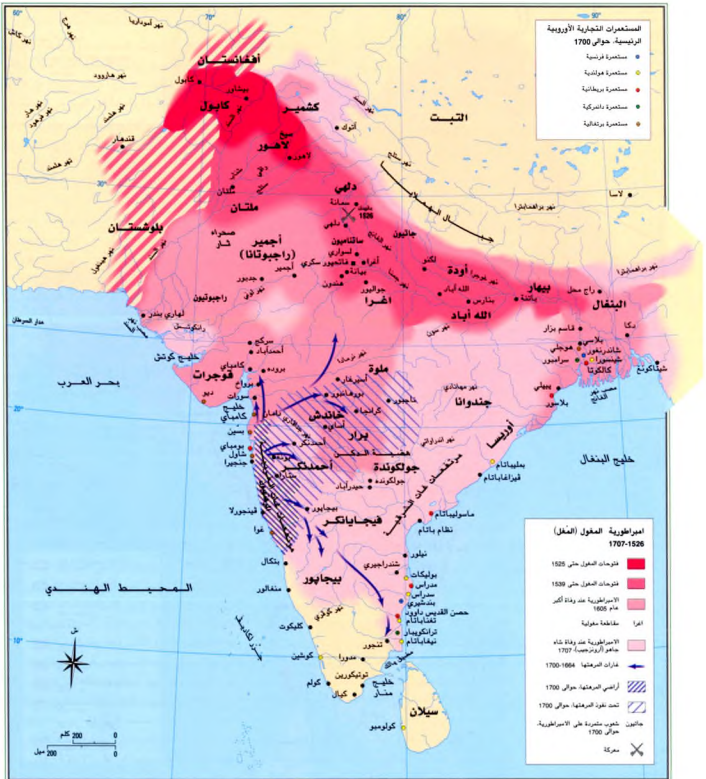


## الهند 711 - 1971

المسلمين في المناصب العسكرية والإدارية، وشارك شخصياً في المهرجانات والاحتفالات المحلية، كما سمح بتشييد المعابد. وإذا كانت هناك فترة أولى تميّزت بهجرة إسلامية واسعة إلى الهند من أفغانستان وآسيا الوسطى عقب الفتح، إلا أن دخول السكان المحليين في الإسلام كان بطيئاً ومحدوداً نوعاً ما. فمن المشكوك فيه أن يكون أكثر من 20-25 بالمئة من سكان الهند تحوّلوا إلى الإسلام، مع تركّز تجمعات المسلمين في وادي السند ومنطقة الحدود الشمالية الغربية والبنغال. وفي حين كانت الطبقات الحاكمة من أحفاد المحاربين القادمين من أفغانستان وإيران وآسيا الداخلية، كان المسلمون في معظمهم من الطبقات الهندوسية الدنيا أو من الفئات القبلية والريفية التي شهدت حياتها تحسّناً بانضمامها إلى طائفة الحكّام الدينية. هذا وقد انعكس التّوّج الحصب في العقائد والعبادات والتقاليد الإسلامية بين المسلمين الهنود، سنّة وشيعة ومتصوّفة، بعدد وافر من الأشكال المختلفة. فالطابع التّعدي للإسلام الهندي انعكس في التراث المعماريّ المهيّب حيث امتزجت «الموتيفات» البلدية، الإسلامية والهندوسية، معاً في توليفة جديدة خلّاقة. وحتى الأدب التقوي الإسلامي، بما فيه الشعر، كتّت تجده في عدد كبير من اللّغات الهندية، بالإضافة إلى العربية والفارسية، وهما اللّغتان اللتان كانت تُدرّسان في معاهد التعليم العالي إلى جانب علوم الشريعة وعلم العقائد والتصوّف. وفي حين غلب على الطبقات الحاكمة النمط المدني من الحياة الإسلامية، الذي لا يختلف كثيراً عن الثقافة الكوزموبوليتانية في المناطق الإسلامية الأخرى كإيران وآسيا الوسطى، احتفظ المسلمون في الأرياف بتراث بلدي قوي، كثيراً ما كانت تختلط فيه الطقوس الهندوسية بالمعتقدات والعبادات الإسلامية. وقد اضطلعت الطرُق الصوفية ومشايخها بدور بالغ الأهمية على وجه الخصوص في نشر الإسلام في جنوب آسيا. ومن بين أعظم هذه الطرُق شأناً، نذكر: الطريقة السهروردية والطريقة الششّية. وإذا كانت هاتان الطريقتان تتّبعان في تنظيمهما تراتبية تتماشى وطبيعة المجتمع الهندي، إلا أن أدوارهما الاجتماعية لم تكن متماثلة على الإطلاق. ففي حين أبقى السهرورديون على صلوات وثيقة لهم بسلاطين

ظهر الإسلام أول ما ظهر في شبه القارة الهندية مع فتح العرب لبلاد السند في الفترة 711-713. وفي القرن العاشر، تمكّن الدعاة الفاطميون الآتون من القاهرة من إقناع أمراء محليين في مَلتان باعتناق المذهب الإسماعيلي. غير أن هؤلاء استبدلوا بولاة من السنّة عيّنهم الغوريون في أعقاب اكتساح البنجاب من قبل محمود الغزنوي الذي انتهب لاهور وعاث في شمال الهند خراباً ودماراً في العام 1030. بدأت عملية الاستيلاء المنتظم على شبه القارة الهندية مع الغوريين الذين احتلوا مَلتان و لاهور ودلهي في الفترة 1175-1192، قبل أن يعمد أحد قوادهم، قطب الدين أيبك، إلى تأسيس أول سلطنة من عدة سلطات مستقلة في دلهي. وقد دامت هذه السلطان من عام 1206 إلى عام 1526 في ظل سلسلة متعاقبة من مختلف السلالات الحاكمة. أسهمت سلطنات دلهي في إرساء الطابع المميّز للإسلام الهندي، وهو إرث تعهدته بالرعاية إمبراطورية المغول التيموريين التي تأسست على يد حفيد تيمورلنك، بابر، عام 1526. وقد امتد الزمن بهذه الأخيرة ما يتوفى على ثلاثة قرون، إلى أن حلّها الإنجليز عقب «التمرد» أو العصيان الكبير الذي اندلع عام 1858. اشتملت إمبراطورية المغول (أو المغلّ) في الهند على عدد من السلالات الحاكمة الإسلامية المستقلّة التي قامت في البنغال (1356-1576)، وكشمير (1346-1589)، وقوجارات (1407-1572)، والدكن (1347-1601). وكان أقصى اتساع لهذه الإمبراطورية في عهد أورانجزيب (ح 1658-1707)، حيث كان اسم هذا الإمبراطور يتردد من على منابر المساجد من كابول وحتى ميسور. البعض من أوائل الحكّام المسلمين كان يتلقّى حماسةً ضد «عبدة الأوثان» وهووساً بتحطيم التماثيل الدينية، فدمّر المعابد الهندوسية، مستبدلاً إيّاها بمساجد بالغة الضخامة يُراد منها أن ترمز إلى السيطرة الإسلامية. غير أن سلالة آل تغلق (1320-1413) استهلت نمطاً من التسامح ساهم في إرساء رؤية تعددية للإسلام في الهند تختلف عن الأنماط الأشد صرامة وتزمتاً التي عرفتها الأزمنة الأولى. فلكي يحدّ من النفوذ السياسي للأسر الإسلامية المستتبّة، عمد مؤسس السلالة الحاكمة التغلقية، السلطان محمد تغلق (ح 1325-1351) إلى توظيف أناس من غير





المهيمنة في الهند. فالإصلاحيون، على طريقة شاه وليّ الله، شجّعوا المسلمين على تجنّب التعاون مع السلطة أو الاختلاط الاجتماعي مع غير المسلمين. وبينما استمرت الممارسات التقوية الصوفية، ومن بينها التردّد على مزارات الألياء والصالحين وإقامة المهرجانات الشعبية الزاهية، تجذبت إليها الفقراء، أحرزت التيارات الإصلاحية تقدماً في أوساط المهنيين المتعلمين وطبقتهم الصاعدة. فأرانيا حركة ديوباند الإصلاحية، التي تأسست عام 1867، تستخدم التقنية الجديدة للطباعة باللغة الأردية، وشبكة السكك الحديدية وهي برعمٌ بعد، للوصول إلى جمهور إسلامي غفير في طول شبه القارة الهندية وعرضها، عمقاً



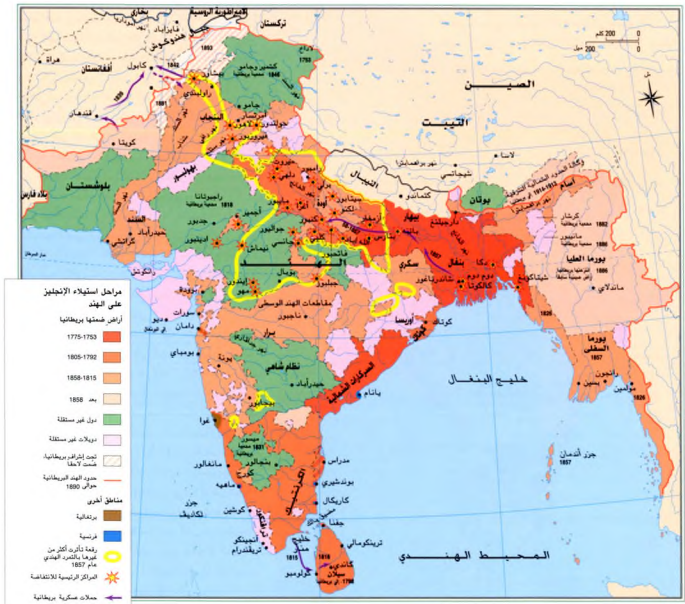
دلهي، منتفعين هكذا بالبهات والأوقاف التي كان تمنح زعماءهم مكانة الوجهاء والأعيان المحليين، شدّد الشكّتيون من جهتهم على رفض كل أشكال الأعطيات أو الخدمات الحكومية، مفضّلين كسب قوتهم من زرع الأرض الجباب ومن تصدّق الأشياء عليهم. استخدم مشايخ الصوفية، الذين كانت لهم اليد الطولى في كسب مهتدين جدد إلى الإسلام من بين أفراد القبائل أو المهشّنين، أو من الطبقات الاجتماعية الهندوسية الدنيا، اللغات المحلية، ومن ضمنها اللغة الطقوسية، لإيصال رسالة الإسلام إلى أوساط اجتماعية ودينية تختلف تمام الاختلاف عن البيئة التي ظهر فيها الإسلام. على المستوى الشعبي، لا يهّم كثيراً إن قدم «الولي» نفسه كملسم أو مقدّس لشيفاء، فما كان يحدو الناس إلى إيذاء التعلّق الشديد به (بختي)، هو هالة القداسة التي تكتنّفه على المستوى الفكري، يمكن العثور على المبررات الفلسفية للتقارب الديني بين الإسلام و«الهندوسية» (وهي، في الواقع، تسمية اخترعها الأوروبيون في القرن التاسع عشر، في كتابات المتصوّف الأندلسي الكبير ابن عربي، الذي تنسجم عقيدته في «وحدة الوجود» مع التعاليم الروحية المبنية في السافيدا، والدأوبينشادا، وقد بلغ التناغم الديني الإسلامي - الهندوسي قمته إبّان حكم أكبر الأول (1556-1605)، الذي كان من أتباع الطريقة الشكّتية، ومن منشئي «الدين الإلهي»، وهو بدعة دينية ملوكية يحتلّ أكبر مركز القلب فيها، جامعاً في شخصه بين دور المعلم الصوفي ودور الملك الفيلسوف.

غير أنه جاء وقت صارت فيه هذه الممارسات، التي ينظر إليها العلماء على أنها توفيقية أو وثنية، هدفاً للهجوم من جانب حركات إصلاحية تستلهم تعاليم أكثر تشدّداً وسلفية منشؤها مراكز الإسلام لناعية الغرب. وقد تزعم هذا الاتجاه الشيخ أحمد سيرهندي (1564-1624)، ومشايعه شاه وليّ الله (1702-1763). واتخذت ردة الفعل هذه شكلها العمومي بداية مع حفيد أكبر الأول، أورانجزيب، الذي أبطل سياسة الوفاق مع الهندوس. بل إنه فرض الجزية على رعاياه من غير المسلمين، وأمر بهدم المعابد الهندوسية، وأنشأ معاهد إسلامية لتدريس الشريعة، كما حظر الموسيقى في القصر، وقد ساعدت التيارات الإصلاحية على حفظ هوية إسلامية متميّزة طوال قرن من الانتطاط المغولي، حين أضحت بريطانيا القوة

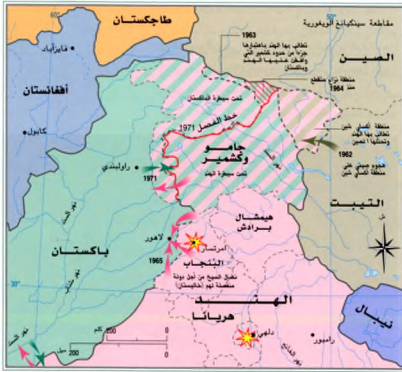


التنوع، وقد نصَّ قانون المجالس الهندية لعام 1909 على وجود جمهوريين للناخبين على المستوى المحلي، واحد هندي مسلم، وآخر مسلم، مُرسِّخاً بذلك الهوية الانفصالية للمسلمين على الصعيدين القضائي والسياسي. ومن هنا، كانت نظرية «الأمثيين» القائلة إن المسلمين والهندوس يشكلون أمثيين متميزتين ومنفصلتين، وخطوة صغيرة لكن حتمية. والمنطق عينه قضى بأن يكون لمسلمي الهند حقٌّ في وطنٍ خاص بهم. ولذلك قامت دولة باكستان، التي أعلنت يوم

بذلك التمايز الاجتماعي للمجاليات الإسلامية. كتب العالم الديوباندي البارز مولانا أشرف علي الثنوي يقول: «إن استحسان تقاليد الكفار وإعلاء شأنها إنمٌ كبير». وقد شجّع البريطانيون هذا التوجّه المحبذ للانفصال بين المسلمين، وحرصوا على توكيد أهمية الروابط الدينية وألويتها على الانتماءات العائلية والنسبية واللغوية والطائفية والمناطقية، أو حتى الطبقية، بين شتّى مكُونات المجتمع الهندي الشديد







موقع يعود إلى معبد إله الأبطال رامنا، وأقدم المتعصبين الهندوس على هدمه عام 1991، ما برح مثار تنازع وخصاص شديدين بين الهندوس والمسلمين في الهند. وخلال الاضطرابات الطائفية التي أعقبت هدم المسجد، قُتل آلاف المسلمين. ثم عادت وتكررت القصة بصورة مأساوية عام 2003، عندما هاجم مسلمون في قوجرات حجاجاً هنوداً كانوا عائدتين من أيوديا، مما تسبب باندلاع نزاع طائفي واسع النطاق في المنطقة.

تاج محل في أغرا بالهند (اكتمل بناؤه عام 1653)، يُعتبر تاج محل واحداً من أشهر الصروح المعمارية في العالم قاطبة، وهو بمثابة الرمز الحاكم للحكم المغولي في الهند. بنىه الأميراطور شاه جهان تخليداً لذكري زوجته ممتاز محل. وشاه جهان الذي خلع عن العرش على يد ابنه أورنجزيب، مدفون فيه هو الآخر.



أعطيت الهند استقلالها عام 1947، من تشكيلة متباينة ومتفاوتة من التجمعات السكانية المسلمة المتواجدة في السند، وبلوشستان، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، والنصف الغربي من البنجاب، وشطر من البنغال؛ وهذا الأخير منطقة إسلامية بالأساس، ويقع على بُعد ألف ميل أو أكثر إلى الشرق، وتفصله عن سائر المناطق الباكستانية أراضي الهند. في باكستان الغربية، أكثر من نصف سكانها كانوا من أهالي البنجاب، وزهاء 20 بالمئة من أهالي السند، و13 بالمئة من البشتون، و3-4 بالمئة من البلوش، والبقية من «المهاجرين»، أي النازحين من الهند، دع عنك أقليةتين صغيرتين، إحداهما هندوسية والأخرى مسيحية. وقد نجم عن تبادل السكان الذي تلا التقسيم، حمام دم مروّع قتل فيه مئات الألوف في أعمال شغب طائفية وعرقية، وتسبب النزاع العالق حول كشمير، التي اختار حاكمها الهندوسي الانضمام إلى الاتحاد الهندي خلافاً لرغبة السكان المسلمين، في نشوب ثلاث حروب بين الهند وباكستان في الأعوام 1949 و1965 و1971، ناهيك عن حلقة لا تنتهي من التمرد والقمع. هذا وقد تجلّت هشاشة باكستان السياسية في تناوب سلسلة متعاقبة من الحكومات العسكرية مع فترات من الحكم الديمقراطي المتقلقل تتولاها أحزاب متهمّة بالفساد وفقدان الشرعية الإسلامية. وفي النهاية، تبين أن الجيش، الذي تُمنسك بزمامه طبقة من الضباط البُنجانين المدربين على أيدي البريطانيين، هو المؤسسة الوحيدة القمينة بالحفاظ على وحدة البلاد. في عام 1971، وبمساعدة عسكرية من الهند، انفصلت باكستان الشرقية عن نظيرتها الغربية لتشكّل دولة بنغلاديش الإسلامية المستقلة. والعلاقة القائمة على المناكفة والمشاكسة بين الهند وباكستان، وكليهما الآن دولتان توينتان، ما برحت تنتظر التصوية والحدّ إن تآكل الثقافة العلمانية في الهند من جراء الانبعاث السياسي الهندوسي والرّماب الرسمي من الإسلام الذي تتسامح به من وقت لآخر بعض الولايات، وبالأخص ولاية قوجرات، قد جعل وضعها الأقلية المسلمة المتبقية في الهند - ويبلغ تعدادها زهاء 120 مليون نسمة، أي حوالي 10 بالمئة من مجموع السكان - وضعية شديدة العطب أكثر من أي وقت مضى منذ التقسيم. إلى الآن، والوعي الشعبي الهندي لم يستوعب تماماً الإرث الثقيل للفتوحات الإسلامية. ومصادق كلامنا أن مسجداً في أيوديا، يُقال إن بابر بناه في

## التوسُّع الروسي في ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى

التتار، ففي خمسينيات القرن السادس عشر، تأتي لموسكو أن تستوعب دولتي قازان وأستراخان الإسلاميتين المتمتعين بالحكم الذاتي، الأمر الذي منحها السيطرة على حوض الغولغا والسواحل الشمالية لبحر قزوين، وفتح أمامها السبيل إلى اكتساح السهوب الكازاخية. كان الكازاخيون قد خرجوا من اتحاد القبائل التركية - المغولية الذي أوجد الدولة التيمورية والدول اللاحقة، ويقي «القازاق» (أي الطوائف بحرية) سادة للسهوب. فأقام الروس سلسلة من الحصون ما بين نهري أورال وإرطيش. وهكذا تستنى لهم أن يخضعوا المنطقة بكاملها للسيطرة الروسية؛ ومن أبرز معالم هذه العملية، إلغاء خانات الكازاخيين في عشرينيات القرن التاسع عشر، إلا أن المقاومة الكازاخية المدفوعة إسلامياً سوف تتواصل حتى العقد السادس من القرن عينه.

اتسم الحكم الروسي للسكان المسلمين في مراحله الأولى بمنتهى القسوة والبطش. فقد تعرّضت طبقة الأشراف الثرية للتخصير القسري، وطُردت من المدن المهمة، وسُمت أراضيها إلى النبلاء الروس والأديرة الروسية، الذين قاموا على استغلالها بواسطة الأقتان والرهبان الأرثوذكس. وقد جرى تلطيف هذه السياسة شيئاً ما في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (الكبيرة)، التي نظرت إلى الإسلام على أنه ذو أثر تمدني أكبر من المسيحية. فكفلت للمسلمين حريةهم الدينية، وشيّدت المساجد برعاية الدولة، وأنشئت المؤسسات التي تتمتع بسلطات واسعة على السكان المسلمين. غير أن هذا الوضع ما كان ليديم طويلاً. ففي شبه جزيرة القرم، التي انتزعتها روسيا من قبضة العثمانيين في العام 1783، وضع الروس أيديهم على أراضي التتار وصادروا الأوقاف لصالح المستوطنين الأوروبيين. وإلى مسافة أبعد شرقاً، سقطت الشعوب الرعوية بالأساس في آسيا الداخلية فريسة الأطماع الاستعمارية للجنرالات الروس ورغبة القياصرة في تأمين المصالح التجارية مع إيران والهند والصين، درءاً لأي تنافس بريطاني محتمل. احتكك طشقند عام

إن التوسُّع الروسي في بلاد ما وراء النهر والقوقاز، هذا الذي سيبلغ ذروته بإدماج ما يربو على خمسين مليون مسلم ضمن الاتحاد السوفييتي، إنما بدأ أول الأمر في القرن الخامس عشر حين تخلص حكام موسكو من نير



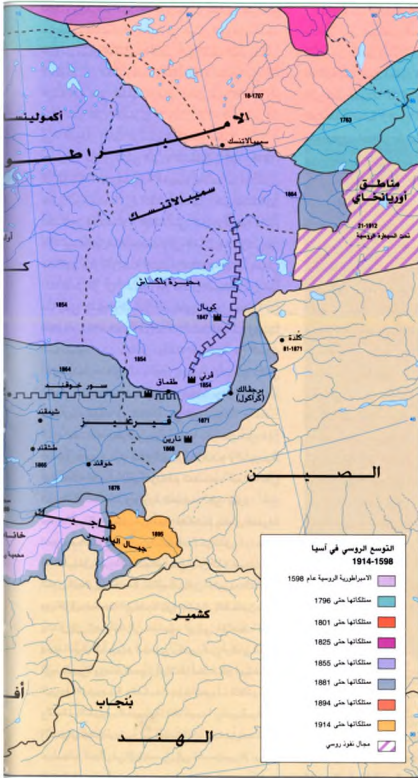
رسم بصور الإمام شامل الداغستاني (حوالي 1797-1871) ممثلًا صورة جواده؛ من محفورة روسية تعود إلى العام 1850. حاض شامل غمار حربي بطولية ضد الروس ما بين عامي 1834 و 1859، مشمولاً برعاية حميه الروسي، شيخ الطريقة النقشبندية. صحیح أنه هُزم في نهاية المطاف ونفي خارج بلاده، إلا أن ذكره بقيت حيّة في داغستان والشيشان، لتلب العواطف وتثير سلسلة لا تنقطع من الثورات ضد روسيا وضد السوفييت حتى يومنا هذا.

لقد جرى التصدي لأية إمكانية بقيام تضامن سياسي بين المسلمين السوفيت باتتبع سياسة «فرق تسد» عن سابق تصور وتصميم. ودول آسيا الوسطى الحالية إنما تدين بحدودها الإقليمية لستالين؛ فقد ردّ على خطر القومية التركية الشاملة والقومية الإسلامية الجامعة بتقسيم أراضي تركستان الروسية إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجكستان، وقسم وادي فرغانة المزدهر، الواقع في قلب المنطقة والذي طالما شكّل وحدة اقتصادية واحدة، ما بين الأوزبك والطاجيك والقرغيزين. وقد استلزمت السياسة التي انتهجها ستالين أن يُصار إلى التشديد على الفوارق الطفيفة في اللغة والتاريخ والثقافة بين هذه الشعوب التركية في غالبيتها، وذلك بغية الوفاء بالمعيار اللينيني للقومية الذي بنصّ على وجوب أن تكون هناك لغة واحدة، وأرض موحدة، وحياة اقتصادية وثقافية مشتركة. وعلاوة على الترتيبات الجديدة المتخذة في تقسيم الأراضي بين الجمهوريات، جاء تطبيق مبادئ الجماعة والزراعة الأحادية ليقيد حركتها إلى أبعد الحدود. فبمقتضى مخطط خروتشيف الخاص بالأراضي البكر، جرى تخصيص مساحات شاسعة من كازاخستان لإنتاج الحبوب. وحين قاوم الكازاخيون - وغالبيتهم من الرعاة - هذا المشروع، جيء بالسلافيين وأقوام أخرى للقيام بالعمل. وفي أوزبكستان، أصبحت حصة القطن من إجمالي الناتج المحلي أكثر من 60 بالمئة، وهذا ما خدم مصالح النخب الحزبية الحاكمة، التي صار بعض من أفرادها ضالعين في عمليات احتيال ضخمة أساسها التزوير المتعمد والمنظم لأرقام الإنتاج. كما ترك ذلك ذبولاً بيئية وخيمة لأنه حرم المحاصيل غير القطنية من مياه الري، وجفف الأنهار والبحيرات، بما فيها بحيرة آرال.

وبداعي الارتياح بولاء المسلمين خلال الحرب العالمية الثانية، لأن البعض منهم أبدى تعاوناً مع الألمان، قام ستالين بترحيل سكان الشيشان وأنغوشيا عن بكرة أبيهم، ومعهم جميع التتار القاطنين في القرم، إلى آسيا الوسطى.

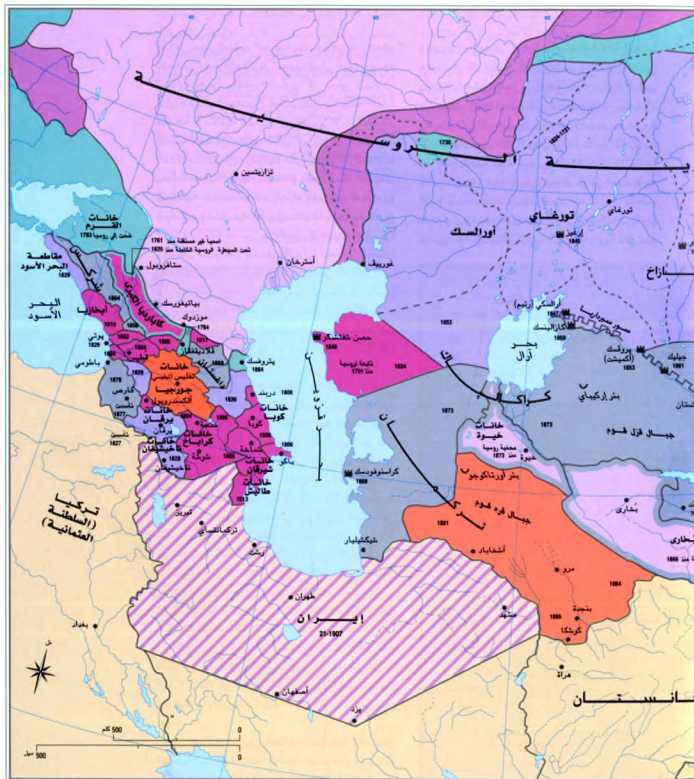
1865، وسمرقند عام 1868، وأجبرت بخارى على فتح حدودها للتجار الروس. وفي شمال القوقاز، أخذ الروس نيران المقاومة التي ألهبتها الطريقتان الصوفيتان النقشبندية والقادرية، فأطاحوا بالدولة الإسلامية التي أعلنها الإمام شامل عام 1859. ولم يزرغ فجر القرن العشرين إلا وكان الفتح القيصري لما وراء القوقاز وآسيا الوسطى قد اكتمل عملياً.

وبدلاً من أن تؤدي الثورة البلشفية (1917-1918) إلى تفكيك الإمبراطورية القيصريّة، عملت بالأحرى على توطينها وزيادة تماسكها. وأثر المثقون المناوون بالإصلاح الإسلامي، الذين عرفوا باسم «التجديديين»، الانضمام إلى الحزب الشيوعي في نضالهم ضد المؤسسة الدينية المحافظة، يحدوهم في ذلك الأمل في أن يتمكنوا من تعديل السياسة الروسية بما يلبي حاجات السكّان المسلمين، وبلورة صيغة من القومية الإسلامية من خلال التحالف مع روسيا السوفييتية. لكن ستالين ودعاة المركزية في الحزب أحبطوا مساعدهم هذا بتنازلاتهم ومكائدهم. فألقي القبض على الشخصية البارزة بينهم، وهو مير سعيد سلطان غالييف (م 1880)، في العام 1928 واختفت آثاره بعد ذلك بفترة وجيزة. مهما يكن من أمر، فإن الشعور بوجود قيم مشتركة بين الإسلام والشوعية، كالعادلة الاجتماعية، وتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وأولوية المجتمع على الفرد... الخ، حدت بهم إلى العمل من أجل قضيتهم ضمن صفوف الحزب باتتبع أسلوب «التقية». لكن سرعان ما تمّ الانقضاض على الإسلام الرسمي إبّان الثلاثينيات من القرن العشرين عندما أطلق ستالين «ثورته الثانية» من فوق. فسُلمت المساجد إلى «اتحاد المحدثين» كي يُصار إلى تحويلها إلى متاحف أو إلى مقاصف للهو، فيما طال التحريم الفعلي ركّنين من أركان الدين الإسلامي، وهما: الحجّ والزكاة. أما حظر استعمال الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، ولاحقاً بالحروف السيريلية، فقد ضمنا صعوبة وصول الأجيال السوفييتية في المستقبل، قياساً بما كانت عليه الحال في الماضي، إلى نصوص الإسلام المتعارف عليها.



لا شك في أن منافع كثيرة نجمت عن التصنيع والقضاء التام على الأمية إلا أن تدهور القوة السوفيتية بعد الجهاد الذي جوبهت به في أفغانستان، تلازم لا محالة مع انبثاق للأفكار غير الشيوعية، من قبيل النزعات القومية المحلية، والوحدة التركية الشاملة، وأشكال شتى من الإسلام المناضل. لكن هذه الطفرة من النشاط الإسلامي في الفترة التالية لعام 1989، وبعد نصف قرن من الكبت أو يزيد، ربما تعزى جزئياً إلى التقاليد الصوفية الخفية. وحيث إن هذه التقاليد نشأت في آسيا الوسطى أساساً، فقد احتفظت بجذور لها هناك، وتمكّنت الطريقة النقشبندية بالأخص من البقاء حية بالرغم من كل ما تعرّضت له من حملات اضطهاد وملاحقة، إذ إن طقوسها «الصامته» أتاحت عقد الاجتماعات تحت مسميات أخرى. أضف إلى ذلك أن شبكات الأسر القديمة، القائمة على عصبية المجموعات القرابية الممتدة، لم تندثر بل بالعكس ازدهرت من خلال الإمساك المحكم بالمؤسسات الشيوعية. وفي الشيشان حيث خاضت روسيا حربيين وحشيتين في الأعوام 1994-1996 و1999-2002، بهدف قطع دابر الحركات الاستقلالية المحلية، أرى أن في بقاء الشبكات والولاءات الصوفية بعد سبعة عقود من الحكم السوفيتي تفسيراً للنشاط المناهض للروس أكثر إقناعاً من كل ما قيل ويُقال في الكرملين عن المقاتلين الإسلاميين أو «الوهابيين» الذين يؤمنون من الخارج.

الحاصل في آسيا الوسطى اليوم، أنه بالرغم من التراجع الروسي، وخيبة الأمل العامة بالحكم السوفيتي، وانهيار الاقتصادات المحلية، استطاعت الفئات المتنمّنة الشيوعية القديمة، الطفيلية والمستأثرة بالامتيازات، من التشبث بالسلطة تحت يافطة جديدة، يافطة ديمقراطية مزعومة تخفي حقيقة حكمها الديكتاتوري والبيروقراطي.



## انتشار الإسلام في جنوب شرقي آسيا ن 1500 - 1800

فالبريطانية، وأخيراً تفاوتت درجات المقاومة الناشئة عنها... إن كل ذلك قد أنتج أساليب إسلامية متغايرة وأحياناً متناقضة في أرجاء شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي. ثمة قاسم مشترك بينها، ألا وهو غزارة الأمطار الهاطلة وخصوبة التربة الاستوائية، جعل تلك الأرض أرضاً عالية الإنتاجية، مما فتح شهية المستعمرين على المحاصيل النقدية كالبنِّ ولاحقاً المطاط. في جنوب شرقي آسيا، واجه الإسلام مجتمعات من المزارعين المستقرين، وأنظمة حكم عتيقة يتناقض تدرجها في المكان على نحو صارخ مع انسيابية وحراكية الأقوام الرعية التي تسم

كما في سائر المناطق الطرفية بالنسبة إلى قلب العالم الإسلامي، قدم الإسلام إلى جنوب شرقي آسيا بواسطة التجارة وليس بالفتح العسكري. في بعض الحالات، كان التجار المسلمون، المستوطنون بالهالة الألفة للثقافة الإسلامية العالية، يُصاهرون الأسر الحاكمة المحليّة، فيغدقون عليها المال، ويؤدونها بالمهارات الدبلوماسية، ويعرفونها على العالم الأرحب. وقد سهّلت عملية اعتناق الإسلام على زعماء المناطق الساحلية مقاومة سلطة الأُمراء الهنودوس المُحكّمين قبضتهم على أواسط جاوه. كما استطاع مشايخ الصوفية، القادمون من الجزيرة العربية والهند، والبعض منهم كان يتعاطى التجارة أيضاً، أن يبسطوا التعاليم الإسلامية على نحو يتسنى معه لمن نشأ وترعرع على التعاليم الهندوسية أن يفهمها ويقنع بها. وطردياً مع توسّع نطاق التجارة، أتاح اعتناق الإسلام للجاليات الصغيرة أن تصبح جزءاً من مجتمعات أكبر، وهذا ما انعكس بدوره إيجاباً على تطوّر التجارة أكثر فأكثر.

غير أن تنامي الإسلام على هذا النسق السلمي والعضوي إلى حد بعيد، اختلَّ وإن لم يتراجع بظهور البرتغاليين، الذين فرضوا أنفسهم قوة بحرية كبرى اعتباراً من القرن السادس عشر فبعد استيلائهم على غوا عام 1509، اكتسحوا ملقا في شبه جزيرة الملايو عام 1511. ومن المفارقة بمكان، أن ذلك الاحتلال ساعد في انتشار الإسلام لا العكس، بدفعه المعلمين والدعاة المسلمين إلى التقاطر على قصور الحكام في أنشيه وجاوه، التي غدت بمثابة مراكز لمقاومة البرتغاليين. كما أن ظهور الهولنديين، الذين أسسوا باتافيا (جاكارتا الحالية) عام 1619، بحثاً عن الفلفل وكيش القرغل وجوزة الطيب، وإن عقّد المشهد بعض الشيء، إلا أنه لم يحل دون انتشار الإسلام أو يقلل من جاذبيته في المنطقة. لا بل إن الصراع مع الهولنديين والبرتغاليين، جنباً إلى جنب مع استمرار التوسّع التجاري، كانت له نتائج عكسية. إذ حمل في طياته اتصالات بالأمبراطورية العثمانية، ودفقاً من الفقهاء والمتصوفة، آتين من الهند المغولية، ولأسيما على آتشيه.

إن الفوارق ما بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية، وتركة الأنظمة الملكية الهندوسية والبوذية، والمؤثرات المتباينة للسيطرة البرتغالية فالهولندية



القول، بوجه عام، أن التراث الإسلامي في أندونيسيا متبلور في تيارين عريضين: التيار «الأينغاني» الريفي، الذي يتيح قدراً من التسامح مع الأعراف المتضاربة وأحكام الشريعة الإسلامية، كأنماط التورث الأمومية الطابع مثلاً؛ والتيار «السانتري» الأكثر تزمناً للقائم في المدن. هذا ولئن كان الإسلاميون المحدثون في ماليزيا وإندونيسيا يُعارضون على العموم التعددية والتمازج الثقافي، إلا أن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهي أن كلا البلدين قد عرفا الثورة الصناعية التي وضعتهما في موقع متقدم بأشواط بعيدة على إيران وباكستان والبلدان العربية – الإسلامية من حيث التنمية الاقتصادية على الأقل.

التاريخ الإسلامي في آسيا الوسطى والغربية في بعض الحالات، كانت موجات المد الإسلامي الآتية من الهند أو الجزيرة العربية تخلف وراءها بقية من طقوسيات وعبادات تدخل فيها تقاليد أقدم زمنياً. في جواره على سبيل المثال، كان القرويون يصفون أنفسهم بالمسلمين، لكن ثقافتهم الفعلية كانت خليطاً من العناصر الإسلامية والهندوسية والإرواحية. وفي أماكن أخرى، كما في مينانغو مثلاً، حدث بعد فترة من الانتعاش الاقتصادي في القرن الثاني عشر، أن سيطرت تيارات إصلاحية تدعو إلى المزيد من التمسك بالشريعة الإسلامية، نجت عنها مشاحنات ومنازعات اجتماعية انتهت بتوسط الهولنديين فيها ومن ثم وضع يدهم على المنطقة (1839-1845). يمكن



## الأمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والروسية

كانت التجربة الجديدة سريعة بصورة استثنائية. إذ لم يحل عام 1920، حتى كانت القوى الأوروبية قد طوّقت كوكب الأرض عملياً من أقصاه إلى أقصاه، فيما خلا تلك المناطق التي عُدَّتْ غير مأهولة، أو فقيرة، أو نائية أكثر من اللازم بحيث لا تستأهل إدراجها ضمن المآرب الامبريالية.

وقف قادة المسلمون، ورحيبيّن وزمّنين على السواء، في صدارة الصفوف المُقاومة للاحتساح الأوروبي للعالم. ففي جاوه، تزعّم الأمير ديبانغارا، وكان ينتمي إلى إحدى الأسر الحاكمة التي استكانت للنفوذ الهولندي وأذعنّت لضغوط المزارعين الأوروبيين، ثورة ضمّت فلاحين مهجرّين وزعماء دينيين دامت من عام 1825 إلى عام 1830. وفي البنغال، حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تتعاطى التجارة منذ أوائل القرن السابع عشر، فتحت الهزيمة التي نزلت بحاكم محليّ، هو نواب سراج الدولة، حاول تحجيم الشركة المذكورة، في معركة بلاسيّ عام 1757، الباب واسعاً للغزو البريطاني. وإثر هزيمة أخرى في بوكسار عام 1764، انتقلت المقاومة الإسلامية إلى مملكة ميسور الهندوسية سابقاً، المترامية الأطراف، حيث نظّم حيدر علي، وهو جندي من البنجاب، قوة مقاتلة منضبطة على النسق الأوروبي بمساعدة فرنسية، وقد تمكن ابنه ووريثه، تيبو سلطان (1750-1799) من إحراز انتصار باهر على الجيش البريطاني في معركة كونيغرام، بالقرب من مدراس، قبل أن يلقى حتفه في آخر المطاف عام 1799 في سرينغابام، وهي المعركة التي أنهت فعلياً كل مقاومة للحكم البريطاني في جنوب الهند. وبعد ذلك انتقل مسرح المقاومة إلى منطقة الحدود الشمالية الغربية، أو إلى داخل صفوف الجيش الهندي ذي القيادة البريطانية. ففي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر، حاول سيد أحمد بارلوي (1786-1831)، الواعظ والمبشّر بالتعاليم النقشبندية الإصلاحية، وكان أمضى قرابة ثلاث سنوات في مكّة، أن يعيىء البشتون «اليوسفزاي» في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية كجزء من حملة أوسع نطاقاً لإصلاح الإسلام الهندي لكن هدفه المتمثّل بإقامة دولة إسلامية على

إنّ الزيادة الهائلة في قُدرة واقتدار البلدان الأوروبية التي أخذت تتم لها الغلبة على العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر، إنما تعود بأسبابها إلى الثورة العلمية التي شهدتها القرن السابع عشر، وإلى الثورة الصناعية المتولّدة عنها. قبل منتصف القرن السابع عشر، كانت الحضارتان الغربية والإسلامية على قدم المساواة نسبياً، عسكرياً واقتصادياً. لكن بحلول العام 1800، كان الميزان قد مال على نحو حاسم ودائم لصالح ما صار يُنظر إليه على أنّه «الغرب». إن حملة نابليون المشوّمّة على مصر، لم يُوقفها المماليك الجدد الذين أذاقهم طعم الهزيمة في معركة الإهرامات، بل أنهاسها الأميرال البريطاني تلسون، الذي حطّم الأسطول الفرنسي في خليج أبو قير. ومنذ ذلك فمصادعاً، سيكون التنافس، العسكري والاقتصادي، بين دول أوروبا نفسها، وليس النزاع بين العالم الإسلامي والغرب، هو من سيُقرّر الأجدنة التاريخية للشعوب المسلمة.

عديداً هي التفسيرات التي سبقت للأسباب الكامنة وراء ذلك التعاطف التصاعدي في قوة أوروبا ومنعّتها. وهي تتراوح ما بين روح الرأسمالية المتأثّرة عن الإصلاح الديني البروتستانتي، إلى المطالبة عن غير انتظار للثروات المجلوبة من الأميركيتين، إلى المنهجية الجزئية في إخضاع كل شيء دونما استثناء للمساءلة، تلك التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، السلف الأكبر للثورة العلمية. وأياً تكن الأسباب، فإن النتائج كانت بعيدة الأثر حقاً، وغير قابلة للرجعة. فقد راحت الرساميل الأوروبية تُستثمر بانتظام، والرمرة تلو الأخرى، في تمويل الابتكارات والتجديدات التقنية في طُرُق الإنتاج الصناعية، كغزل القطن مثلاً، التي من شأنها أن تقضي بالمنافسة على طُرُق الإنتاج التقليدية. هذا بينما نُشرت القوة العسكرية الأوروبية، المستفيدة من التحسينات التقنية المتواصلة، لحماية الأسواق المعدّة لتصريف المنتجات المصنّعة وتوسيعها بكل السبل الممكنة، الأمر الذي أفضى إلى انهيار الاقتصادات المحلية، وتداعي قُدرة البلدان غير الأوروبية على المقاومة. ومن منظور التجارب السابقة، تجربة الدويلات الصليبية مثلاً، وتجربة فقدان الأندلس تدريجياً لصالح المسيحيين،



من جهة أخرى، واجه البريطانيون والفرنسيون بدورهم حركات مقاومة مشابهة في جميع أرجاء إفريقيا المسلمة. فقد قاد الأمير عبد القادر، أحد مشايخ الطريقة القادرية، المقاومة ضد الحكم الفرنسي بعد استيلائه على الجزائر في العام 1830. وليس ذلك فحسب، بل إنه أقام دولة إسلامية في غرب الصحراء الكبرى، وقد دامت حتى عام 1847، حين تغلب الفرنسيون عليها آخر الأمر، وأرسلوا عبد القادر إلى المنفى. وفي العام 1881، أعلن محمد أحمد، وهو من مشايخ الفرقة السنانية من الطريقة الصوفية الخلواتية، أنه المهدي المنتظر في منطقة أعالي النيل،

تراب حُرٍّ من كل سيطرة بريطانية، أجهض على أيدي الشيخ الذين هزموه في موقعة بالاكوت عام 1831. بيد أن منطقة الحدود الشمالية الغربية بقيت بؤرة لمقاومة الحكم البريطاني زمنًا طويلًا بعد رحيل بارلوي. فما بين عامي 1847 و1908، اندلع ما لا يقل عن 60 تمرداً ضد البريطانيين، والكثير منها كان ذا تبرة «ألفية» واضحة، وجميعها تقريباً اكتسبت شرعية دينية بوصفها جهاداً ضد حكم الكفار.

إن العديد من هذه الحركات المناهضة للإمبريالية الأوروبية قادها رجالٌ نشأوا وتمرسوا ضمن قواعد سلوك الطُرُق الصوفية وتراتبيتها الهرمية. ففي



وشرَّ جهاداً ضد الحكومة المصرية ومن يدعمها من الأجنبي، بعدما دأبت على التغلغل في المنطقة بإمرة ضباط عسكريين أوروبيين. هذا وقد لقيت الهزيمة التي حلت بخليفة المهدي في أم درمان عام 1898، تهليلاً وترحيباً من ونستون تشرشل، الذي شهد المعركة، بوصفها «أروع انتصار يُحرَّجه في أيما وقت سلاح العلم على البرابرة». «وسلاح العلم» في تلك المناسبة كان المدافع الرشاشة البريطانية. لقد كانت هذه أسلحة مألوفة استُخدمت في الحملات التأديبية الصغيرة في معظم أنحاء إفريقيا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنها استعملت هنا ولأول مرة ضد جيش يربو على خمسين ألف رجل.

القوقاز، مثلاً، خاض الإمام شامل، وكان من زعماء الطريقة النقشبندية، نصلاً مسلحاً ضد التغلغل الروسي في بلاده دام من عام 1834 إلى عام 1839. وإذا كانت الدولة الإسلامية التي أقامها شامل قد ضُمت في النهاية إلى حظيرة الأمبراطورية القيصرية، فإن ذكرها بقيت حيَّة في وجدان أعالي داغستان والشيشان، الذين قاموا بثورات متعاقبة ضد الروس في الأعوام 1863، 1877، 1917-1919، وكذلك إبَّان الحرب العالمية الثانية، ثم ضد إدارتي بويرس يلتسين وفلاديمير بوتين ما بعد الحقبة الشيوعية. وفي ولاية برقة، أضحت الطريقة السنوسية التي قبلت سلطان العثمانيين، مصدراً للمقاومة المنظمة عقب الغزو الإيطالي لليبيا عام 1911.

## الحركات الإصلاحية في القرن التاسع عشر

أريد للإسلام أن يحيا ويزهدهر في أحوال عصرنا هذا، فعلى المسلمين لزماً أن يعتقدوا العلم الحديث ويأخذوا بأسباب التعليم العصري. وهكذا، أسس السير سيد أحمد خان (1817-1898) جامعة في عليكرة، الغرض منها بناء جيل عصري من الموظفين والحقامين والصحافيين المسلمين - ومن هؤلاء من سيتزعم عندما يحين الوقت الحركة الباكستانية. وثمة مجموعة أكثر محافظة من العلماء الهنود أنشأت أكاديمية في ديوباند عام 1867، جمعت ما بين تدريس العلوم الدينية من قرآن وحديث نبوي وشريعة إسلامية، والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والعلوم. وقد استطاع الديوبانديون هؤلاء من الوصول إلى كل ركن وزاوية من الهند الإسلامية، عن طريق الإفادة من شبكة السكك الحديدية الوليدة لتوزيع المطبوعات باللغة الأوردية. وهذا ما جعل من ديوباند مركزاً لمنهج جديد من الوعي الإسلامي الذي سرعان ما امتد إلى سائر البلدان، مع تقاطر العديد من الطلاب عليها آتين من أفغانستان وأسيا الوسطى واليمن، وحتى من الجزيرة العربية. وفي عام 1827، قام أحد خريجي أكاديمية ديوباند، ويدعى مولانا محمد إلياس، بتأسيس «جماعة التبليغ» الإصلاحية. أريد من الجماعة في الأصل أن تدلي بسهمها في هداية المواطنين، وهم جالية فلاحية تقطن بالقرب من دلهي، إلى شريعة إسلامية شديدة التزمّت تجمع ما بين الالتزام بالشريعة والتعامل الصوفي في روح النبي محمد كما تمارسه الطريقة الششئية التي ينتسب إليها إلياس نفسه. وتعتبر «جماعة التبليغ» التي تتحاشى رسمياً التعاطي بأمور السياسة، واحدة من أسرع الحركات الإسلامية نمواً في العالم، حيث تتواجد لها فروع في أكثر من تسعين بلداً. ولعلّ أوسع المصلحين نفوذاً وأعظمهم تأثيراً في مصر، هو الشيخ محمد عبده (1849-1905)، الذي كان في الأصل من أتباع داعية الوحدة الإسلامية الجامعة المعادي لبريطانيا، السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897). لقد رافق عبده الأفغاني إلى منفاه في باريس بعد الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصدرها سوية مجلة «الغروة الوثقى» باللغة العربية، التي وإن لم تعمّر طويلاً إلا أنها كانت ذات نفوذ لا يُنكر. في عام 1885، تحلّل عبده من عداء مرشده للأمبريالية، وقرّر لدى عودته إلى مصر عن طريق سورية، العمل على

كان لحركات التجديد، أو الإصلاح، التي هيمنت على الفكر الإسلامي والممارسة الإسلامية منذ القرن الثامن عشر، بعنان: داخلي وخارجي. داخلياً، إن مثال النبي محمد في مهاجمة عبدة الأوثان في مكة باسم دين التوحيد «الأصلي» الذي علّمه الله لآدم، ومن ثم لإبراهيم وإسماعيل، وما تلا ذلك من هجرته إلى المدينة وبنائه مجتمعاً جديداً، وتطهيره مكة من كل مظاهر الكفر والشرك بعيد عودته مظفراً إليها، يُعدّ بحد ذاته نموذجاً إرشادياً وإطاراً مرجعياً للإصلاح الديني المنشود. وقد رأينا، على امتداد التاريخ الإسلامي، أناساً يتصفون بالعلم والصلاح يتبنون هذا المعطّط النبوي، فيتصدّون لحكام فاسدين أو مستبدولونهم باسم العودة إلى الإسلام الحقّ، إسلام محمد وأبناء جيله. لقد ظهرت العديد من هذه الحركات في بحر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: بعضها كان بمثابة ردة فعل دينية على ممارسات محلية، من قبيل عادة زيارة أضرحة الألياء ومشايخ الصوفية التي أثارها الوهابيون العرب؛ وثمة غيرها، كالحركات التي أثارها أتباع إمام غامبيا في غرب إفريقيا، اشتملت على مقاومة محلية ضد الشّعب السياسية غير المسلمة. فيما كانت الكثرة منها، كالحركات الجهادية في منطقة الحدود الشمالية الغربية للهند أو المهديّة في السودان النيلي، مجرد ردة فعل ضد التغلغل الأوروبي.

بيد أن معظم الحركات النضالية للمقاومة والإصلاح أبصرت النور بين أقوام قبلية تعيش على أطراف العالم الإسلامي، وحتى لو كان على رأسها رجال علم من أمثال المهدي محمد أحمد أو عثمان دان فوديو، ما كان ليكتب لها النجاح ما لم تستند قوة عسكرية - قبلية. وما إن اتضح أن الطول العسكرية مألها الفشل بسبب القدرة الكاسحة التي يتمتع بها الغرب، حتى بدأ المفكّرون المسلمون بمقاربة السيناريو الإصلاحي بطريقة عقلانية. ففيما كانت الحركات ذات القاعدة القبلية تُهيّز ما بين الممارسات الدينية السلمية والبدع غير المقبولة بالمرّة، كان المصلحون العقلانيون يعملون على تجديد الإسلام من خلال التمييز بين «أصول» الإسلام التي لا تقتدر بزمن معين وقابلة للتكيف في كل آن، وبين «الفروع» التي تنطبق على ظروف بعينها. لقد أدرك المصلحون جميعاً أنه إذا



قاطرة بخارية تجر وراءها عربات  
القطار المكثفة بالركاب على سكة  
دارجلينغ الضيقة (حوالى العام  
1900). استغلت حركة ديوباندي  
الإصلاحية شبكة السكك الحديدية  
لنشر أدبيات الإسلام في أرجاء  
الهند، مما عزز شعور المسلمين  
بكونهم جالية متميزة في الهند.

هذا المصلح الكبير من خلال أحكامه الشرعية وكتابات ومحاضراته، وبعد وفاته من خلال دورية «النار» لنشرها مريد السورى محمد رشيد رضا، المنتمى إلى الطريقة النقشبندية الإصلاحية، التي استمرت في الصدور من عام 1897 إلى عام 1935. إن تأثير محمد عبده كمدجّد للإسلام الحديث، لا يُمكن الاستهانة به على الإطلاق. لنأخذ على سبيل المثال، حركة «المحمدية» التبشيرية التي تأسست على يد أحمد دحلان وتتخذ من جاوه في جنوب شرقي آسيا قاعدة لها، والتي تضم حالياً ملايين المنتسبين من كلا الجنسين؛ إنها تدين بالكثير الكثير لأفكار محمد عبده بالذات. في العالم العربي، يُعدّ دحلان، إلى جانب الأفغانى، المؤسس للحركة السلفية التي تستلهم مثال «السلف الصالح»، المتعارف عليه كلاسيكياً بأنه الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين الذين تلقوا رسالة الإسلام في سياقها الأصلي. والسلفيون المحدثون الذين يستطيعون الادّعاء بأنهم جزءٌ من تراث عبده الفكرى، يتراوحون ما بين النشطاء المكافحين لإقامة دول إسلامية حديثة بوسائل العنف إذا لزم الأمر، والقوميين العلمانيين الذين يفسرون أفكار عبده بأنها تتطلّب فصلاً تاماً بين المجالين السياسى والدينى.

وفاق مع السلطات البريطانية، التي رأى فيها قوة ضرورية لعملية التحديث. وبعدهما ترقى في مدارج القضاء ليصبح المفتى الأكبر لمصر، سعى عبده إلى تحديث الشرع الإسلامى، وإلى إدراج مواد تعليمية مثل التاريخ الحديث والجغرافيا في مناهج الأزهر. أبرز مؤسسة تعليمية للإسلام السنيّ، وقد أبدى عبده عناية استثنائية بمبدأ «المصلحة» كي يتسنى له تعديل القوانين بما يتماشى واحتياجات العصر، قائلاً بما معناه: «إذا أصبح حكمٌ من الأحكام مبعثاً لفسدة أو ضرر لم يكن له في السابق، فحقّ علينا أن نبدّله تبعاً للظروف الراهنة». آمن عبده بأنّ الوحي، إذا ما فهم على الوجه الصحيح، لا يتضارب أبداً مع العقل، لأنّ الإسلام «دين طبيعى»، خلقه الله ليلائم الشرط الإنسانى. وعلى غرار أحمد خان، سعى عبده إلى التمييز بين ما هو جوهرى وما هو غير جوهرى في الوحي، بحيث تُصان الجوانب الجوهرية، وتنبذ الجوانب التي كانت من الوجهة التاريخية عارضة أو محدّدة بزمنٍ معيّن. فعارض دونما كللٍ ما كان يرى فيها نزعةٌ مُحافظنة ضيقة الأفق لدى رجال الدين والعلماء التقليديين. ومثل أحمد خان كذلك، شدّد عبده على الحاجة الماسّة إلى تطبيقات جديدة لمبدأ الاجتهاد بما ينسجم وظروف العصر الراهن. هذا وقد انتشرت آراء

## تحديث تركيا

سانداً في فرنسا أو بروسيا ما قبل الثورة، وإصلها خلفاؤه في سلسلة من البرامج عُرفت بـ «تنظيماتي خيرية» (أي التنظيمات الميمونة) ودامت قرابة أربعة عقود من عام 1839 إلى 1876. فأدخلت بمقتضاها الخدمات البريدية والبرقية الحديثة، وكذلك السفن البخارية والسكك الحديدية، إلى جانب إصلاح النظام القضائي إصلاحاً جذرياً من خلال استحداث محاكم على النسق الغربي ونشر المدونات الحقوقية. كذلك اعتُمدت مدونة جديدة للحقوق المدنية، عُرفت بـ«المجلة»، التي وإن أخذت بأحكام الشريعة الإسلامية من حيث المضمون، إلا أنها اختلفت عن العرف المتبع بأنها كانت تطبّق من قبل محاكم الدولة.

وفي عام 1855، جرى استبدال «الجزية»، وهي الضريبة الرسمية على أتباع الأديان الأخرى، بـضريبة تُستوفى مُقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا قامت الحكومة المركزية الجديدة، التي كانت في طور التكوّن آنذاك، على قاعدة اجتماعية قوامها موظفون بيروقراطيون جُدد مدربون تدريباً مهنيّاً رفيعاً. فتمتعت الطبقة الوسطى المدنية الصغيرة بوضع اقتصادي ناهض، أتاح لها أن تتحدّى البنية السلطوية

يعود تحديث تركيا إلى قرنين من الزمن خلت، حين حاول السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807) إدخال سلسلة من الإصلاحات التعليمية والعسكرية في البلاد. وقد هدّدت مساعيه هذه بالخطر مصالح رجال الدين والإنكشارية، فأقدموا على عزله. لكن بعد هزائم متكررة مُنيت بها السلطنة في القوقاز والبونان، بذل خلفه محمود الثاني (1807-1839) جهوداً متجدّدة للإصلاح بإبنتائه مدارس جديدة ذات توجه غربي، وقضائه على الإنكشارية، وحلّه الطريقة الصوفية البكتاشية المرتبطة بهم. وقد ضعفت استقلالية العلماء كثيراً بوضع الدولة يدها على الأوقاف والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية. وحدث انفصال رمزي ما بين الدين والدولة بصدور مرسوم يحظر بموجبه اعتماد العمامة: هذه العمامة التي غالباً ما كانت علامة فارقة تدل على انتساب صاحبها إلى إحدى الطُرق الصوفية. ففيما عدا تلك التي يعتمرها العلماء الرسميون، جرى استبدال العمامة بالطربوش، تلك القبعة الأسطوانية الشكل المصنوعة من المخمل الأحمر والمستوردة من المغرب. وتطلّعات محمود إلى خلق دولة ذات حكم مطلق ومركز، على النهج الذي كان



صورة التقطت القوات البريطانية التي نزلت، سوياً مع قوات الحلفاء الأخرى، في شبه جزيرة غالابوي في ما بين 25 نيسان/أبريل 1915 و9 كانون الثاني/يناير 1916. كان الهدف من تلك الحملة تهديد إستنبول، وفتح طريق للإمدادات المرسلة إلى روسيا عبر البحر الأسود. أما القوات التركية، فكانت يومئذ بقيادة المقدم مصطفى كمال، الذي أجهض بجرأته وحيويته خطة الحلفاء. وكان لنجاحه هذا أكبر الأثر في وصوله إلى سدة الرئاسة فيما بعد.

- البalkan - 1 (1914-1918)**
- 1 تراجع روس
  - 2 هجوم ألماني
  - 3 هجوم نمساوي - مجري
  - 4 تراجع نمساوي - مجري
  - 5 هجوم نمساوي - مجري
  - 6 تراجع نمساوي - مجري
  - 7 هجوم نمساوي - مجري
  - 8 تقدم البلغاري هجوم الدفاعات
  - 9 تراجع نمساوي - مجري
  - 10 هجوم روماني
  - 11 تراجع روماني

- 1 29 تموز - 15 كانون الأول 1914  
2 15 كانون الأول 1914  
3 27 آب 1916  
4 2 تشرين الأول 1915  
5 27 آب 1916  
6 27 آب 1916  
7 1 أيلول - 15 كانون الأول 1916  
8 27 تشرين الأول 1916



- 2 - البalkan - أيلول - تشرين الثاني 1918**
- 1 خطوط حديد الخلفاء
  - 2 خطوط حديد الخلفاء
  - 3 تقدم البريطانيين وحلهم
  - 4 تقدم الفرنسيين وحلهم
  - 5 تقدم النمساويين وحلهم
  - 6 تقدم اليونانيين وحلهم
  - 7 تقدم الألمان
  - 8 تقدم الألمان
  - 9 تقدم الألمان
  - 10 تقدم الألمان
  - 11 تقدم الألمان

بموجبه إصلاحات «شيخ الإسلام» (المرجع الديني الأكبر في البلاد)، وفرض الإشراف الحكومي على المحاكم الشرعية والمعاهد الإسلامية. وعلى الرغم من التوجه القومي الذي صبغ حركة «تركيا الفتاة»، إلا أن هدفها كان الاحتفاظ بالشطر الشرقي من الأمبراطورية العثمانية. وهكذا بمساعدة ألمانيا، التي كان مستشاروها العسكريون يقومون بتنفيذ جملة إصلاحات داخل القوات المسلحة، مَدَّ خط سكة حديد برلين - بغداد. كذلك شهد العقد الأول من القرن العشرين بناء «خط الحجاز» الشهير الذي يربط دمشق بالمدينة، علماً بأن وصلة الخط إلى مكة لم تنجز قط. لقد أُريد من شبكة السكك الحديدية، علاوة على تسهيلها حركة انتقال الحجاج إلى الديار المقدسة الإسلامية، أن تضمن كذلك سرعة وصول القوات والإمدادات إلى داخل البلاد لإخماد التمردات القبلية في سورية والجزيرة العربية. ومع ذلك، فقد تواصل خروج المناطق من أيدي العثمانيين خلال العقد الثاني من القرن العشرين، بفقدانهم ليبيا وألبانيا ومعظم ممتلكاتهم الأوروبية في حروب البلقان. وجاءت الضربة القاصمة مع الحرب العالمية الأولى (1914-1918): فبانضمامها إلى دول المحور (ألمانيا وألمانيا) ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، خسرت الأمبراطورية العثمانية ما تبقى لها من ولايات عربية أمام هجوم مثلث الشعب شنَّته بريطانيا في العراق وفلسطين، وأمام هجوم القبائل العربية بقيادة الأمير فيصل، ابن شريف مكة، وبمعاونة المغامر الإنجليزي توماس إدوارد لورانس، الشهير بـ«لورانس العرب».

لكن تركيا، وبالرغم من خسارتها ولاياتها العربية، احتفظت باستقلالها كبلد مسلم بعد الحرب العالمية الأولى بفضل جهود مصطفى كمال (لقب فيما بعد بـ«أتاتورك»، أي أبو الأتراك). كان مصطفى كمال، الضابط المنتمي إلى «تركيا الفتاة»، قد أنقذ استنبول بدفاعه المستميت عن شبه جزيرة غاليبولي في وجه إنزال القوات الأمبراطورية البريطانية في العام 1915. وبعد تشكيله حكومة قومية مؤقتة، حشد أتاتورك الشعب التركي ضد سلع قلب الأناضول عن البلاد، أو التنازل عن أية مناطق لسورية المسيطر عليها من قبل الفرنسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليونان والأكراد والأرمن (الذين قُسمت دولتهم المقترحة في الشمال الشرقي من السلطنة عملياً ما بين تركيا والجمهورية السوفييتية الناشئة حديثاً). وبعدما هزم اليونانيين، الذين سبق وكوّفتوا بمنحهم المنطقة ذات الغالبية اليونانية حول إزمير بموجب شروط معاهدة سيفر

ذات الأساس الديني للجماعات المتسربة برداء الدين. لقد غيّرت الإصلاحات التي جاءت بها «التنظيمات» الأساس السابق للمجتمع العثماني بتجريدتها المؤسسات التعليمية والقضائية الإسلامية من استقلاليتها ووضعها تحت إشراف الدولة المباشر. وكانت هذه الإصلاحات حافزاً على ظهور حركة «تركيا الفتاة» في أوساط المثقفين الراقبين في السير على النهج الأوروبي، وبالفعل، وصلت طلبية هذه الحركة، وهي «لجنة الاتحاد والترقي»، التي سبق لها أن اندست في صفوف الجيش، إلى سدة السلطة عبر



مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938)، مؤسس دولة تركيا العلمانية الحديثة.

انقلاب عسكري قامت به عام 1908. فأجبر السلطان على إعادة العمل بالدستور، الذي كان قد عُلّق عام 1876. صحيح أنه كانت هناك بعد الانقلاب حكومة برلمانية، لكنها كانت بمثابة واجهة فقط، إذ بقيت السلطة الفعلية في يد الجيش و«لجنة الاتحاد والترقي» التي شرعت بتطبيق برنامج للحلمنة الجزرية، خفّضت

عن المحاكم الشرعية واستبدلت أحكام الشرع الإسلامي بمدونة سويسرية للحقوق المدنية تتناسب والحاجات التركية. واعتمدت الأبجدية اللاتينية للغة التركية، بعدما كانت تُكتب فيما سبق بالحروف العربية، وذلك بقصد سلب تركيا عن ماضيها الإسلامي، وجعل مكافحة الأمية أسهل مثلاً. وفرض حظر تام على الطرق الصوفية، فلم تجد هذه الأخيرة مناصباً من اللوازم بالسرية. كذلك حرم ارتداء الطربوش، الذي كان - ويا لسخرية الأقدار! - قد تكرس غطاءً «إسلامياً» للرأس، واستُعيض عنه بالقبعة القماشية المستدقة الرأس التي كان يعتمرها العمال الأوروبيون في ذلك الحين.

المدة لعام 1920، نال أتاتورك اعترافاً دولياً بسيادة تركيا التامة والناجزة على الأناضول، وأدريانوبل (أدرنة)، وتراقيا الشرقية (تركيا الأوروبية)، وذلك بحسب معاهدة لوزان الموقعة عام 1923. وقد سوى أتاتورك مشاكله مع اليونان باللجوء إلى وسيلة قاسية إنما فعالة هي تبادل السكان بين البلدين. وإن وطّد أتاتورك دعائم سلطته بوصفه «الغازي» أو المحارب المنتصر على أعداء تركيا، انكبّ بكلّيته على وضع برنامجاً للتحديث الجذري موضع التنفيذ. ففي عام 1923، فُصلت السلطنة عن الخلافة، وألغيت الأولى. وفي السنة التالية، أبطلت الخلافة أيضاً، فضلاً



## العالم الإسلامي تحت السيطرة الاستعمارية حوالى العام 1920

أعقاب نجاح كيتشر في القضاء على الدولة الإسلامية التي أقامها المهدي محمد أحمد عام 1898، بسطت بريطانيا سيطرتها على السودان الأنجلو - مصري، الذي يمتد مجاله الترابي في الوقت الحاضر عميقاً داخل إفريقيا الاستوائية. وبتأثيرها تنجانيا من أمانيا، أصبحت بريطانيا تتحكم بمعظم الساحل السواحلي فيما عدا ذلك القسم الذي يُشكل جزءاً من الصومال الإيطالي. ومن عدن، دخلت بريطانيا في صراع مع إيطاليا المتكئة بباريتريا للسيطرة على باب المندب - البوابة الاستراتيجية للبحر الأحمر - مع إحكام قبضتها في الوقت نفسه على المنطقة الساحلية من الجزيرة العربية الممتدة من عدن إلى البصرة: هذا بعدما قوّدت المشيخات القائمة في جنوب الجزيرة العربية والخليج بمعاهدات قاطعة مانعة تضمن لبريطانيا الإشراف المطلق على سياستها الدفاعية وسياساتها الخارجية.

آلت الهزيمة التي حلت بالأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، إلى وقوع الغالبية العظمى من المجتمعات الإسلامية تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة لقوى الاستعمار الغربية. فلم يبقَ مستقلاً من الأقطار الإسلامية بحلول عام 1920 سوى تركيا، التي أعاد إليها كمال أتاتورك الحياة من جديد: وبلاد فارس (إيران)، التي استحل فيها أسرة بهلوي محل السلالة القاجارية (1923)؛ وأفغانستان، الناعمة بنظام الحكم العصري للملك Aman الله (1919-1929)؛ وشمال اليمن، الذي أحكم الإمام الزيدي بحبي سيطرته عليه بعد انكسار المعتمانيين؛ ونجد، قلب الجزيرة العربية؛ والحجاز، أو الديار المقدسة الإسلامية التي تضم مكة والمدينة، وكان لا يزال تحت حكم الأسرة الهاشمية. أما ما تبقى من «دار الإسلام»، فكان إما خاضعاً للحكم الاستعماري المباشر أو راضحاً تحت شكل من أشكال «الحماية» الأوروبية المعترف بها دولياً. هذا وقد تم إرساء مبدأين جديدين أدخلت بموجبهما المستعمرات أو أشباه المستعمرات السابقة، حظيرة النظام الدولي، الأول، ترسيم الحدود بينها، وهذا ما كان يُصار إليه في العادة بما يلائم مصالح الدول الأوروبية؛ والثاني، يتعلق بالمشيخات المرتبطة ببريطانيا بمعاهدات ملزمة، ويقضي بـ «تجميد» الأسر الحاكمة لضمان استمرارية الحكم، وإن ليس بالضرورة على النسق الأوروبي، أي حق الابن البكر في الوراثة. فمن شأن شرعية الوراثة أن تحول دون نشوب منازعات تمزيقية كذلك التي كثيرا ما تلي موت حاكم تقليدي، وأن تزرع من خلفه، كائناً من كان، ببؤود المعاهدة سارية المفعول.

لم يتقضى العقد الثاني من القرن العشرين إلا وكانت فرنسا قد أحكمت قبضتها على إفريقيا برمتها، فيما عدا قطاعات ساحلية من الصحراء الإسبانية وبراكنش الإسبانية. كذلك كانت إيطاليا آنذاك ماضية قدماً في توسيع نطاق سيطرتها إلى ما وراء مقاطعتي طرابلس وبرقة الساحليتين، وإن لم تحقق ذلك إلا في عام 1934. أما بريطانيا، التي احتلت مصر، المركز النقابي للعالم الإسلامي، منذ العام 1882، فقد سمحت للولاية العثمانية السابقة بأن تمارس استقلالاً صورياً في ظل ملكية دستورية، إلا أنها احتفظت لنفسها بالإشراف الاستراتيجي العام عليها. وهذا ما خلق لاحقاً مفارقة صارخة: بلد محايد من الناحية الرسمية يستضيف على أرضه آلاف الجنود من بريطانيا وتوابع الأمبراطورية الأخرى خلال الحرب العالمية الثانية؛ في







سورية ولبنان. لقد أراد الأمير فيصل، ابن الحسين شريف مكة، الذي حرّر دمشق من تركيا العثمانية بدعم بريطاني، أن يجعل من سورية دولة عربية مستقلة وفقاً لتعهد غامض نوعاً ما كان قد تلقاه من السير هنري مكماهون، المفوض السامي البريطاني في مصر، عام 1915. لكن تبين حالماً وضعت الحرب أوزارها أن المصالح الإمبريالية سوف تنتسخ حق الأمم في تقرير مصيرها الذي أعلنه الرئيس الأميركي وودرو ويلسون كأساس للتصوية ما بعد الحرب في أوروبا. والاحتجاج على هذه المعايير المزدوجة التي سمحت بالاعتراف مجدداً بالحقوق القومية لرعايا الدول المسيحية في أوروبا (بمن فيهم التشيخ والسلوفاك والمجريون واليهود والإيرلنديون، ناهيك عن رعايا الدولة العثمانية السابقين في البلقان)، وإنكار تلك الحقوق على المسلمين دون سواهم في الوقت عينه، كان لا بد من أن يلهب ويؤجج مشاعر السخط على الاستعمار التي سرعان ما ستخرج إلى العلن في سائر ممتلكات السلطنة العثمانية السابقة.

وفي شبه القارة الهندية، احتبس البريطانيون زهاء 560 حاكماً أميرياً - بعضهم مسلمون - داخل فسيفساء من المعاهدات والاتفاقيات المختلفة التي وضعتها ورعاياها المسلمين تحت مظلة العرش البريطاني. وفي جنوب شرق آسيا، سيطرت بريطانيا على دوليات الملايو، فيما وسّعت هولندا نطاق سيطرتها إلى ما وراء مستعمراتها الأصلية في جاوه وسومطرة. وفي آسيا الوسطى المسلمة ومنطقة القوقاز، عملت الثورة الشيوعية والحرب الأهلية التي تلتها على ترسيخ أقدام موسكو هناك، في إطار نظام إقليمي جديد.

وفي قلب المشرق بالذات، شرّعت فلسطين أمام الاستيطان اليهودي بموجب شروط الانتداب الذي منح لبريطانيا من قبل عصبة الأمم. وتبعاً لنيود اتفاقية سايكس - بيكو السرية التي توصلت إليها بريطانيا مع فرنسا عام 1916، بسطت الأولى انتدابها (وهذا تعبير ملطّف عن الاستعمار) على شرقي الأردن والعراق، فيما فازت الثانية بالانتداب على كل من



## البلقان، وقبرص، وكريت 1500 - 2000

السواد الأعظم من السكّان في البلقان بفضل الدعم العثماني الرسمي للمذهب الأرثوذكسي، هو ما سيجعلهم قبل غيرهم، وأكثر من رعايا السلطنة المسلمين، عرضة لمؤثرات الأفكار القومية والأفكار الثورية التي اكتسحت غرب أوروبا في القرن التاسع عشر طبقاً لإحصاء أجري ما بين عامي 1520 و1530، كان 19 بالمئة من سكّان البلقان مسلمين، و81 بالمئة مسيحيين، وكان ثمة أقلية يهودية صغيرة جداً. كان أكبر تمركز للمسلمين في اليوسنة (حوالي 45 بالمئة من السكان): ومعظم المسلمين كانوا يعيشون في العُدن. فصفوسيا (عاصمة بلغاريا الحالية) مثلاً، كانت تقطنها أغلبية مُسلمة تناهز الـ 66,4 بالمئة.

ومع انحسار مدّ الفتوحات عن بلاد المجر الكاثوليكية، وتصادم النزعات القومية الأرثوذكسية في كل من اليونان وصربيا ورومانيا وبلغاريا، وتقطع أوصال الأمبراطورية العثمانية في أوروبا، فقد المسلمون حمايتهم السياسية فالعديد من فاتهم الانسحاب مع الجيوش العثمانية، تعرّضوا للمذابح أو أجبروا على اعتناق الديانة المسيحية. كما أنهم نزحوا بأعداد غفيرة بعد الحرب الروسية - التركية عام 1878، وحروب البلقان في الأعوام 1912-1914، ويُعد الحرب العالمية الأولى عندما جرى تبادل رسمي للسكّان ما بين الأتراك المسلمين القاطنين في اليونان (بما في ذلك جزيرة كريت وجُزر الدوديكانيز)، واليونانيين المتواجدين على بر الأناضول. أما قبرص التي انتزعتها العثمانيون مثل جزيرة كريت من البنادقة في العام 1571، فقد صارت جزءاً من الأمبراطورية البريطانية بعد مؤتمر برلين عام 1878، وهذا ما حال دون الأغلبية الأرثوذكسية فيها واختيار الاتحاد مع اليونان (متملماً فعلت كريت عام 1913)، وهكذا استبعدت من عملية تبادل السكان التي تمت في العام 1920. إن الجزيرة منقسمة إلى شطرين منذ عام 1972، حين تدخلت تركيا عسكرياً للحيلولة دون حكومة عسكرية ذات ميول قومية وتوحيد الجزيرة مع اليونان.

لا تزال ألبانيا بلداً مسلماً إلى حد بعيد (70 بالمئة من سكانها مسلمون)، إنما هي كذلك بفعل الثقافة. فبعد حملة طويلة الأمد لمكافحة الدين شنتها الحكومة

خلّف الفتح السلجوقي، ولاحقاً الفتوحات العثمانية في البلقان، بقية من جاليات مُسلمة في أوروبا، ممّن وصل أفرادها إلى هناك كمستوطنين أو ممّن اعتنقوا الإسلام عن طريق الهداية. ويعكس ما حصل عند غزو الأناضول حيث جرى التنكيل بالمؤسّسات الكنسية



البيزنطية باعتبارها مراحماً إمبراطورياً، مُنحت الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان سلطات حقيقية وقمّالة على الجاليات المسيحية هناك. وبسبب هذا العامل تحديد، ربما لم تجر سوى عمليات «أسلمة» محدودة في البلقان المسيحي مقارنةً بما تمّ في بلاد الأناضول.

يعود تأسيس الوجود الإسلامي الدائم في أوروبا إلى المهاجرين الأتراك الذين قصدوا شمال اليونان وبلغاريا وألبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولعبت الدور الرئيسي في ذلك «التكايّا» التي أقامها مشايخ من الصوفية، والتي صارت في حالات كثيرة نواةً لتشكل المجتمعات القروية. وقد سهّلت الطرُق الصوفية، كالمولوية والبكتاشية، على الناس في المناطق الريفيّة اعتناقهم الدين الإسلامي. إذ وجدت السبل الأبلّة إلى إيصال الأفكار الإسلامية إلى عقول الفلاحين من ذوي المعتقدات المسيحية أو «الهرطوقية»، كذلك التي كان يحملها البوغوميليون، وهم أصحاب بدعة غنّوصية بدائية عمّ تأثيرها الجنوب الأوروبي الكاثوليكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. كان اعتناق الإسلام أكبر ما يكون في ألبانيا واليوسنة والهرسك وبلغاريا، ولاسيما بين البوماكيون في جبال رودوس، الذين تمتد أراضيهم الجبلية إلى داخل دولتي اليونان ومقدونيا الحاليّتين، دح عنك جزيرة كريت. لكن بقاء المسيحيين يشكلون

جسر «ستاري موست» في موستار باليوسنة والهرسك. قبل أن تدمره نيران مدفعية كروات اليوسنة عام 1993. كان الجسرة من أروع آيات الهندسة المعمارية العثمانية التي كتّبت لها البقاء. اكتمل بناء الجسر عام 1566 على يد خور الدين، تلميذ المعماري العثماني العظيم سنان. يبلغ باع الجسر 30 متراً ويرتفع 27 متراً فوق مياه نهر نرتفا. وقد صار بناء الجسر من جديد رمزاً لترميم العلاقات الممزّقة بين طوائف اليوسنة المختلفة.

في البوسنة، يُشكل المسلمون قرابة الـ 45 بالمئة من مجمل عدد السكّان. وقد أدت الحرب الأهلية بين الصرب وتحالف المسلمين - الكروات، التي استمرت من عام 1991 إلى عام 1995، إلى وقوع سلسلة من الأعمال الوحشية، ليس أقلها المذابح المنظّمة ومحاولات «التطهير العرقي»، مما حمل القوات الجوية التابعة لحلف شمالي الأطلسي على التدخل، وعجل بتوقيع اتفاقية دايتون لعام 1995 التي قَسّمت البوسنة بموجبها إلى دولتين منفصلتين، واحدة مسلمة - كرواتية والأخرى صربية.

الشيوعية، تلك التي أعلنت البلاد رسمياً الدولة الملحدة الأولى في العالم، تشهد المعتقدات والعبادات الإسلامية في الوقت الحاضر انتعاشاً ملفتاً. كما بقيت هناك أقلية مسلمة كبيرة إلى حد ما في بلغاريا (13 بالمئة من السكّان) حتى بعدما اضطر الأتراك البلغاريون، الذين يُناهض عددهم الـ 600 ألف نسمة، إلى النزوح بأعداد غير قليلة إلى تركيا من جراء حملة لا هودة فيها قامت بها الحكومات الشيوعية وما بعد الشيوعية لـ«بلغرتهم»، بما في ذلك شطب وتغيير أسمائهم وكثافهم الإسلامية.







## الأقليات المسلمة في الصين



هذه المئذنة الصينية مثال حي على قابلية العمارة الإسلامية للتكيف مع الأشكال البلدية المحلية. وخلافاً لما هي عليه الحال بالنسبة للكاتدرائية أو الكنيسة، ليس هناك شكل معماري مفروض دينياً للمسجد سوى المحراب، الذي يُحدّد اتجاه القبلة أو وجهة الصلاة.

حياة مميّزة لهم كأقلية مسلمة تعيش خارج حدود دار الإسلام،. لأنهم ليسوا بأي حال معزولين عن التيارات الروحية التي تهبّ من قلب العالم الإسلامي. فالصوفية، مثلاً، وجدت منافذ لها إلى داخل الصين مع مشايخ الطُرُق النقشبندية والقادرية والكبروية، التي أنشأت شبكات لها من الفروع والجمعيات في كل أنحاء البرّ الصيني. وخلال فترات الاضطراب التي دامت من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، ساهمت الطُرُق الصوفية أنفة الذكر في تنظيم سلسلة من الثورات والعصيان التي ترعّمها مسلمون في مناطق يونان وشانغتشى وكانسو وسينكيانغ. ومعظم هذه الاضطرابات كان وليد عُنف بين المسلمين أنفسهم سببه وقع الأفكار الإصلاحية الوافدة من الجزيرة العربية على مجتمعات الـ«هوي» المحليّة. ففي عام 1781، مثلاً، سبق أحد مشايخ الطريقة النقشبندية، ويدعى ما مينغشين (م 1719)، وكان قد درس في الجزيرة العربية واليمن طوال ست عشرة سنة، إلى مناصرة الإعدام لتزعّمه حركة عُرفت بالـ«الذهب الجديد» أو «الطائفة الجديدة»، وتصدّت في ذلك الوقت لبدعة تقديس الأولياء. وخلال الستينيات والسبعينيات من

تحدّرت الجاليات الإسلامية الموجودة في الصين من التّجار العرب والفرس والآسيويين (من آسيا الوسطى تحديداً) والمغول، الذين تزوجوا من صينيات وعاشوا في الأغلب ضمن جاليات صغيرة متجمّعة حول مسجد مركزي. وأحياناً هؤلاء، بالإضافة إلى الوافدين الآخرين من منغوليا وآسيا الوسطى على مرّ الزمن، يُعرفون في الصين بأبناء قومية «هوي». يُشكّل الـ«هوي» نصف مسلمي الصين تقريباً البالغ عددهم عشرين مليون نسمة. وخلافاً للمجموعات الإسلامية الأخرى التي تميل إلى التمرکز في مناطق محاذية لجمهوريات آسيا الوسطى، ينتشر أبناء قومية «هوي» في كل أرجاء الصين، وإن كان هناك تركّز خاص لهم في منطقة «نينغشيا هوي» ذات الحكم الذاتي. تعترف الدولة بالـ«هوي» كأقلية قومية، وهي ثالث أكبر أقلية في الصين، ولعلها الأقلية الوحيدة التي تتحدّث بعامل الانتماء الديني. والأقليات الإسلامية الأخرى المعترف بها رسمياً تشمل الويغور في منطقة سينكيانغ، والقازاق والقيرغيز والأوزبك والتتار والطاجيك الذين تقع أوطانهم الأصلية في أراضي الاتحاد السوفييتي السابق.

صحيح أن أبناء قومية الـ«هوي» استنوّا طريقة

قديم) الممثلة للأحزاب الأكثر تقليدية. غير أن هذه الجماعات الإسلامية تعرّضت جميعاً للاضطهاد والقمع إبّان الثورة الثقافية التي أعلنها ماوتسي تونغ (1966-1976)، ووقعت مذبحه كبرى واحدة على الأقل بحق أبناء قومية هوي في أعقاب انتفاضة لهم في مقاطعة يونان، إلا أن رعاية الدولة لحركة «إيهواني» استمرت في ظل الأجواء المريحة التي تلت وصول دنغ شياوبنغ إلى السلطة.

وبعد عودة مستعمرة هونغ كونغ إلى كنف الوطن الأم، جمهورية الصين الشعبية، نسجت الجالية المسلمة الصغيرة الموجودة فيها علاقات لها أيضاً مع المجموعات الإسلامية الأخرى على البر الصيني.

القرن التاسع عشر، قام شيخ نقشبندي آخر، ويدعى ماهوالونغ، بتمرد ضخم عزل به أمبراطورية تشينغ (مانشو) عن شمالها الغربي، ومهدّ السبيل لاندلاع ثورة الويغور في سينكيانغ. وفي أزمنة قريبة منا، نشطت عند مطلع القرن العشرين حركة إصلاحية ذات توجهٍ وهابي عُرفت باسمها الصيني «إيهواني» (من اللفظة العربية: إخوان)، وقد عارضت بعض الممارسات التي اعتبرتّها وثنية، من قبيل تبجيل أولياء الصوفية أو ارتداء ملابس الجداد الصينية. وقد لقيت حركة «إيهواني»، في ظل الحكم الشيوعي، قدراً أكبر من الرعاية الحكومية من نظيرتها «الدغدغمو» (من اللفظة العربية:

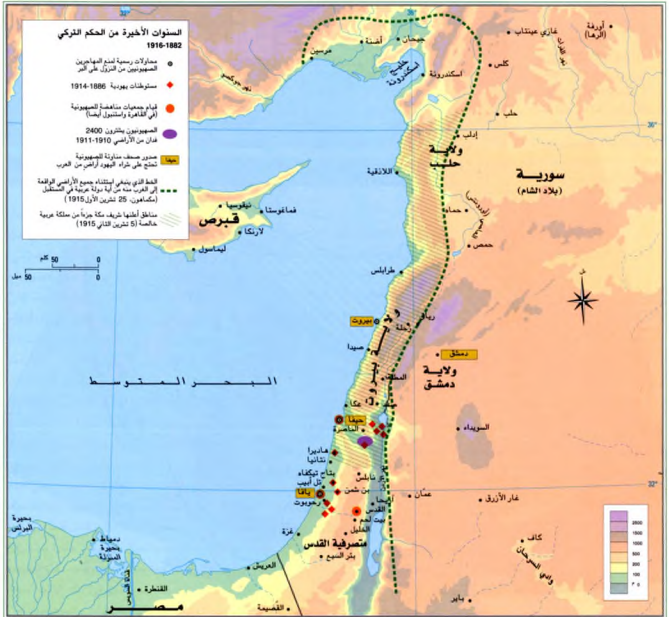
الصين في ظل سلالة مانتشو 1912-1940
منطقة عاصمة
حصان إلابي 1873-1893
مخيمات بريطانية 1841-1840
مخيمات النمط - فرنسية 1860-1869
الحرب الصينية - الفرنسية 1885-1883
مخيمات صينية
مخيمات فرنسية



## المشرق 1500 - 2000

هؤلاء رسمياً رعايا للسلطان العثماني حتى القرن العشرين، حين تقاسمت فرنسا وبريطانيا المنطقة وحولتها إلى دول تابعة ذات هويات قومية مهزوزة. لقد ظلّ المشرق عرضةً لتأثير الغرب الثقافي زمناً طويلاً بعد رحيل الصليبيين عنه؛ وحسبنا أن نذكر هنا

بخلاف مصر التي حكمها العثمانيون، أو وكلاؤهم، كدولة أو ولاية واحدة، بقي المشرق، الذي يضم سورية وجبل لبنان وفلسطين، خليطاً من الجاليات والطوائف المكبّلة بتشكيلة مزوّعة من الانتماءات القبلية والعرقية والدينية تحت قيادة زعماء محليين. وقد كان





بين الموارنة والدروز متكافئاً إلى حد ما، وكان الولاة الأتراك حريصين على الموازنة بين مصالح كلتا الفئتين. غير أن تراجع السلطة العثمانية منذ القرن الثامن عشر اقترن بتصاعد التوتر والتنازعات الطائفية بين الموارنة والدروز، توجّتها المنافسة الحادة التي كانت محتدمة بين فرنسا وبريطانيا. وهذا ما أدى إلى وقوع سلسلة من المذابح والحروب الطائفية

أن الكنيسة المارونية، التي تتخذ من جبال لبنان الشمالية قاعدة لها، قد ثبتت الطقوس اللاتينية واعترفت بالسيادة الباباوية. أما المرتفعات الجنوبية المطلة على سهول الجليل، فهي موطن الدروز، وهم نحلة منشققة عن الشعبة الإسماعيلية. في ظل الأسرة المعنية (1544-1697)، والأسرة الشهابية (1697-1840) التي حلت محلها، كان تقاسم السلطة والنفوذ



ولبنان، فيما شرّعت بريطانيا فلسطين للهجرة اليهودية واستيطان يهود أوروبا فيها، وأقامت نظاماً ملكياً تابعاً لها في كل من شرقي الأردن والعراق. لكن وفيما أوجد الفرنسيون إدارة حديثة في سورية، وبنوا بنية تحتية من الطرقات وشبكات الاتصال والمواصلات، فإنهم علّوا على تقويض دعائم الوحدة الوطنية بتقسيمهم البلاد إلى دوائر إدارية من شأنها مفاجمة الانقسامات العرقية والمذهبية. وقد شجّعوا بنوع خاص تطوّر أبناء الطائفة العلوية (وهم فئة من

المريرة ما بين عامي 1838 و 1860. وفي أعقاب هزيمة العثمانيين في العام 1918، جرى تقسيم المشرق إلى مناطق نفوذ بين الفرنسيين والبريطانيين، وقام الحلفاء المنتصرون في الحرب بخلق أربعة بلدان تابعة - هي العراق وسورية ولبنان وفلسطين - من الولايات العثمانية السابقة. طرد الفرنسيون الأمير فيصل، ابن شريف مكة وقائد الثورة العربية ضد الأتراك، الذي أقام حكومة مؤقتة في دمشق، ليهبطوا من ثم سيطرتهم المباشرة على سورية



دعائم الحكم بعد الاستقلال. صبح أن هذا النظام أمّن قدرأ لا بأس به من السلام الاجتماعي، إلا أنه وقف حجر عثرة في وجه تقدم الوطن وتطوره. وحين استخدم الفلسطينيون الأراضي اللبنانية لشن هجمات على إسرائيل في السبعينيات من القرن العشرين، أعادت العمليات الانتقامية الإسرائيلية إحياء الانقسامات والحزبات الطائفية القديمة، ما أتى إلى وقوع حرب أهلية واسعة النطاق (1975-1982)، وإلى تشظي لبنان مناطق تُسيطر عليها الميليشيات المسيحية والشيعية والسنية والدرزية. ولعل ما فاقم حالة الغوضى هذه، قيام الإسرائيليين باجتياح لبنان في عام 1982، بهدف طرد منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها في لبنان. وكانت الحصيلة الرئيسية لهذا الاجتياح، فرض سورية هيمنتها على البلاد بحكم الأمر الواقع، و بروز "حزب الله" الشيعي المدعوم من سورية وإيران، كعدو لإسرائيل أقوى ساعداً وأشد فاعليةً من الفلسطينيين. وقد تبيّن أن الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان مكلف وغير مجرّ البتة، مما حمل الحكومة الإسرائيلية على الانسحاب من لبنان من طرف واحد في العام 2000.



الشيعية القاطنين في الجبال المطلة على مدينة اللاذقية)، في صفوف الجيش. وبعد الاستقلال، تمكّن العلويون من إحكام سيطرتهم على حزب البعث، الحزب ذي التوجّه القومي، وبذلك أقاموا في البلاد نظاماً بعثياً يجمع ما بين الفكرة الاشتراكية المستوردة من أوروبا الشرقية والتزعة العصبية العربية الموعلة في القدم.

كذلك عمد الفرنسيون إلى تكبير حجم لبنان بضمهم أفضية طرابلس وصيدا وسهل البقاع وجنوب لبنان إلى الولاية العثمانية الصغيرة السابقة، الأمر الذي أدى إلى زيادة كبيرة في نسبة المسلمين من الطوائف السنية والشيعية. وبناءً على سوابق عثمانية، اشترع الفرنسيون دستوراً تقاسم بمقتضاه الطوائف الدينية الرئيسية السلطة، على أن يحتفظ الموارنة بالسلطة العليا من خلال احتلالهم منصب رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش بحرف النظر عما يطرأ من تغييرات ديمغرافية على تركيبة السكّان. وقد أُعيد تثبيت نظام تقاسم السلطة هذا القائم على أسس طائفية، في الميثاق الوطني لعام 1943، الذي أرسى

## مشاهير الرخالة المسلمين

الذي ارتحل إلى القاهرة عن طريق نيسابور والري وبحيرة وان وحلب والقدس. ومن القاهرة قام برحلتين حجّ إلى مكة قبل أن يقفل راجعاً إلى آسيا الوسطى بصفته الداعي الإسماعيلي الأكبر للخليفة والإمام الفاطمي المستنصر بالله (ح 1036-1094). ولمّا هُوِّج خسرو على دعوته هذه من جانب جمهرة من المسلمين السُنّة في مدينة بلخ، بتحريض من الأمراء السلاجقة على أرجح الظن، لجأ إلى بداخشان في غرب جبال البامير، حيث عاش بقية حياته في حماية أمير إسماعيلي هناك. والإسماعيليون في البامير، التي تقع في شرق أفغانستان وأراضي جمهورية طاجيكستان السوفيتية السابقة، يُعظّمون شأنه ويحيطونه بالتهجيل بوصفه وليهم المؤسس. وفي الأساطير المحليّة أنه لم يهد الناس إلى العقيدة الإسماعيلية فحسب، بل هو من أعطى قراهم وبلداتهم جميعاً أسماءها أيضاً. وفي حين تعكس أشعار ناصري خسرو حالة الوحشة التي كان يعيشها في المنفى، فإن السجّيّة العقلانية التي تسم كتاباته الفلسفية جعلته مقبولاً لدى الشيوعيين الذين استولوا على المنطقة في العام 1920، فاستبقوه معزّزاً مكرّماً باعتباره بطل طاجيكستان القومي.

والقاهرة بحسب وصف خسرو لها في كتابه أنف الذكر، تعدّ قدوة تحذّي في الإدارة الحكمة والعدالة. فالحرثيون هناك يتناقضون أجوراً مقبولة، الأمر الذي يحدوهم إلى تحسين نوعية منتجاتهم باستمرار. والجنود يتسلّمون معاشهم بانتظام، وهذا ما يجعلهم أقلّ ميلاً إلى التحرّش بالفلاحين ومضايقتهم. والقضاة يحصلون على رواتب عالية، وبذلك تضمّن نزاهتهم ويوقّرون على الرعية عاقبة الفساد والجور. وإذا ما ضُبط تاجر يغيث زبوناً، فإنه «يوضع على ظهر جملٍ ويهد جرس، فيُدار به في طرقات المدينة وهو يرنّ الجرس صانحاً. افرقتُ لئماً كبيراً وها أنذا ألقى جزءاً ما صنعت». وكل من يستغويه الغشّ، يُجلّله العار على رؤوس الأَشهاد».

الصيغة العربية من رواية الحجّ أو التسفار تُعرف

كان الحجّ إلى مكة باعثاً على ولادة جنس أدبي غني، هو أدب الرحلات. فقد كان بعض الحجّاج يدوّنون يوميات عن رحلاتهم أو يُملّون مروياتهم على كتبه مختصين، آتين على ذكر تفاصيل مدهشة تتناول كل شيء تقريباً، من أصناف الطعام إلى صروح العمارة. ولعلّ أكثر الروايات استدعاءً للعجب والإعجاب في هذا النوع من الأدب، كتاب «سفرنامه» للشاعر والفيلسوف الفارسي ناصري خسرو (1003-1088)،

أمضى الرحالة ابن بطوطة سنة كاملة أو أكثر في جزر المالديف، حيث قبل بعد شيء من التردد منصب قاضي القضاة المعروف عليه. كان رأيه في الناس هناك أنهم يتصرفون بالاستقامة والورع، لكنه استهجن خروج النساء على الملام عاريات الصدور.



والوقوف على الظروف السياسية والاجتماعية السائدة في ذلك العصر. إنها بحق نموذج حيّ للعديد من الروايات الأخرى، لعل أهمها طراً الرحلة التي قام بها أعظم الرحّالة المسلمين على الإطلاق، المغربي ابن بطوطة (1304- ن 1370)، وأخذته من موطنه طنجة إلى الصين، فأبلى إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى (بلاد الزنج). أدّى ابن بطوطة فريضة الحجّ ست مرّات على الأقلّ في سياق رحلاته وأسفاره، والفصول الأولى مما حكاها عنها يستوفي تماماً مواصفات أدب الرحلات. لكن حيث إن رحلاته أخذت تستطيل بشكل مطّرد سواء في الزمن أم في المدى، فقد صارت روايته أكثر شمولاً وأوسع إحاطة، فجاء كتابه متضمناً وصفاً منقطع النظير للعالم المعروف آنذاك. وعلى غرار رواية

«الرحلة»، وهذا الجنس الأدبي هو من ابتداء ابن جبّير الأندلسي (1145-1217)، الذي دوّن وقائع رحلة شهيرة له دامت سنتين، انطلق فيها من غرناطة في شهر شباط/فبراير 1183 قاصداً مكة. وهناك أقام ابن جبّير تسعة أشهر قبل أن يعود من الديار المقدسة الإسلامية عن طريق العراق وعكا، حيث سعد على متن سفينة جنوبية متّجهة إلى صقلية. ويعدّ أنّ كتّبت له النجاة إثر غرق السفينة في مضائق مسينا، استقلّ مركباً آخر في تراباني ووصل سالماً إلى غرناطة في نيسان/إبريل 1185. تسوق لنا رواية ابن جبّير فيضاً من المعلومات والحقائق عن الأقطار والأحصار التي مرّ بها، وتُشكل مرجعاً لا يُقدّر بثمن لمعرفة أحوال الصليبيين ووضع الملاحة في البحر المتوسط.



يُمكنها أن تتألم من سعة ابن بطوطة بوصفه واحداً من أعظم الرحّالة في كل العصور إن الثروة من المعلومات التي تركها للأجيال القادمة جميعاً عن العالم في عصره، ليس لها نظير في الواقع. فمثل الرحّالة العظام كافة، تُخبرنا ملاحظاته ومشاهداته الشيء الكثير عن عالمه الاجتماعي بقدر ما تُخبرنا عن البلاد التي زارها وطاف في أرجائها. كانت له عين ناقية تلتقط أدق التفاصيل، وفضوله يأخذ قارئه إلى ما وراء مظاهر الحياة المألوفة؛ وكل جملة من جملته تنطوي على قدر غير يسير من التساؤل والاستفهام كهذه الجملة: «وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهة وسعة عيش. إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملابس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة». والتباني هنا تام مع ما كان

ماركو بولو التي لا تقلّ عن روايته شهرة، لم يدونها ابن بطوطة بقلمه هو، بل أملاها إماماً على معاون له، هو الكاتب والدارس الغرناطي ابن جزي (1321-1356). فقد سجّل ابن جزي مرويات ابن بطوطة في كتاب بناءً على إيعاز من أمير فاس، أبو عنان (ح 1349-1358). وفي الوقت الذي كان فيه الكتاب قيد التدوين، كان الجنس الأدبي، أدب الرحلات، قد استتبّ فعلاً بين صفوف المتعلمين، فثارت التساؤلات هنا، كما بشأن مجمل روايات الأسفار الأخرى، حول بعض ما جاء في وصف ابن بطوطة، وهل يُمكن الركون إليه. يلمّح باحث عصري إلى أن ابن جزي ربما يكون قد «اشتط كثيراً في الميل إلى الغرائبية، بينما العمل الأصلي كان بالتأكيد أكثر اعتدالاً»، فتصرّف من عنده في بعض ما حكاها ابن بطوطة لأسباب ربما لها علاقة بالأسلوب. غير أن مرواغات الكتّبة والأعيبيهم لا



صنَعُ الْأَسْطِرْلَابِ هَذِهِ الصُّلْبِيَّةِ الْعَائِدَةِ إِلَى الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ وَضَعْتَ بِقَصْدٍ تَعْيِينَ اتِّجَاهِ مَكَّةَ - الْأَسْرَ الْخَائِقِ الْأَهْمِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ.



بَدِئاً فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، حَيْثُ الْأَقْمَشَةُ مَحَلُّ تَقْدِيرٍ رَفِيعٍ، وَالْأَقْمَشَةُ الَّتِي تَلْبَسُ فِي الْعَلَنِ مَوْشَرَ مَهَمٌ عَلَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْمَرْءُ مِنْ جَاهٍ وَمَا يَتَجَوَّهُ مِنْ مَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ. وَقَدْ أَعْجَبَ ابْنَ بَطُّوطةَ بِالْأَفَارِقَةِ فِي «سُلْطَنَةِ» مَالِي لَمَا يَتَحَلَّوْنَ بِهِ مِنْ تَقَى وَرُوعٍ، وَلَا سِيَّمَا عِنَايَتِهِمْ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ عَنِ ظَهْرِ قَلْبٍ: «وَهُمْ يَجْعَلُونَ لِأَوْلَادِهِمُ الْقِيُودَ إِذَا ظَهَرَ فِي حَقِّهِمُ التَّقْصِيرُ فِي حِفْظِهِ، فَلَا تَكْفُ عَنْهُمْ حَتَّى يَحْفَظُوهُ». غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَهْجَنُ عَادَةً ظُهُورَ النِّسَاءِ عِنْدَهُمْ بِأَدْيَاتِ الْعُرَاتِ كَقَوْلِهِ: «وَمِنْهَا دُخُولُ النِّسَاءِ عَلَى السُّلْطَانِ عَرَابِيًّا غَيْرَ مُسْتَقَرَّاتٍ. وَتَعْرِي بَنَاتِهِ... وَمِنْهَا أَيْضًا كَثِيرٌ مِنْهُنَّ يَأْكُلُونَ الْجِيْفَ وَالْكَلَابَ وَالْحَمِيرَ».



## بريطانيا في مصر والسودان خلال القرن التاسع عشر

إقامة السدود وخرزانات المياه للتحكم بغضاض النيل، وتوسيع شبكة السكك الحديدية. فضاعفت كميات القطن الخام المزروع لأغراض التصدير، لكن البريطانيين حرصوا على تقييد عملية التصنيع خوفاً من تشجيع المنافسة.

بدأ اختراق المصري للسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين أطاح محمد علي بسلطنة الفنجج كجزء من رهانه على إقامة إمبراطورية مصرية في إفريقيا. في عام 1830، أنشئت الخرطوم على النيل الأبيض كعاصمة محصنة جديدة، وباستخدامهم ضباطاً أوروبيين لقيادة القوات المجندة المحلية والقوات المصرية، تمكن خلفاء محمد علي من توسيع نطاق سيطرتهم إلى أعالي النيل والأقاليم الاستوائية. وعملاً بمبادئ الإصلاح الإداري التي كانت رهن التطبيق آنذاك في مصر والأمبراطورية العثمانية، فرض المصريون نظام احتكار الدولة للتجارة - حتى الغارات لاصطياد العبيد صارت من أعمال الدولة - في الوقت الذي وحدوا فيه معايير الإجراءات القضائية وفقاً للمذهب الحنفي المعمول به رسمياً في الأمبراطورية العثمانية. وهذا ما انتقص من سلطة العلماء المحليين، وهم من المذهب المالكي، كما أضعف من جهة أخرى كافة البدع الصوفية المحلية. ومن المفارقة بمكان، ان هذا التدبير جاء مساعداً في نشر الطرق ذات التوجه الإصلاحية، كالتربية السنيّة والطريقة الختمية، اللتين طلع بهما حجاج عائدون من الحجاز، حيث كانت الروح الإصلاحية على أشدها منذ القرن الثامن عشر. وحين أُلغيت احتكارات الدولة المصرية في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، شرع الأوروبيون بدخول السودان لتسليم مقدرات التجارة في مواد مثل الصمغ العربي وريش النعام والعاج، الأمر الذي ألحق ضرراً فادحاً بمشاريع الأعمال المحلية. ويطغى من بريطانيا، وقعت الحكومة عام 1877 ميثاقاً تحظر بموجبه كل أشكال الخناسة. وقد تفجرت مشاعر الاستياء من هذا الإجراء في ثورة كبرى أشعل قتلها وتولى زمامها محمد أحمد. كان هذا الأخير شيخاً من مشايخ الطريقة السنيّة، وكان يتمتع بسمعة عظيمة تشهد له بالتقوى والصلاح. في تشرين الثاني/نوفمبر 1882،

بدأت هيمنة بريطانيا على مصر مع النظم التحديتي لمحمد علي، الذي كان بالاسم والياً عثمانياً على مصر، بينما هو في الواقع حاكم مستقل فعلاً؛ وكذلك مع سليله الديوي إسماعيل (ح 1863-1879)، الذي كان مفتوناً إلى حد الهوس بأوروبا. فمخططات إسماعيل باشا الطموحة للتنمية الاقتصادية، ومن ضمنها مد السكك الحديدية وخطوط البرق وشق قناة السويس (افتتحت عام 1869)، أدت إلى إفلاس البلاد وقرض إدارة مالية أجنبية عليها. فأعلنت مجموعة من ضباط الجيش المصري من أبناء البلاد الأصليين، يُساندها رجال الدين وملوك الأراضي والصحفيين وداعية الوحدة الإسلامية الجامعة جمال الدين الأفغاني، عن معارضتها لنظام إدارة الدين، واستولت على وزارة الحربية حيث شكلت حكومة برلمانية برئاسة الوزير «الثاني» عربي باشا، عندئذٍ عمد وليام غلاستون، رئيس الوزراء البريطاني، إلى قصف الإسكندرية، وقام بإزالة قوات على الأراضي المصرية، فألحقت الهزيمة بجيش عربي في معركة «الل الكبير»، وفي ظل المقيم البريطاني، السير إيغلين باريتغ (لاحقاً: اللورد كرومر)، الذي تولى الشؤون المالية في الحكومة، جرت إدارة الاقتصاد المصري بنجاحة. إنما لما فيه مصلحة الأمبراطورية. وشهد الإنتاج الزراعي تحسناً من جراء



لقي الجنرال تشارلز جورج غوردون، الملقب بـ«الصيني» (1833-1885)، حتفه على أيدي قوات المهدي فوق الدرج المؤدي إلى مقر الحاكم في الخرطوم بعد حصار دام خمسة أشهر. اعتبره الجمهور البريطاني شهيداً مسيحيًا، ولذلك ثار كيهنتشر لمقتله بأن أعاد الرسم بريشة الرسّام الفيلسوف لويس ديكنسون يحمل عنوان «مناوبة غوردون الأخيرة».







ما فتح الباب لمجيء الحكم العسكري، أولاً بقيادة اللواء إبراهيم عبود (ح 1954-1964)، ولاحقاً بقيادة الفريق جعفر النميري (ح 1969-1985). حاول النميري في البدء رابّ الصعد ما بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم بمعظمه (غالبية من المسيحيين والإرواحيين)، وذلك بمنح حكم ذاتي محدود لمديرية بحر الغزال والمديرية الاستوائية ومديرية أعالي النيل. غير أن النميري بذل اتجاهه على نحو جذري في العام 1983، وشنّ حملة لأسلمة البلاد أسلمة تامة. وقد ساندته في ذلك حسن الترابي، زعيم الجبهة القومية الإسلامية (النسخة السودانية من حركة «الإخوان المسلمين» في مصر). صحيح أنه جرت الإطاحة بالنميري في عام 1985 بعدما أضحي شخصاً غريب الأطوار وغير متزن على نحو متزايد، إلا أن عمر البشير الذي استولى على مقاليد السلطة بمساعدة الترابي في انقلاب عسكري عام 1989، مضى قدماً في تطبيق برنامج الأسلمة إياه. أثار إصرار الترابي على تعريب وأسلمة السكّان من غير المسلمين، إلى حد تطبيق العقوبات الإسلامية عليهم، أثار مقاومة متعاطفة في صفوف أبناء الجنوب. فاضم عدد غير منهم، أو قدّموا المساندة، إلى الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق. وهذا الصراع ما بين الشمال والجنوب، وهو بالمناسبة أطول حرب أهلية متواصلة في إفريقيا، يصفه أحد المؤرخين المرموقين بأنه «حرب أهلية ذات أبعاد تقارب الإبادة الجماعية... بلجأ فيها إلى استخدام تكتيكات من ضمنها تجويع السكان المدنيين وإجبارهم قسراً على النزوح عن ديارهم». إن الأقوام التي تعتنق الديانات الإفريقية، مثل النوير والدينكا، تعرّضت ولا تزال لمحاولات إدخالها في الدين الإسلامي عنوة. وقد استخدم مع البشير برنامج الجبهة القومية الإسلامية، القاضي بتطهير صفوف الجيش العلبي ودوائر الخدمة المدنية من غير الإسلاميين لا بل وإعدامهم، للقضاء على قوة الأحزاب السياسية التقليدية التي تهيم عليها الجماعات الصوفية. وبعد مضي عشر سنوات على الحكم الديكتاتوري، كان الترابي قد أدّى «خلافها كل ما هو مطلوب منه، قام اللواء البشير بانقلاب «داخلي» عزل فيه الترابي عن الحكم في كانون الأول/ديسمبر 1999.

أعلن محمد أحمد على الملاً أنه هو المهدي (أي «المسيح» المسلم الذي كان ظهوره منتظراً على نطاق واسع في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة). ومن ثم استنهض قبائل البقارة الرعوية للتمرد على الحكومة التركية - المصرية «الكافرة». وبعد أن أباد قوت من ثمانمائة آلاف مجتهد محلي بقيادة هيكس باشا في شيخان، انتقل المهدي للاستيلاء على أم درمان والخرطوم. وهناك لقي الجنرال غوردون مصرعه على درج دار الحاكم بعدما رفض الامتثال للتعليمات المعطاة له بوجوب إخلاء الحامية. وهذا ما أورت الجمهور الفيكتوري في بريطانيا عتاشاً شديداً للثأر. وقد مات المهدي بعد ذلك بسنة أشهر (بخصى التفويد على الأوجح) إثر دخوله الخرطوم دخول الظافرين. وبقيادة خليفة عبدالله الطايشي، الذي خلفه في زعامة الحركة، استمرت تلك الحركة في الامتداد والتوسع جنوباً نحو جبال النوبة ومنطقة بحر الغزال. وهذا ما أدخل العديد من أقوام الإرواحيين غير المسلمين، ومنهم النوير والدينكا وسواهما، في مدارها مما بذر البذور لزراعات وصراعات ستتفجر مستقبلاً.

لقد كان قدر الدولة المهديّة الهلاك، لأنها تحدت وأذلت قوة بريطانيا في منطقة حساسة استراتيجياً لغربنا فيها، هي الأخرى، أطماعها وأمريتها الأميركية. ففي عام 1898، تعرّض جيش خليفة البالغ عدده 50 ألف رجل لمذبحة مروعة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال هيربرت هوراشيو كيتشنر. فما كانت حرب خليفة ولا بنادقه العتيقة لخضاهي بأي حال رشاشات «غانلينغ» الحديثة التي كان أضرها كيتشنر عبر مجرى النيل في أسطوله الصغير من المراكب البخارية المصفحة. آلت هزيمة المهدي إلى نصف قرنز أو أكثر من الحكم البريطاني في ظل السلطة الإنجليزية - المصرية المشتركة. وهنا اعتمد أتباع المهدي السابقون - وكانوا يُعرفون بـ «الأمناء» - تيمناً بأمنار الرسول محمد في المدينة - مبدأ الجهاد «السلمي»، موسعين نطاق نفوذهم ليشمل المناطق المدنية. في عام 1944، شكّل زعيمهم سيد عبد الرحمن، ابن المهدي، «حزب الأمة»، الذي أبقى على تعاونه مع البريطانيين حتى وهو يعمل من أجل الاستقلال. في حين شكّل أتباع الختمية «حزب الاتحاد الوطني»، المحبذ للاتحاد مع مصر، لمواجهة نفوذ الأمناء. ولئن لقيت فكرة الاتحاد هذه رفضاً باتاً بعد الثورة المصرية عام 1952، فإن المنافسة المريرة بين الحزبين الدينين ظلت قائمة.



## فرنسا في شمال إفريقيا وغربها

استمر استيطان الأراضي المنتجة في الشريط الساحلي الجزائري حتى إلى ما بعد حلول القرن العشرين. ففي عام 1940، كان المستوطنون الأوروبيون يملكون زهاء 2,7 مليون هكتار، أي ما يُعادل 35 إلى 40 بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة، تُشكل الأبنذة (المحرم شربها على المسلمين) أهم صادراتها.

والتخريب الثقافي كان هائلاً هو الآخر. فقد حُظرت المعاهد الإسلامية التقليدية أو حُجرت مواردها المالية. وكان من المفترض أن تُستبدل بمدارس فرنسية، إلا أن أقلية صغيرة جداً من المسلمين الجزائريين استفادت من ذلك، وعلى عكس بريطانيا التي كانت تُؤثر حكم أمبراطوريتها من خلال وكلاء مطوعين لها، رأت فرنسا أن تنتج سياسة الاستيعاب. ولئن كان تطبيقها لهذه السياسة محدوداً، إلا أنها خلقت نخبة فرانكفونية صغيرة تنمى مع الحضارة الفرنسية، في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، برزت حركة قومية تضم مصطلحين إسلاميين يتحلقون حول عبد الحميد بن باديس، وقوميين عرباً يستلهمون أفكار مصالي الحاج، وقد أصابت تلك الحركة نجاحاً بذرهما البذور لقيام حرب استقلالية ناجحة الشروط، وهي التي اندلعت فعلاً في أواخر الخمسينيات من ذلك القرن بدعم من الكتلة السوفييتية ومصر والبلدان العربية الأخرى، في عام 1958، استطاعت حركة مضادة قام بها مستوطنون فرنسيون يعارضون استقلال الجزائر، أن تطيح بحكومة الجمهورية الرابعة وتأتي بالجنرال ديغول إلى الحكم في فرنسا. لكن الجزائر. وبعد مفاوضات مديدة في إيفيان، اعترفت فرنسا بالسيادة الجزائرية في عام 1962، مهما يكن من أمر، فقد بقيت الروابط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين فرنسا والجزائر وثيقة للغاية، حتى بعدما حلت جبهة التحرير الوطني - الحزب القومي الذيفاوض على الاستقلال - محل الإدارة الفرنسية، تلك الأقلية الفرانكفونية شبه الاستعمارية التي كانت تسميّد على الأغلبية من الناطقين باللغتين العربية والبربرية (الأمازيغية). وفي كانون الأول/ديسمبر 1991، تدخل الجيش لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ من الوصول إلى السلطة عبر انتخابات وطنية. وقد فقد أكثر من مئة ألف جزائري أرواحهم في غمرة الحرب الأهلية التي تلت ذلك، تلك الحرب التي عكست في جزء

الفتح الفرنسي لشمال إفريقيا لم يبدأ جدياً إلا في العام 1930، حين أقدمت حكومة الملك البوربوني المستعبد عريشه، شارل العاشر، مستوذة من تجار مارسيليا، أصحاب المصالح القديمة في تجارة الصوف، على غزو الجزائر. وفي حين احتلّ الفرنسيون مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية، أثار حلول الأوروبيين محل العثمانيين في المناطق الداخلية من البلاد حركة

مقاومة تزعمها الأمير عبد القادر الجزائري، ابن شيخ مشايخ الطريقة القادرية، بالتعاون مع



سلطان المغرب. وبعد انكسار الجيش المغربي على يد الجنرال توسا - روبير

بوغو في معركة إيسلي عام 1844، زالت كل الحواجز من أمام الاستيطان الفرنسي هناك. أقدم بوغو على تخريب البساتين والمحاصيل الزراعية، وعلى تدمير قرى بأكملها، موهقاً أرواح أعداد غفيرة من الناس، وتشاركاً عشرات الآلاف منهم يموتون جوعاً. تمت مضادة مساحات شاسعة من الأراضي، وجرى تهجير عشائرها، عربة وبربرية على السواء، إفساحاً في المجال أمام مستوطنين فرنسيين والأوروبيين. شهد القرن الثامن عشر قيام حركات تمرد وعصيان عديدة ضد الفرنسيين، بلغت ذروتها في انتفاضة كبرى سرعان ما سُحقت في عام 1871. وقد



«إزواجية السيادة». وإثر وقوع مظاهرات حاشدة وأعمال عنف، سمح الفرنسيون للملك بالعودة، مسلمين باستقلال المغرب في عام 1956. وما زالت الأسرة الحاكمة في السلطة إلى يومنا هذا، ممثلة بحفيد محمد الخامس، الملك محمد السادس.

وهذا النموذج من الفلاس الاستعماري الذي تتبعه ثورة وطنية، عاد وتكرر، وإن بوضوح وشدة أقل، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كانت للفرنسيين مطامع اقتصادية لكن مصلحة قليلة في الاستيطان.

تمثلت مصالحهم الاقتصادية الأولى في تمييز إنتاج المحاصيل النقدية، مثل الفول السوداني والأخشاب وزيت النخيل. عمل الفرنسيون على جباية الضرائب نقداً، واستخدموا الأيدي العاملة بالسخرة في مزارع الموز والكسكاو والبن، ومدوا خطوط السكك الحديدية لنقل البضائع من مناطق السداخل إلى المحيط الأطلسي، فدمروا بذلك أسلوب النقل بواسطة الجمال القديم والعريق.

وتقوّضت أسس التجارة الإفريقية باستيلاء العرب المشاركة واليونانيين والأسبويين من جنوب القارة على تجارة العفوق في المستعمرات الفرنسية. وأهمل التعليم الإفريقي، بحيث لم يتح سوى لـ 3 بالمئة فقط من الأفارقة في الإمبراطورية الفرنسية أن يتألموا نصيباً من التعليم المدرسي. مع ذلك، فقد نبتت نخبة فرانتفونية صغيرة هي من سيرتقي سدة الحكم بعد الاستقلال. وفي عام 1958، عرض ديغول على مستعمرات فرنسا في إفريقيا الاختيار بين الاستقلال الفوري أو الحكم الذاتي ضمن الأسرة الاقتصادية الفرنسية. وهددها غينها اختارت الاستقلال الفوري، وكان اختيارها هذا مكلفاً إذ أضمر ضرراً فادحاً لفرنسا في غرب إفريقيا، فقد نالت استقلالها التاجز في غضون الستينيات من القرن العشرين.

منها صراعاً بين النخبة الفرانكفونية الملتزمة بالقيم الغربية وبين الإسلاميين الذين يعتقدون بأنهم يمتلكون شرعية ثقافية أرفع شأنًا.

ولم تقف المطامع الاستعمارية الفرنسية عند حدود الجزائر فقط، بل تعدتها إلى جارتها تونس أيضاً. كانت تونس ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي، فأخذت فرنسا بالاستيلاء عليها تدريجياً اعتباراً من العام 1881. وبحلول عام 1945، كان نحو من 144 ألف مستوطن أوروبي يحتلون خمس مساحة الأراضي القابلة للزراعة. إلا أن هؤلاء المستوطنين لم يشككوا في أي يوم مجموعة ضغط محلية قوية كتنظراتهم في الجزائر لذلك ما إن منيت فرنسا بالهزيمة في الهند الصينية بعد الحرب العالمية الثانية، حتى سلمت باستقلال تونس في العام 1956. والنسق عينه من التلغفل الاقتصادي الفرنسي المستتبع بالسيطرة الإدارية والاستيطان الأوروبي حصل في المغرب أيضاً، إنما مع فارق رئيسي هو أن البلد احتفظ بوضعته ككيان مسلم في ظل الأسرة الشريفة (المحتدرة من سلالة الرسول) التي وصلت إلى السلطة في القرن السابع عشر. كان سلطان المغرب، مثل حكام إيران في زمانه، يفتقر إلى الأموال اللازمة لدفع رواتب جنوده. وكان هذا وضعه بنوع أخص بعدما انتقل إنتاج السلعة الأعلى قيمة مالية لديه، ألا وهي السكر، إلى أيدي الأوروبيين ولاسيما مع تطور زراعة السكر في جزر الكناري والأميركيتين. وبغية الحفاظ على هيمنتها على القبائل العاصية، رهن السلطان عائداتها الجمركية واستلف دونما حساب من المصارف الفرنسية. وحين أثار ذلك ثورة في صفوف العلماء، تدخل الفرنسيون بصورة مباشرة، فأرضين الحماية على البلاد (إلى جانب محمية أصغر حجماً أعطيت لإسبانيا) في العام 1912. وهكذا طرحت أراض المغرب للبيع على الأوروبيين، الذين بلغت ممتلكاتهم منها بحلول عام 1953 زهاء مليون هكتار، أو ما يوازي 10 بالمئة من مساحة الأراضي التي تغل محاصيل زراعية، فضلاً عن 25 بالمئة من مجموع بساتين الفاكهة وكروم العنب، مع أن الأوروبيين بالكاد كانوا يشكلون واحداً بالمئة من مجمل عدد السكان. غير أن الأسرة الشريفة استطاعت على عكس الحال في الجزائر وتونس، أن تضع نفسها في مقدمة الحركة المطالبة بالاستقلال. ففي عام 1953، جعل الفرنسيون من الملك محمد الخامس بطلاً قومياً وذلك عندما نفوه من البلاد بعدما رفض الموافقة على نظام



شمال غربي إفريقيا حتى 1914	مستعمرات بريطانية
مستعمرات فرنسية	مستعمرات إسبانية
مستعمرات برتغالية	مستعمرات بلجيكية
مستعمرات ألمانية	مستعمرات إيطالية
دول مستقلة	

## نموذج الحجّ وتطور المشاعر المقدسة

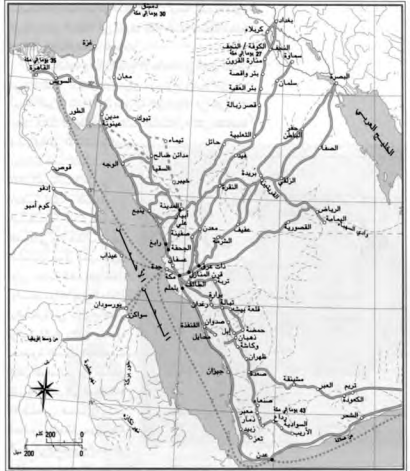
### دروب الحج في الجزيرة العربية

—	دروب الحج
.....	تحولات
○	مئن قرى
●	مبقات

داخل المملكة العربية السعودية من المواطنين السعوديين والمقيمين الأجانب على حد سواء.

قبل وفاة النبي محمد في العام 932 م، تناول شعائر الحج التي كانت سارية قبلاً داخل مكة وما حولها وعمل على إصلاحها. وهذه الشعائر المصلّحة التي تستغرق تأديتها عدة أيام، تشتمل على الطواف حول الكعبة، البناء المكعب الشكل القائم وسط المشعر الحرام في مكة؛ والسعي أثناء التلبية بين الصفا والمروة؛ والوقوف يوماً كاملاً على جبل عرفات؛ والنفرة (وهي اليوم سيل هائل من البشر والمركبات) عبر المزدلفة؛ ورمي الجمرات (وهي كناية عن أعمدة ترمز إلى إبليس) في منى. إن الحجر الأسود «حجر سماوي» تكتنفه الأسرار، إنه مصود في الركن الجنوبي الغربي للكعبة، وموجه نحو عبادة الله دون سواه كما تجلّى لأبي الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل، الجد القديم للعرب. والفصل الأخير من الحجّ، ألا وهو تقديم الأضاحي إحياءً لذكرى الشاة التي تقبلها الله بدلاً من ولد إبراهيم، يحتفل فيه في جميع أنحاء العالم الإسلامي تحت اسم «عيد الأضحي»، حينما يذبح المسلمون بضعة رؤوس من ماشيتهم أو يتناولون لحوم حيوانات ذبحت في منازلهم. أما العمرة، أو «الحج الأصغر»، فهي مقصورة على الحرم المكي المحيط بالكعبة، وباستطاعة المرء أن يؤديها في أي وقت من السنة، أو في التزامن مع الحج نفسه.

فيما قبل الأزمنة الحديثة، كان يُمكن لرحلة الحجّ أن تكون شاقّة للغاية، ولاسيما للقادمين من مناطق الأطراف القصية، كان من الجائز جداً أن تستغرق



الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة دينية يتوجب على كل مسلم أن يؤديها مرة واحدة على الأقل في حياته. وهذه الفريضة صارت اليوم سهلة يسيرة نسبياً بفضل النقل الجوي الذي في طاقة المرء تحمل نفقاته. إن محطة الحجاج في مطار جدة - وهي عبارة عن مبنى على شكل خيمة عملاقة يمتد على مساحة بضع عشرات الآلاف من الأمتار المربعة - لتستوعب في وقت واحد عدداً أكبر من المسافرين مما يستوعبه أي مطار في العالم. إن الحج يجمع بالمعنى المادي للكلمة، المسلمين من كل أرجاء الأرض بعضهم ببعض، وهو يجتذب نحواً من مليون حاجٍ من الخارج كل سنة، وحوالى العدد نفسه من

خريطة مكة

- 1 حي جبريل
- 2 حي الباب
- 3 حي الشبكة
- 4 حي السوق الصغير
- 5 حي التسعة
- 6 حي باب العمرة
- 7 الشمالية
- 8 حي السوقية
- 9 حي اللقوة
- 10 أكواخ
- 11 حي الركوبة
- 12 حي النقع
- 13 حي المعلمانية
- 14 حي بني عامر
- 15 درب العبادين
- 16 درب العملاة
- 17 حي نغزة
- 18 قصر شريف الأشراف، عين الرفيق (1905-1882) وبناء والده محمد بن عون
- 19 قصر شريف الأشراف، عبدالله، الأخ الأكبر لعون الرفيق
- 20 حي بني البروك
- 21 حي سوق آل
- 22 حي المدعي
- 23 النوروة
- 24 الشمسي
- 25 زقاق الحجر
- 26 مولد سنان فاطمة
- 27 حي القشبية
- 28 الصفا
- 29 حي أجياد (يوجد في هذا الحي مبنى مؤسسة الكتاب المصرية وسراي الحكومة الجديدة)
- 30 مقر الحرس الفرنسي (الشرطة)
- 31 داره والي الحجاز، مخفر الشرطة، إلخ
- 32 مدرسة (تستخدم حالياً مقر اللجنة لقطاع زبيدة ومكتباً لرئيس الموثنين)
- 33 بكة ساجد، بئر كبيرة للمياه موصولة بالقناطر
- 34 دار القضاء ومسكن القاضي
- 35 قبر أبي طالب (عم الرسول)
- 36 آبار مياه موصولة بالقناطر
- 37 قبر السيد عطل
- 38 قبر الرزاك الشيخ محمود
- 39 جبل قعقعا
- 40 حي العمدة (الحمص)
- 41 آبار ماء من القناطر (مثل هذه الآبار موجودة حالياً في الدروب الرئيسية كافة)



عبرها سلسلة من الردهات والدهاليز، في القرن التاسع عشر، تضافر ظهور الملاحة البخارية برعاية القوى الاستعمارية مع استحداث نوايا خاصة لتوفير نققات الحج، ليجعل رحلة الحج في متناول الآلاف من الفلاحين وأبناء المدن العاديين من مناطق غائبة جداً كالبنغال والملايو وجُزر الهند الشرقية الهولندية، الذين ما كانوا ليأملوا على الإطلاق في أداء تلك الغريضة الدينية في عصور ما قبل الصناعة.

الرحلة سنوات عديدة من عمر الإنسان – أو حتى عمره بكامله – كي يتم «الركن الخامس» من أركان الإسلام، في تلك الرحلة، كان ثمة «مدن/قوافل» تتحرك بسرعة تحت إمرة «أمير الحج» بعد أن تنطلق من سورية ومصر والعراق. وكان أمرو القوافل بمثابة قادة عسكريين في الميدان، واجههم الأولي، في واقع الأمر، كان حماية الحجاج من قطاع الطُرق البدو. ابن جبير، الذي أدى فريضة الحج عام 1184، يصف خيمة أمير القافلة العراقية بـ«مدينة مسورة» أو «قلعة منيعة» لها «أربع بوابات شامخة»، يلج المرء

ينقض شهر تشرين الثاني/نوفمبر إلا وكان الوباء قد بلغ أماكن قصبية جداً كمدينة نيويورك. وإذا كانت إجراءات الحجر الصحي (الكارنتينا) التي اتخذتها السلطات العثمانية والحكومات الاستعمارية قد حمت مصر وأوروبا من عواقب العدوى، إلا أن الكوليرا استمرت بالتفشي في الشرق وفي الحجاز، حيث وقعت ثماني حالات وبائية بين عامي 1865 و1892. وكان أسوأها على الإطلاق تلك التي شهدها عام 1893.

وكانت لهذه الزيادة الكبيرة في عدد المشاركين في الحج نتيجة جانبية وخيمة تمثلت في حالات من تفشي وباء الكوليرا على نحو مدمر. ففي عام 1865، قضى وباء مصدره جاوه وسنغافورة على ما يُقدَّر بـ 15 ألفاً من أصل 90 ألف حاج، وذلك قبل أن ينتهي الحج الذي صادف وقوعه في شهر أيار/مايو من ذلك العام. ولم يلبث أن امتد الوباء في الشهر التالي إلى الإسكندرية، حيث لقي 60 ألف مصري حتفهم. ولم





2000 في عرفات، تبدو غير ذات أهمية تقريباً. إن العديد من الحجاج، إن لم يكن معظمهم، يتمون مناسك الحج بزيارة مسجد الرسول في المدينة، حيث مدفن أهل البيت وأزواج النبي والصفوة البارزة من صحابته. في عام 1925، أقدمت المملكة العربية السعودية على إزالة كل المعالم التي تدل على تلك القبور وسوتها بالأرض، وفرضت قيوداً صارمة على زيارتها والصلاة عندها.

حين قضى 33 ألفاً من أصل 200 ألف حاج نجيبهم في جدة ومكة والمدينة. وتواصل مسلسل الأوبئة حتى عام 1912، أي إلى حين أعطلت إجراءات الحجر الصحي الصارمة مفعولها. وبالمقارنة مع أهوال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، فإن الكوارث التي شديتها مواسم الحج في الأونة الأخيرة، من قبيل مصرع ما يزيد عن 400 شخص، معظمهم من الحجاج الإندونيسيين، في الحريق الذي اندلع عام



## مدن متمدنة

الذي عجل بصورة دراماتيكية في احتياط المدينة ومن ثم اضمحلالها. وحين صارت بغداد جزءاً من الامبراطورية العثمانية عام 1534، كانت قد عرفت طعم الإهمال وخمول الذكر رديحاً طويلاً من الزمن.

أُجريت على بغداد تحسينات، وإن على نطاق متواضع، في مستهل القرن العشرين، مع بناء المدارس والمستشفيات فيها. وحملت إليها الطفرة النفطية التي شهدتها سنوات السبعينيات من القرن العشرين الغنى المتزايد، وبغضله شرعت المدينة تتطور على نطاق مذهل، ولاسيما مع إنشاء مناطق سكنية لأبناء الطبقة الوسطى. فمُنِدَّت خطوط جديدة من قساطل المياه ومجاري الصرف الصحي، كما بُنيت فوق الأرض شبكة من الطرقات السريعة، فضلاً عن بناء مطار جديد للعاصمة. ثمة أحد عشر جسراً تربط ما بين شطري المدينة، وقد نُمر العديد منها لاحقاً بفعل القصف الجوي الأميركي في عام 2003. هذا وتمثل ساحة التحرير حالياً، القائمة على الضفة اليسرى للنهر عند أحد طرفي جسر الجمهورية، قلب المدينة الذي تشع منه شوارعها الرئيسية.

وفي ظل حكم صدام حسين الديكتاتوري، أُقيمت مجموعة من النُصب التذكارية الضخمة، ومن أبرزها «قوس النصر»، وهو كناية عن كتلة هائلة من البرونز على شكل ساعدين يتمشققان سيفين قبول إنهما نموذجان عن ساعدي صدام حسين نفسه. وهناك مثل آخر مغاير تماماً لعله ادعى إلى الإعجاب عن الفن النُصبي الحديث؛ ذلك هو «نصب الشهيد» الذي أقيم تخليداً لذكرى القتلى في الحرب الإيرانية - العراقية (1980-1988). صمّم النصب إسماعيل فتحاح، وهو كناية عن قبة ضخمة بصلبية الشكل قُدَّت تصفني وأكسيت غطاءً لماعاً بالأجر الخزفي الأزرق التقليدي. وبصرف النظر عن كل هذه النُصب التذكارية، فإن معظم مشاريع التحسينات المركّسة لبغداد قد توقفت لدى اندلاع الحرب مع إيران في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، ثم حرب الخليج التي تلت غزو العراق للكويت والعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق إثر ذلك. لكن الاستثناء الأبرز الوحيد في هذه القصة من الانحطاط المتجدد، كان القصور الرئاسية، وهي في حقيقة الأمر كناية عن مجمعات شاسعة من المباني تحيط بها الأسوار العالية، وتضمّ مقرات باذخة

## بغداد:

مدينة أسّسها في العام 672 بعد الميلاد أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، وإن كانت المدينة قد بنيت في الأصل على الضفة الغربية لنهر دجلة.

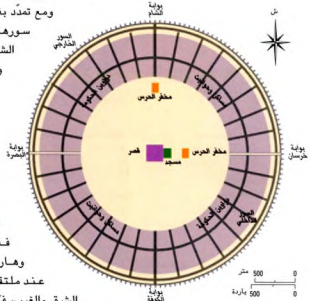
كان اسمها الأصلي «مدينة السلام»، لكن بغداد عُرِفَت بين الشعب بـ«المدينة المدوّرة»، نسبة إلى الجدران الدائرية التي كانت تحيط بها. كان قصر الخليفة والمسجد الجامع ويقومان في نقطة المركز منها تماماً، ومنهما تتشعب أربعة طرقات باتجاه الخارج. وكانت تعلق القصر قبة خضراء يبلغ ارتفاعها زهاء 165 قدماً ويعتليها خيال على سهوة فرسه.

ومع تمدّد بغداد تدريجياً إلى ما وراء سورها الأصلي باتجاه الضفة الشرقية لنهر دجلة، جرى وصل شطري المدينة بجسر من القوارب، وسُمّي الشطر الشرقي منها بالرُصافة.

بلغت بغداد أوجها من حيث الازدهار التجاري والتأثير الثقافي في القرنين الثامن والتاسع للميلاد. فبنى ظل خلافة المهدي وهارون الرشيد، ووقت بغداد عند ملتقى طرق التجارة ما بين الشرق والغرب، فكانت تربط آسيا بأوروبا

وبالعكس. وبسبب من صروحها العمرانية المهيبة وحنانها الغناء، طارت شهرتها بوصفها أغنى وأجمل مدينة في العالم.

في النصف الثاني من القرن التاسع، كانت سلطة الخليفة العباسي قد ضعفت من جراء المشاحنات والمنازعات الداخلية التي كانت تصل أحياناً إلى حد الاحتراب الداخلي. وعندما غزا المغول بغداد في القرن الثالث عشر، قُتل الخليفة ومعه الآلاف من أبناء رعيته. ويومها نُذرت أحياء عن بكره أبيها بعدما انتهت وأُسْرمت فيها النيران. ولحق تخريب واسع بشبكة الري التي كانت تعتمد عليها المدينة وبساتينها، الأمر





**القاهرة في عهد السلطان الناصر (محمد بن قلاوون)**

- مدينة مسورة مستوية بكثافة
- بقايا مأهولة جيداً خارج الأبراج
- بقايا أمت جيداً قيد الاستيطان حالياً
- طرق وروبو
- أسوار

الزخرفة لسكنى صدام حسين أو لاستضافة كبار الزائرين والضيوف، وقد أقيمت بجانبها بحيرات اصطناعية. قبل الإطاحة بالنظام البعثي العراقي عن طريق العمل العسكري الذي أقدمت عليه الولايات المتحدة في العام 2003، كان الدخول إلى هذه المقرات من قبل مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة سبباً رئيسياً للخلاف والجدل ما بين النظام العراقي والمنظمة الدولية.

### القاهرة:

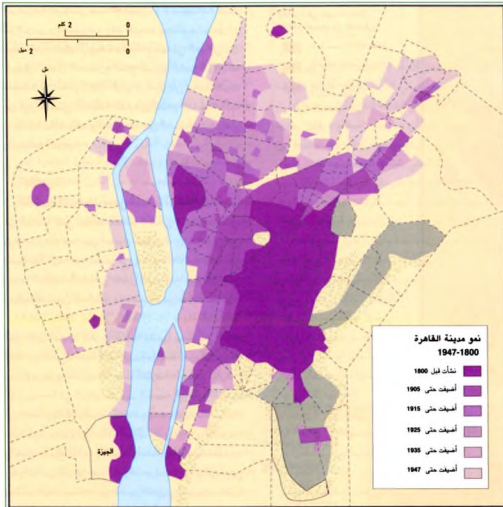
استمدت القاهرة، وتعني الظفيرة أو الغلابة، اسمها من المدينة التي أنشأها القائد الأموي جوهر الصقلي. كان جوهر هذا من أصول صقلية، وربما كان من الصقلية، وقد فتح مصر في العام 969، بالنيابة عن سيده، الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. وشأنه شأن معظم الفاتحين السابقين، اقتطع جوهر مدينة عسكرية منفصلة لجنوده تقع إلى الشمال من مدينة القسطنط التي كان أسسها العرب عندما فتحوا مصر في العام 642. وتضم المدينة الفاطمية، فضلاً عن قصورها ومدارسها ومساجدها، وما أكثرها، الجامع الأزهر، أقدم جامعة في العالم. خرجت المدينة إلى حيز الوجود في العام 970، وفيما بعد تعهدوا أمراء المماليك بالعمارة والتزيين، فبنوا مئات المساجد والأضرحة والخانات والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات)، وسواها من المباني العامة. وقد عرف طرازهم الزخرفي المتميز كيف يستفيد من الحجر الجيري الموجود بكثرة في جبل المقطم كما في أهرامات الجيزة، ولذلك عمدوا في بعض الحالات إلى استخدام الغطاء الخارجي لتلك الأهرامات. وبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على السلطة إثر سقوط الحكم الفاطمي، شيد القلعة المهيبة لسانحية الجنوب، حيث بنى محمد علي، الحاكم الأوتوقراطي إنما المصلح في القرن التاسع عشر، المسجد الكبير على الطراز العثماني الذي لا يزال يُشرف على المدينة القديمة إلى يومنا هذا.

كان أول استيطان لهذه البقعة العظيمة الشأن من الضفة الشرقية لمجرى النيل قبالة الأهرامات، بابلون أو منسف (ممفيس، مصر القديمة حالياً)، حيث أقام الغزاة الفرس حصناً في العام 525 قبل الميلاد لحراسة معبر مهم على نهر النيل. وتعددت المدينة شمالاً باطراد الذي استمر حتى القرن العشرين بإنشاء ضاحية هليوبوليس الصحراوية، حكمه الاتجاه العام لهبوب



**القاهرة في عهد الخديوي إسماعيل (1869-1870)**

- المدينة القديمة
- أضافها إسماعيل
- شرايين جديدة جرى تشييدها للمدينة القديمة
- سكك حديدية



النيل، واستقرار منسوب النهر عند ضفتيه، فضلاً عن وجود جزيرتين كبيرتين هما الروضة والجزيرة، هو ما أتاح للمدينة أن تتوسع وتمتد عبر النهر نحو الجزيرة وأمسياب. وهذا ما جعل القاهرة الحديثة (بسكانها البالغ تعدادهم 18-20 مليون نسمة)، واحدة من أضخم مدن العالم على الإطلاق.

#### طشقند:

إلى حين انهيار الاتحاد السوفيتي في عام 1991، كانت طشقند ذات المليونين ونصف المليون نسمة تقريباً، رابع أكبر مدينة سوفياتية بعد موسكو ولينينغراد وكيبف. لقد دُمّرت المدينة بمعظمها من جراء زلزال عنيف ضربها عام 1966، تتهدم 95 ألف

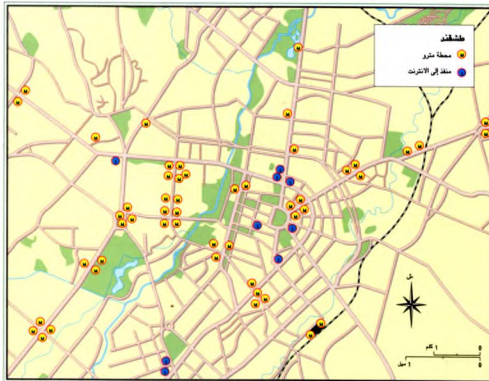
الريح الشمالية بحيث تأخذ معها الروائح الكريهة وأدخنة النفايات المحروقة جنوباً. قبل القرن التاسع عشر، كان ثمة ما يحول دون تمدد المدينة غرباً، وهو السهل الفيضي (الناجم عن ترسيبات الطمي من النهر). لكن أمراء المماليك والولاة العثمانيين بنوا قصوراً بديعة لأنفسهم تحفّ بها الحدائق وتظلّلها أشجار النخيل الوارفة، فيما بقي السواد الأعظم من الشعب يعيش في دروب وأزقة أشبه بالمتاهة داخل أسوار القاهرة القروسطية. أما المدينة ذات النسق الأوروبي بجاداتها العريضة وميادينها الرحبة، فلم ترّ النور إلا في الستينيات من القرن التاسع عشر، وذلك في محاكاة واعية لباريس المعاد تخطيطها على يد البارون هاوسمان. والحال، أن تحسّن نظام التحكم بغيطان

إلّا أنها استعادت شيئاً من ازدهارها وألقها السابق في عهد تيمورلنك وخلفائه. وبالنظر إلى الصراع المحتدم عليها بين الحكّام المتعاقبين، الأوزبك والقازاق والفرس والمغول والأيروت والكالميك، لم تعرف المدينة قط طعم الاستقلال. في القرن الثامن عشر، قُسمت المدينة إلى أربعة أحياء، متخاصمة أو حتى متعادية في بعض الأحيان، إنما تنقسم معاً سوقاً واحدة. استولى عليها الروس في العام 1865، ولم يصل خط سكة حديد ما وراء بحر قزوين إلى طشقند إلّا في عام 1898، بعدما كان عدد سكانها قد ارتفع ثلاثة أضعاف تقريباً، من 56 ألفاً إلى 156 ألف نسمة. شهدت الحقبة السوفيتية عملية تصنيع مكثّفة وتوسّعاً في الأحياء السكنية ذات المتنزّهات والحدائق الوفيّرة. أما المساجد والمدارس وغيرها من المباني الدينية، فأما قُدمت أو حُوّلت إلى مصانع ومخازن أو مطابع. ومنذ الاستقلال والمدينة بأجمعها تعاود التأكيد مجدداً على طابعها الإسلامي، وذلك بتشييد المساجد ذات القباب الساطعة، جنباً إلى جنب المجمّعات التجارية الكبرى والأروقة المقنطرة التي تغص بالسلع الآتية من جنوب شرقي آسيا.

منزل، وأصبح قرابة 300 ألف من سكّانها بلا مأوى. وقد أعيد بناء طشقند كمدينة سوفيتية نموذجية، ذات جادات عريضة وفضاءات عمومية رحبة تزدان بالتوافير الرشاشة، وتتخللها صفوف من المباني العامة والمعالم السكنية المبنية بالخرسانة في هندسة عصرية عالمية، وإن احتفظت بموتيفات أوزبكية تقليدية كالممرات المقنطرة والأروقة ذات الشرفات المكشوفة والأشغال الفيسفاسية والكسوات الخشبية. تمتاز المدينة بمتنزّهاتها الفسيحة وشبكة مترو الأنفاق الحديثة تحتها. عندما صارت أوزبكستان دولة مستقلة في العام 1992، قيل بأن الروس، الذين كانوا يشكلون حوالي نصف عدد السكان، أخذوا يغادرونها بمعدل 700 فرد أسبوعياً. إلّا أن اللغة الروسية لا تزال تتردد على السنة نصف مواطني طشقند على الأقل.

قبل إعادة بناء طشقند، كانت هناك مدينتان متمايزتان فيها: المدينة الإسلامية القديمة، والمدينة الروسية الحديثة، تفصل بينهما ترعة مائية. وقد قيّض لبعض الدروب والأرقة الشبيهة بالمناخ في طشقند القديمة ذات البيوت التقليدية بأفتيتها المظلمة بدوالي

الكرمة البهيجة، أن تنجو من الزلزال المدمر، وطشقند، هو الاسم الأخير من عدة أسماء أعطيت للمدينة القديمة، التي كانت في الأصل مستوطنة نجعية للبدو الرُحّل والتجّار على ضفة نهر شريك، أحد فروع سيرداريا، لما هزم العرب جيشاً صينياً في معركة طلاس عام 751. كانت المستوطنة تُعرف باسم شان، وعُرب الاسم لاحقاً إلى «الشان». وقد أُطبب الكُتّاب العرب في وصفها باعتبارها بقعة مزدهرة تكثرت فيها الكروم وتجعّ بالأسواق والحرفيين العاكفين على أشغالهم بكل مهمة ونشاط. ولغظة «طشقند» التي تعني باللغة التوركية المحلّية «المدينة الحجرية»، ظهرت أول ما ظهرت على نقود معدنية صُنّحت في الحقبة المغولية. ولئن استُبيحت المدينة وانتهت على أيدي المغول،



## وقعُ النفط في القرن العشرين

ذات عمارات شاهقة، ومجمّعات تجارية براقّة، وطُرُقَات سريعة من ستة مجازات، وأحدث أنظمة الاتصالات وأكثرها تطوراً، وغيرها وغيرها من آخر منجزات المدينة الحديثة. لتأخذ المملكة العربية السعودية مثلاً، وكانت فيما مضى إحدى أفقر دول العالم وأقلّها تطوراً؛ لقد أتاح لها اكتشاف النفط في أراضيها أن تؤمّن لسكانها نظاماً رائعاً للرعاية الصحية والتعليم العام.

ومن جهة أخرى، وساهم ذلك في زيادة عدم استقرار المنطقة من جراء ترسّخ أقدام الأنظمة الأوليغارشية القبلية، التي مكّنها إمساكها بمقدّرات النفط من التسيّد على البلاد بواسطة صيغة مركّبة من المحسوبية والقمع.

ولعلّ المثل الصارخ على الأثر المُدمر لسياسة الاعتماد الكلي على النفط هو العراق. فقد غطّته شبكة من العلاقات القرابية يُشرف عليها صدام حسين شخصياً، لم تترك ناحية من نواحي المجتمع إلاّ وامتدت إليها إثر تأميم النفط في العام 1972. لقد تحكّمت تلك الطغمة بتوزيع أذونات الأراضي المصادرة من ملأك الأرض من العهد السابق أو من الخصوم السياسيين، فأقامت مشاريع تجارية وأعمالاً شتى، بما فيها

كان وقعُ النفط والغاز الطبيعي بمثابة نعمة متفاوتة على المجتمعات الإسلامية في غرب آسيا، ولاسيما في منطقة الخليج التي تضم العراق؛ تلك المنطقة التي تحوي ما بين 60 و65 بالمئة من الاحتياطي العالمي المكتشف من النفط. فمن جهة، أتاح ذلك للبلدان المنتجة للنفط أن تبني مدناً عصرية تخب الألباب،



محطة لتكرير النفط في المملكة العربية السعودية. إن 95 بالمئة تقريباً من نفط العالم تُنتج حوالى 5 بالمئة من مجمل أباره النفطية، ويقع ثلثا تلك الأبار في غرب آسيا، حيث تُعدّ المملكة العربية السعودية أكبر منتج للنفط في العالم.

وأوزبكستان وكازاخستان السوفيتية السابقة، تملك احتياطات واعدة من النفط، لكنها لا تستطيع تصدير نفطها من دون ضحّة عبر أنابيب تمرّ في أراضي البلدان المجاورة. ولعلّ السبيل الأجدى من الوجهة الاقتصادية هو ذلك الذي يمرّ في إيران نحو الخليج ويستخدم شبكة الأنابيب الإيرانية القائمة. غير أنّ هذا الطريق يلقى معارضة من جانب الولايات المتحدة لأسباب سياسية، وهي تحبذ مشروعاً أكثر تكلفةً ينتهي عند مصب جيهان على الساحل التركي للبحر المتوسط.

استيراد الأسلحة، ناهيك عن المضاربة بالعمّلات الأجنبية والتلاعب بعلاقات العمل كما يحلو لها، والذي عزّز سلّطتها القسرية هذه، أجهزة المخابرات المتغلّفة في كل مكان، والتي اكتسبت سمعة مخيفة لممارستها أعمال التعذيب والقتل خارج نطاق القضاء، إن الطبيعة السياسية لمنطقة الخليج، كما دلّت عليها ثلاث حروب كبيرة نشبت منذ عام 1980، قد حفزت المتعنين على البحث عن مصادر بديلة للنفط في مناطق إسلامية أخرى، وبالتحديد في آسيا الوسطى وبحر قزوين. فدول مثل أذربيجان وتركمنستان



## الموارد المائية

ناصر، ممسكاً بزمام النهر بإحكام من خلال تخزينه مياه الفيضان في ما يُعدّ حالياً أضخم خزان اصطناعي للمياه في العالم. يرى بعض الخبراء أنه ستكون للسدّ العالي عواقب وخيمة بعيدة المدى على البيئة فالسدّ يحول دون وصول العناصر المغذية التي تحملها مياه النهر من المناطق الاستوائية، مما يزيد في درجة ملوحة التربة ويقلص الثروة السمكية في شرق البحر المتوسط والسودد التي أقامتها تركيا على نهر الفرات. لم تكن بأي حال أقلّ إشارة للجدل والمشاكل. فسّد كيبان (1975) وسدّ كراكايا (1987)، وكلّ منهما معدّ لاحتزان حوالي 30 مليون كيلومتر مكعب من المياه بغية توليد الطاقة الكهربائية وتنظيم جريان مياه النهر. قد مولا جزئياً بقروض من البنك الدولي. غير أن البنك نفسه رفض الإسهام في بناء سدّ أتاتورك الأضخم حجماً. البالغة سعته التخزينية زهاء 46 مليون كيلومتر مكعب، لأنّ سورية والعراق اللتين يعبر مجرى النهر السفلي أراضييهما، امتنعتا عن الموافقة على المشروع. لقد خفّضت السودان التركية ومشاريع الري المرتبطة بها من تدفق نهر الفرات بمقدار النصف تقريباً، من 30 مليون متر مكعب إلى ما دون 16 مليون متر مكعب في السنة. وفاعاً عن موقعها، تدعى تركيا أن متوسط استخدام البلدين من مياه النهر لم يتعدّ قط 15 مليون متر مكعب سنوياً، وبالتالي ليس ثمة من ضرر يصيب أيّاً منهما. كذلك تعكف تركيا على تطوير نهر دجلة من خلال سلسلة من المشاريع التي قد تفضي إلى انخفاض حجم التدفق المائي، إنما مع تحسّن في مستوى الاعتمادية. فالعراق هو المستفيد الأكبر من نهر دجلة، وأيّ نقص يحصل في تدفق مياه الفرات نتيجة الأشغال الهندسية التركية قد يتقلب نفعاً له من خلال تطويره مياه دجلة. وربما لا تتجلى قضية إدارة المياه المشحونة بكل عوامل التفجير كأوضح ما يكون للعيان مثلما تتجلى في الجدول الدائر حول اقتسام مياه نهر الأردن، النقطة المفصلية في النزاع العربي - الإسرائيلي. فعاهدة السلام المبرمة بين إسرائيل والأردن في تشرين الأول/أكتوبر 1994، تتضمن بنداً ينصّ على تزويد الأردن وعلي مراحل بكمية 200 مليون متر مكعب من المياه سنوياً، على أن يؤمّن جزء من هذه الكمية من الموارد المائية الإسرائيلية الحالية، والجزء المتبقي من مشاريع التطوير المشتركة، وخلال المفاوضات

لطالما كان للماء، وفرته أو ندرته، أعمق الأثر في تلك المناطق التي شكّل قلب العالم الإسلامي. ففي مصر الغابرة، ائتمرت عدة قرون من الخبرة الإنسانية في التحكم بفيضان النيل السنوي وتصريفه عبر منظومة معقّدة من ري الحياض، تلك الهندسة المدرّجة فائقة الدقّة للأهرامات. وفي بلاد ما بين النهرين، كما في مصر، كانت الدولة بكلّ بنائها البيروقراطية اللازمة لممارسة السُلطة والسيطرة، هبة النهرين بالذات. وفي الجزيرة العربية، احتلت قحولة الأرض وقيمة المياه مكانهما كمفردتين أساسيتين في لغة الإسلام. ففي القرآن، المطرّ النادر والتمين، الذي يجعل الصحراء تزهر ما بين ليلة وضحاها، إن هو إلا آية من آيات الله، واستعارة مجازية تُستخدم للبعث والنشور: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربّت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ (سورة فصلّت، آية 39)، والمعنى الجذر للفظّة «الشرعية»، هو السبيل أو المجاز إلى حيث الإرواء، مصدر البقاء والنقاء. وهناك معجم عربي من القرن الثامن عشر يُشبهُ الشريعة بالماء السلسيل، الذي يروي ظمأ الإنسان ويُظهره من خلال الصوم والصلاة والحجّ والزواج. لقد كانت إدارة الماء مفتاحاً أساسياً للنجاح أو الفشل بالنسبة للحكومات الإسلامية في الماضي. ففي منطقة أعالي الفرات، حرص الخلفاء العبّاسيون على ترميم وتوسيع قنوات المياه الجوفية التي بناها الساسانيون، مما أتاح لهم إضافة مساحات جديدة قابلة للزراعة. وبالعكس، فإن إهمال منظومة الري في العصور اللاحقة عجلّ بتدهور أوضاع تلك الدولة اقتصادياً وسياسياً.

هذا وتدعى إدارة المياه عاملاً مفصلياً في تطور مصر الحديثة. فتحت حكم أسرة محمد علي، بُنيّت أولى السدود وخرّانات المياه للسيطرة والتحكم بفيضان النيل، مما وسّع رقعة الأرض الزراعية وسمح باستخدام المنبسط الفيضي الواقع ما بين القاهرة والجزيرة لإقامة مدينة جديدة على الطراز الأوروبي تتخللها الميادين والحدائق العريضة. وجمال عبد الناصر، الزعيم القومي الكاريزمي الذي أطاح بالملكية في عام 1952، عجلّ بحدوث أزمة السويس عام 1956 عندما أقدم على تأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة تمويل السدّ العالي في أسوان. والسدّ الذي بُني بمساعدة سوفيتية، يرضح اليوم عند بحيرة





التمهيدية بين إسرائيل والفلسطينيين المعروفة بـ«أوسلو - 1» (1993) و«أوسلو - 2» (1995). أُدرجت قضية المياه في المباحث بوصفها إحدى المسائل الحاسمة الخمس، إلى جانب الأراضي، والقدس، والاستيطان اليهودي، واللاجئين. ومع استمرار الانتفاضة وإنهيار ما يُسمى بـ«خريطة الطريق» التي رعتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وروسيا، بقيت هذه المسألة من دون حل. بيد أن واقعة أن التشارك في المياه يُمكن أن يندرج في صُلب المفاوضات لترسم لنا بالذات حقيقة مهمة للغاية، وهي أن المصدر الرئيسي للمياه في اقتصادات المنطقة، الإسرائيلي والفلسطيني والسوري والأردني، سواء في الحاضر أم في المستقبل، إنما يقع خارج المنطقة على شكل «مياه افتراضية».

«المياه الافتراضية» مفهوم يستخدمه الاقتصاديون والخبراء الهيدرولوجيون للإشارة إلى كميات المياه اللازمة لإنتاج الغذاء المستورد، كمادة القمح مثلاً، من مناطق غنية بالمياه مثل أميركا الشمالية، فكل طن من القمح أو أية سلعة غذائية أخرى مماثلة، يحتاج إنتاجه إلى ألف ضعف حجمه من المياه على وجه التقريب. وباحتساب معدل استيراد الحبوب إلى غرب آسيا وشمال إفريقيا، يتبين أن المنطقة أخذت في «استنفاد» ما لديها من مياه منذ سبعينيات القرن الماضي. غير أن هذا لم يقض إلى حدوث مجاعات. ذلك أن بلدان المنطقة إذ تستورد القمح وسلعاً غذائية رئيسية أخرى من مناطق حيث مياه التربة ورطوبتها عاليتان، فإنما تلعب نفسها من «المياه الافتراضية» الشاوية في المواد الغذائية التي تستوردها. وطبقاً لهذا التحليل، فإنه لمن الأجدى اقتصادياً وأكثر معقولة أن يُصار إلى استيراد الغذاء محسوباً بـ«المياه الافتراضية»، من إنتاجه محلياً. لنأخذ مثلاً: المملكة العربية السعودية فإنها تستخدم مياهاً أحفورية من الطبقات الصخرية الحاملة للمياه غير القابلة للتجدد من أجل زراعة القمح بكميات ضئيلة. لكن الثمن باهظ جداً. ففي عام 1989، دُع للمزارعين السعوديين 533 دولاراً أميركياً للطن الواحد بغية إنتاج قمح متوافر في الأسواق العالمية بسعر 120 دولاراً فقط. إن النظام العالمي للتجارة بالحبوب قادرٌ على تسليم 40 مليار متر مكعب من «المياه الافتراضية» الشاوية في حبوب مستوردة من دون أي إجهاد ظاهر. ولا أظن أن هناك نظاماً هندسياً يُمكنه تعبئة عُشر هذه الكمية بالدرجة عينها من المرونة.

## تجارة السلاح

أيضاً، في «وحدات الغوركا النيبالية» لدى بريطانيا، و«الفيلق الأجنبي» لدى فرنسا على سبيل المثال لا الحصر. وعلى النسق عينه، ثمة دول إسلامية استحدثت لنفسها وحدات عسكرية من النخبة تقترناً وثيقاً بحكامها، كما هي الحال، مثلاً، مع الحرس الثوري الإيراني (باسدران انقلاب)، أو السلاح الجوي الملكي الأردني. إلا أن هذه، هي الأخرى، لا تعدو كونها ممارسة ثقافية هجينة.

وأشكال منظومات السلاح متعددة، فهي تشمل المدفعات، والطائرات، والسفن الحربية، والصواريخ، وفي بعض الحالات القليلة الأسلحة الكيميائية والنوية. وجميع أنواع الأسلحة هذه نشأت وتطوّرت

العناصر الأساسية للقوات المسلحة الحديثة ثلاثة، هي: أنواع السلاح المستعمل؛ مصادر التزوّد بالسلاح؛ وتنظيم الأتاس المطلوب منهم استخدم ذلك السلاح. والقوات المسلحة للدول ذات الأغلبية السكانية المسلمة لا تملك في العادة إلا خصائص قليلة تميّزها عن سواها وتطبعها بالطابع الإسلامي.

فهذه الدول كافة تملك قوات مسلحة مننظمة قوامها موظفون ومستخدمون بدوام كامل، وهي مرتبة وفق هيكلية عسكرية تبلورت في أوروبا خلال القرن الثامن عشر إنما جرى تكيفها بما يتماشى وطبيعة العتاد العصري، بما في ذلك الطائرات. فالمصطلح العسكري «سكادرون»، الذي كان يُستخدم تاريخياً للدلالة على



«شاهين -1»، صاروخ باكستاني أرض - أرض، يستطيع حمل أي نوع من أنواع الرؤوس الحربية، بما فيها النووية، إلى مسافة 434 ميلاً (حوالي 700 كيلومتر). التقطت هذه الصورة في تشرين الأول / أكتوبر 2003، في وقت بدت فيه محادثات السلام الجارية مع الهند حول المنطقة المتنازع عليها من كشمير. وكانها على وشك الانهيار.

مجموعة صغيرة من السفن (عمارة أسطول)، أو على شريطة من الفرسان (سرية خيالة)، بات يطبق على الطائرات (سرب طائرات)، وحتى البرزات العسكرية، فإنها تجدها هي الأخرى ذات تصاميم أوروبية طاغية. إن القوات المسلحة لجميع الدول مشربة بالثقافات التي أوجدتها، والقوات المسلحة في الدول الإسلامية ليست استثناءً عن هذه القاعدة. لكن التقاليد الإسلامية يمكن تلمسها في زّي الوحدات وأعلامها أو شعاراتها. فبعض الدول، ولا سيما الدول الصغيرة في الخليج مثلاً، تستفيد من خدمات المرتزقة على نطاق واسع. لكن هذه الممارسة القديمة العهد والهجينة ثقافياً يمكن العثور عليها في غير الدول الإسلامية

الدول الإسلامية، من المغرب إلى إندونيسيا. تدور بمعظمها حالياً في فلك الولايات المتحدة. وتبعاً لذلك، تميل تلك الدول إلى تدريب وتنظيم قواتها المسلحة على النسق الأميركي. وهذا التفوذ يحدُّ باطراد محل نظيره البريطاني أو الفرنسي أو الروسي السابق، إلا في حالتيّ سورية وليبيا، حيث أسلحة وتنظيمات الحقبة السوفييتية لا تزال ملموسة إلى حد بعيد. ربما تكون إيران استثناءً لجهة تطويرها مركزاً مستقلاً لها على الصعيد العسكري. إلا أن هذا المركز ما برح ضعيفاً وفي أولى مراحل نموه. ثمة من بين أعضاء الحكومة الإيرانية من يُعلن أن الأسلحة النووية تتنافى ومبادئ الإسلام. صحيح أنك تلمس مشاعر وآراء مماثلة يُعبر عنها في البلدان المسيحية، إلا أنه نادراً ما تجدّها داخل الحكومة.

إلى ما هي عليه الآن من قبل الدول الصناعية إبّان الحرب العالمية الثانية. والدول الإسلامية بعامةً تدرج في عداد البلدان النامية، إذ لا تملك أي منها قاعدة صناعية متقدمة. مما يعني أنها مضطرة إلى استيراد منظومات أسلحتها الرئيسية كافة من الخارج. والاستثناء هنا نوعان: الأول، إن البنادق والمسدسات وبخائنها وسواها من الأسلحة الصغيرة يتم صنعها بكميات وفيرة؛ والثاني، إن وضع دول ما لها حلفاء أقوياء، مثل باكستان وتركيا ومصر، تحظى بقدر من المساعدة الخارجية في تطوير صناعة خاصة بها لإنتاج الأسلحة. ويعتقد أن باكستان قد حصلت على مساعدة تقنية من الصين في تطوير برنامجها النووي. وعلى شاكلة القسم الأكبر من دول العالم، نجد



## إضاءة سريضة: جنوب شرقي آسيا 1950 - 2000

الشرقية، وكذلك في جنوب جُزُر سيلانيزي. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2002، انفجرت قنابل (يُزعم أن أعضاء من منظمة «القاعدة» هم الذين زرعوها) في حانة ليلية على جزيرة بالي، مما أسفر عن مقتل 200 شخص وجرح 300 آخرين.

تلك ماليزيا استقلالها في العام 1957 وشكلت اتحاداً يضم الملايو وسنغافورة وصباح وساراواك. وقد انسحبت سنغافورة من الاتحاد في العام 1966 واعتنقت سياسة للحكم متعدد الأعراق والديانات؛ فيما يُعتبر الإسلام، على النقيض من ذلك، دين الدولة الرسمي في ماليزيا. منذ ما قبل تأسيسها، وحالات

شهدت أواخر الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين ظهور تشكيلة متنوعة من الدول في جنوب شرقي آسيا. تتألف المنطقة، في الوقت الحاضر، من جمهورية إندونيسيا واتحاد ماليزيا وسلطنة بروناي، حيث المسلمون أكثرية؛ ومن جمهوريات سنغافورة والفلبين وميانمار (الجمهورية الاشتراكية للاتحاد البورمي)، ومملكة تايلاند، وجمهورية لاو الديمقراطية الشعبية (لاوس)، وجمهورية كامبوتشيا الشعبية (كامبوديا)، وجمهورية فييتنام الاشتراكية، حيث المسلمون أقلية.

تميز انخراط المسلمين في تكوين وتطوير عدد من هذه الدول على مدى السنوات الخمسين الماضية

بفتيات صغيرات في أتشيه بإندونيسيا يتعلمن القرآن. كانت أتشيه، تاريخياً، مركزاً للمقاومة الإسلامية ضد الحكم الاستعماري الهولندي، وهي اليوم المقاطعة الإندونيسية الوحيدة التي أعادت العمل بالشرعة الإسلامية كأساس للقانون العام.



بالاعتدّ والتنوّع. وقد تخلّلتها، جزئياً، سلسلة من الاتعاعات التي شملت مسلمين من شتى التوجّهات والتطلّعات.

فشكلت جمهورية إندونيسيا مثلاً في الفترة 1949 - 1950، اقترن بانتفاضات (1948 و 1953) قام بها عدد كبير من المسلمين في غرب جاوه وجنوب جُزُر سيلانيزي (سليبيس) وأتشيه (شمال سومطرة). لأن زعماءهم لم يرق لهم القرار المتخذ بتقييد دور الإسلام في الجمهورية الوليدة. وفي السنوات الأخيرة كذلك، شهدت إندونيسيا ولا تزال سلسلة من النزاعات المحلية والإقليمية والدولية التي للمسلمين ضلعٌ فيها. فما بين عامي 1999 و 2000، اندلع صراعٌ بين المسلمين والمسيحيين في جزر الملوك (ملوكي) الإندونيسية

الانفصال عن دولة الفلبين، وإلى إقامة وطن مستقل للمسلمين الفلبينيين. كما سعت حكومات فيلبينية متعاقبة إلى التوصل إلى تسويات مع المسلمين في المنطقة. والمسلمون في تايلاند يتركزون بالدرجة الأولى في ساتون، شمال غربي البلاد، وفي الأقاليم الجنوبية: باتاني ويولا وناريثوث، المحاذية لماليزيا. وقد بلغت مقاومة المسلمين للدولة التايلاندية المتخذة شكل نضالات مسلحة ودعوات انفصالية، ذروتها في عقد التسعينيات من القرن العشرين. أما المسلمون في ميانمار (بورما)، فهم يقطنون غالباً في منطقة أراكان على حدود البلاد مع بنغلادش، وما انفكوا منذ خمسينيات القرن المنصرم في نزاع متواصل مع السلطات هناك حول وضعهم القانوني.

التوتر دائمة الحدوث بين سكان ماليزيا الصينيين والملاويين، حتى إن إحداهما انفجرت على شكل أعمال شغب عرقية في عام 1969. وحيث إن الملاويين مسلمون ويشكلون الغالبية العظمى من سكان البلاد، فإن مثل هذه النزاعات بين فئات المجتمع المختلفة لا بد من أن تأخذ بعداً دينياً. غير أن ماليزيا تشهد كذلك توتراً داخل المجتمع الإسلامي نفسه يستمر معه المسلمون في مناقشة طبيعة دور الإسلام ومداه في شؤون الحكم.

وفي الفلبين، يتواجد المسلمون (أو «المورو» كما يُسمون في كثير من الأحيان) أكثر ما يتواجدون على جزيرة مندناو وأرخبيل سولو. وقد رأينا المسلمين هناك يدعون في أوائل السبعينيات من القرن العشرين إلى



## إضاءة سريعة: العراق 1917 - 2003

السكان هم من الآكراد، ويتواجدون أساساً في شمال البلاد. خلال السنوات الأخيرة من الحكم العثماني، انبثقت حركة تدعو إلى الاستقلال بين ضباط الجيش وأعيان المدن، أجتهدوا مشاريع عربية جيّاشة. وحين منحت بريطانيا، التي كانت احتلت بغداد عام 1917 ونصّبت حكومة عسكرية في البصرة، تفويضاً بالانتداب على العراق في مؤتمر سان ريمو عام 1920، واجهت سلسلة من الثورات شارك فيها موظفون سابقون في الإدارة العثمانية وملاك عقاريون وزعماء عشائر ورجال دين سُنّة وشيعة، وكذلك ضباط عسكريين. ردّ الإنجليز على ذلك بإقامة ملكية دستورية على رأسها فيصل بن الحسين، أحد أبناء شريف مكة، الذي كان الفرنسيون قد أخرجوه عنوة من دمشق. وقد انتهى الانتداب البريطاني في عام 1932، حين قبل العراق عضواً في عصبة الأمم، لكن بريطانيا احتفظت بقواعد جوية لها في الشَّعبية والحبانية، وحصّة حاكمة في شركة نفط العراق التي باشرت بتصدير النفط في عام 1934. ولشأن أدخلت التخبطة العراقية في الحكومة، لأنها ظلت منقسمة على نفسها تتنازعها مختلف المصالح الفئوية والعشائرية، في حين عملت الاضطرابات في فلسطين الناجمة عن الهجرة اليهودية على إلهاب الحس القومي والمشاعر المناوئة للإنجليز. وقد أدى انقلاب عسكري موالٍ للمحور قامت به مجموعة من الضباط القوميين عُرفت بـ«المرجع الذهبي»، إلى احتلال البريطانيين بغداد والبصرة للمرة الثانية في عام 1941.

وتسببت أزمة السويس عام 1956، وانضمام العراق إلى «حلف بغداد» الذي يضم تركيا وإيران وباكستان، والموالي للغرب والهادف إلى احتواء النفوذ السوفييتي، بحادث توترات شديدة ما لبثت أن انتهت بقيام ثورة تمكنت بدعم شيوعي من الإطاحة بالنظام الملكي في عام 1958. غير أن الحكم العسكري الجديد نفسه استُبدل في عام 1963 (ومرة أخرى في عام 1968) بضباط ينتمون إلى حزب البعث العلماني التوجّه. وفي ظل صدام حسين التكريتي (نائب رئيس الجمهورية الفريق أحمد حسن البكر، ورجل النظام القوي قبل زمن طويل من تبوّه سدة الرئاسة في عام 1979)، سخرت عشيرة البوضهر من تكريت جهاز حزب البعث على

شأن معظم الدول العربية، أصبح العراق دولةً مستقلةً بعد انفراط عقد الأباطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد واجه منذ البداية مشاكل جمة في بلورة شعور موحد بالهوية القومية. صحيح أنه كان تحت حكم العثمانيين المتمسكين بالمذهب السنّي، إلا أن أغلبية السكان العرب (حوالي 60 بالمئة) هم من الشيعة الذين تربطهم وشائج دينية وثقافية قوية بإيران المجاورة، حيث المذهب الشيعي هو عقيدة الدولة الرسمية منذ القرن السادس عشر. وزهاء ربع

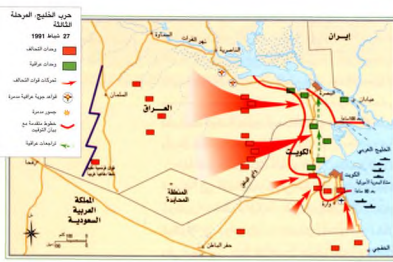




المنازل المحمول به في بلدان أوروبا الشرقية لبناء مراكز قوى مهولة أساسها توليفة مركبة من المصنوعية والإكراه. وقد أثبت نظام الحكم هذا أنه منيع وصامد على نحو لافت للنظر. وعمل ما في وسعه لخلق شعور بالهوية الوطنية العراقية. أساسه التراث العربي - الإسلامي والتراث «الرافدي» ما قبل الإسلامي. مع توظيفه للتقنيات الأثرية والفولكلور والشعر والفنون على أنواعها لتعزيز حسّ الفريدة والتمايز العراقيين. وجرى التنكيل بالأكراد على نحو وحشي، فدمرت نحو من ألف قرية وأزهقت أرواح آلاف المدنيين بالغازات السامة. هذا بينما وقف الشيعة، على وجه العموم، إلى جانب الحكومة في حربها الكارثية مع إيران (1980-1988)، وإن كانت هناك معارضة لا يُستهان بها من جانب حزب الدعوة الذي أسسه رجل الدين المغدور آية الله محمد باقر الصدر في ستينيات القرن العشرين. وفي أعقاب قيام تحالف دولي بطرد العراقيين من الكويت في عام 1991، اندلعت انتفاضة شيعية في عدد من المدن الجنوبية، من بينها البصرة والنجف وكربلاء، لكنها سرعان ما أُخمدت دونما رحمة بالرغم من وجود القوات الأميركية في المنطقة. وفي حملتها لاستئصال شائفة المعارضة بكل صورها، أقدمت الحكومة العراقية على تجفيف المستنقعات الجنوبية (الأهوار) التي يقطنها الشيعة؛ في حين وجد الأكراد في المظلة الجوية للقوات المتحالفة حماية فعّالة لهم.



وخلافاً لكل التوقعات، لم تحمل الغنويات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد احتلاله الكويت سوى على تشديد قبضة النظام الحاكم على المجتمع العراقي، وأغنت أكثر فأكثر الشبكات التي يسيطر عليها صدام حسين وإنشاده من خلال احتكارهم صادرات النفط غير الشرعية وبرنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء». وقد اكتمل سقوط النظام إثر الهجوم الأنجلو - أميركي على العراق في آذار/مارس 2003، بالقبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر من نفس العام. إلا أنه من غير الواضح بعد ما إذا كان الأميركيون سينجحون في تحقيق هدفهم المعلن، ألا وهو إقامة نظام حكم ديمقراطي يحظى بالقبول لدى جميع فئات الشعب العراقي.



## إضاءة سرية: أفغانستان 1840 - 2002

(1919)، مُنّبِق مبدأ الاحتراف في الجيش، كما أدخل التعليم الحديث إلى البلاد، وقام ابن حبيب الله وخلفه آسان الله (ح 1919-1929) بدفع عجلة التحديث، فأشراطاً إلى الأمام باجتراحه تغييرات تشريعية كبيرة، بما في ذلك تحريم العبودية. وشرع يسمح بتعليم النساء، وعُدل من وضعيتهن القانونية بأن منحهن حقوقاً متساوية في الزواج والطلاق والميراث، كذلك اعتمد اللباس الغربي في البلاط. فأثارت تلك الإصلاحات حفيظة بعض العلماء وزعماء القبائل المحافظين المنتهين إلى الطريقة النقشبندية، فناروا على آسان الله وأجبروه على ترك البلاد إلى المنفى في عام 1929.

وآل الأمر بعد آسان الله إلى القائد العسكري البشتوني نادر شاه (ح 1929-1933)، فأعاد خلفه ظاهرشاه (ح 1933-1973) العمل بالحاكم الشرعية، وكأف قبائل البشتون التي كان يعول عليها بإغداق المناصب الحكومية على زعمائها، وغض الطرف عن ممارسة التمييز المفرط ضد أبناء البلاد من غير البشتون في توزيع الثروة. وفي الوقت عينه، استؤنف برنامج التحديث إنما بشكل معدّل، اضطلعت الدولة فيه بالدور الرئيسي في التنمية الاقتصادية. ويفعل الضغوط الاستراتيجية الناجمة عن مغاميل الحرب الباردة والنزعة القومية البشتونية للنظام التي ولدت توترات حادة مع الدولة الجارة: باكستان، اقرب طرف ناضد في النخبة البشتونية من موسكو. وآلت هذه العملية إلى عزل ظاهر شاه على يد ابن عمه، رئيس الوزراء الأسبق محمد داوود، بدعم من بعض الدول المجاورة. ألقى داوود الملكية، وأعلن نفسه رئيساً لجمهورية أفغانستان. ردّ السوفييت بتدبير انقلاب عسكري قاده حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، الشيوعي، وأدت هذه الخطوة إلى تدخل سوفييتي مباشر في عام 1979 لمساندة جناح «برشام» (غير البشتوني) في حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني بزعماء بآبارك كارمال. والجهاد الذي تبع ذلك، ونال دعم بعض الدول العربية، إضافة إلى باكستان

أفغانستان بلاد جبلية تكثُر فيها الأودية السحيقة والبوادي والنجود القاحلة: وهي لم تُشكّل في أي وقت مضى كياناً سياسياً واحداً وإن دخلت أجزاء منها ضمن دولة البشتون التي أسسها أحمد شاه دوراني والتنوع، يُمثّل البشتون، وهم أكبر مجموعة عرقية - لغوية فيهم، حوالي 47 بالمئة وتتركز هذه المجموعة السكانية في الهزام الجنوبي من المناطق المحاذية للحدود مع باكستان. أما الطاجيك، وهم ثاني أكبر مجموعة سكانية من حيث الحجم (حوالي 35 بالمئة)، فيعيشون أساساً في شمال البلاد، إلى جانب الأوزبك والتركمان والقرغيز (8 بالمئة)، فيما يُمثّل الهزارة، وهم من الشيعة الإمامية، نحواً من 7 بالمئة من السكان.

ونتيجة الصراع بين الإخوة، تفككت أوصال الدولة الدورانية في القرن التاسع عشر، وقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام التدخل الروسي والبريطاني. فاهتمام بريطانيا بحماية إمبراطوريتها من التعديبات الروسية، حفزها على اجتياح أفغانستان مرتين: الأولى في الفترة 1839-1842، والثانية في الفترة 1879-1880. ونظراً لحاجتها إلى حكومة مركزية قوية لتثبيت وجود أفغانستان دولة عازلة في وجه الروس، نصّبت بريطانيا «الأمير الحديدي» عبد الرحمن خان (ح 1880-1901)، فوطد هذا الأخير سلطانه على البلاد بشنّه حرباً ضد الهزارة الشيعة وقام بحملات هداية قسرية لأهالي كفرنستان الأصليين من غير المسلمين. وفي خطوة لم يسبق لها مثيل، أعلن عبد الرحمن أنه يحكم بموجب حق إلهي وليس بتفويض قبلي. فمُورست سياسة تمييزية ضد كل من هو غير البشتون وأرقق كاهلهم بالحصار الجائفة.

أياً كان الأمر، فقد أدخلت أيضاً عناصر الدولة الحديثة إلى أفغانستان، وفي مقدمتها تكوين جيش مركزي استُخدم لإخماد تمردات القبائل، ونُظمت الحكومة في دوائر رسمية منفصل بعضها عن بعض. وفي عهد ابن عبد الرحمن، حبيب الله (ح 1909-



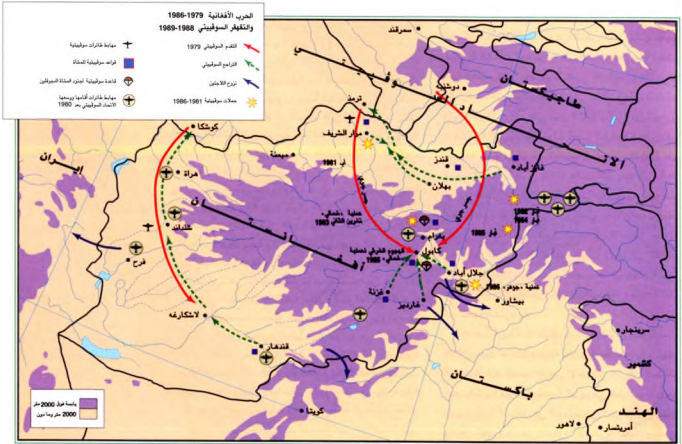
أفغاني يحمل قذيفة إلى خط الجبهة. سوف يتلقى هؤلاء المقاتلون في وقت لاحق صواريخ «ستينغر» أرض - جو وهذا السلاح على خفة وزنه وقابليته للحمل، يحتوي على أجهزة إلكترونية بالغة التعقيد لتتبع الهدف. وقد تزود المقاتلون سراً بهذا الصاروخ عن طريق دائرة الاستخبارات الباكستانية، وكان له أثر مدمر على الاحتلال السوفييتي، وأتاح لرجال قبائل غير مدرّبين أن يُسقطوا طائرات هليكوبتر حربية.



الملا محمد عمر. وبعد أن تمت لهم السيطرة على كابول في عام 1994، منع الطالبان النساء من الذهاب إلى المدارس أو الخروج إلى أماكن العمل، وارتكبو فظاعات بحق أبناء قبائل الهزارة الشيعة، ودفعوا بإيران إلى حافة التدخل العسكري عندما أقدموا على قتل تسعة من دبلوماسيها.

وفي أعقاب الهجمات على نيويورك وواشنطن في

والولايات المتحدة، اجتذب متطوعين من العديد من البلدان الإسلامية، وكان من ضمن هؤلاء المتطوعين: الثري أسامة بن لادن الذي تزعم فيما بعد شبكة القاعدة. وبواسطة صواريخ ستينغر المضادة للطائرات التي زودتهم بها الولايات المتحدة، أجبر المقاتلون الاتحاد السوفييتي على سحب جنوده من أفغانستان في عام 1989. غير أن النضال ضد السوفييت بدلاً من



11 أيلول/سبتمبر 2001 من جانب إرهابيين قبل بأنهم ينتمون إلى شبكة القاعدة بزعامة بن لادن، أطاح الأميركيون بنظام طالبان في خضم حملة من القصف الجوي المكثف، والزعيم البشتوني الجديد، حميد كرزاي، الذي نصبته الولايات المتحدة رئيساً للبلاد إثر المؤتمر الدولي حول أفغانستان المنعقد في برلين، يمت بصلة قرابة إلى ظاهر شاه.

أن يولد شعوراً بالوحدة الوطنية، جاء ليُقاوم من حدة الشقاق والتنازع بين المجموعات العرقية المختلفة، لاسيما وأن المؤسسات المركزية للدولة كانت قد أخذت في الانحلال. والاقْتتال الفئوي الذي أعقب الانسحاب السوفييتي وانتهيار نظام الحكم الماركسي للجنرال نجيب الله في عام 1992، فتح الباب واسعاً أمام مجيء نظام طالبان البشتوني بزعامة حليف بن لادن الوفيق:

## الجزيرة العربية والخليج 1839 - 1950

وثيوني، بإصدارهم مرسوماً يقضي بأن تعوَّض زنجبار التي ورثها ماجد، على مسقط التي ورثها ثيوني، لفقدان هذه الأخيرة العائدات من جراء تقسيم السلطة بينهما. والذي حَضَّ بريطانيا على التدخل في منطقة الخليج إلى الشمال من مسقط، الحاجة إلى مكافحة القرصنة المستفحلة فضلاً عن شيوخ الاسترقاق هناك. وهكذا، وقَّعت سلسلة من المعاهدات ما بين عامي 1835 و 1853 وافق بموجبها شيوخ القبائل العربية المستفحلة في البحر، التي كانت تعيش على الغنائم المنتزعة من السفن العربية وحتى البريطانية، على عقد هدنة تُنهِي كل أعمال القرصنة، والموافقة في الوقت عينه على حظر تجارة العبيد، وترك أمر الإشراف على مدى التقيد بالموثيق البحرية الهندية البريطانية، وقد حمى نظام التحالف هذا صناعة صيد اللؤلؤ في الخليج، كما عاد بالفائدة على الملاحة العربية التي طالما عانت أكثر من غيرها من انعدام الأمن والطُمأنينة بسبب القرصنة، مما كان يحمل التجَّار المحليين على نقل بضائعهم بواسطة السفن البريطانية الأفضل تسليحاً والأمن حياً. ودويلات الساحل المتصالح (دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً) ظلَّت بحكم المحميات البريطانية حتى عام 1971، ترفدها بريطانيا بالضباط وتُشرَف على سياستها الخارجية.

وسَّعت بريطانيا نطاق نفوذها ليشمل الكويت عام 1896، حيث أقامت حماية غير رسمية لحماية وكيلها، الشيخ مبارك الصباح، من الاحتلال التركي المباشر. ووصفتها قوة رئيسية كبرى في المنطقة، راحت بريطانيا تتدخل في العديد من النزاعات المحلية وتدخل تعديلات على الحدود المتنازع عليها، وتحاول ضمان استمرارية الوراثة. وأبرز حالة تستحق الذكر في هذا الصدد، النزاع الذي نشب بين أبو ظبي وعمَّان والمملكة العربية السعودية على واحة البرُيحي. وقد فُض النزاع بقيام قوات الساحل المتصالح العُمانية بقيادة بريطانيا بإخراج السعودية من الواحة في عام 1955. كما أن مطالبة العراق بالكويت (التي تعود إلى أيام العثمانيين حين اعترف الشيخ رسمياً بالسيادة العثمانية على بلاده) قاومتها بريطانيا بأن أرسلت جنودها إلى الكويت لضمان استقلالها في عام 1961.

التاريخ الحديث للجزيرة العربية والخليج عبارة عن نسج معقد من التفاعلات بين القوى المحلية على الأرض من جهة، والقوى الإقليميه والدولية من جهة أخرى. وقد تصاعفت الرهانات تضاعفاً هائلاً بوجود النفط واعتماد الاقتصادات الغربية، بالإضافة إلى الانتعاش الياباني، على الإمدادات المنتظمة التي يُمكن تأمينها منه. وإلى حين اكتشاف النفط في المنطقة، كانت في الأغلب الأعم منطقة فقيرة (فما خلا مركزيَّ صيد اللؤلؤ في الكويت والبحرين وميناء مسقط التجاري)، ولا أهمية كبيرة لها بالنسبة للعالم الخارجي. بيد أن بريطانيا كانت في حاجة إلى حماية إمبراطوريتها الهندية من خصوم أو منافسين محتملين، بمن فيهم روسيا القيصرية والسلطنة العثمانية وإيران، لذلك أقدمت على احتلال عدن في عام 1839، التزم سرعان ما أصبحت محطة حيوية للتزوُّد بالقمح (وفيما بعد مستودعاً لإعادة التزوُّد بالوقود) في الطريق إلى الهند.

وهذا التطوُّر الذي عرفته عدن، دشَّن عملية ضخمة قام بها البريطانيون طوال الثلاثينيات من القرن العشرين لتهدئة كل المنطقة الساحلية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما القطاعات القريبة من موانئها، بما فيها مرتفعات لحج والمدن - الدويلات المتناحرة في وادي حضرموت، مستخدمين في ذلك قاذفات الغنابل التابعة ل سلاح الجو الملكي كرادع أخير. وقد صُمّت محمية جنوب الجزيرة العربية (سُمِّيت لاحقاً «البحر الجنوبي» قبل أن تتوحد مع اليمن في عام 1991) نحواً من ثلاث وعشرين سلطنة وإمارة وكياناً قليلاً تحت السيطرة التامة والشاملة لبريطانيا. حيث السلاطين يهيمنون على المدن، وحيث طبقة «السَيَّاد» التي تزعم تحدرها من سلالة الرسول، تحتكر ملكية الأرض وتقوم بدور الوسيط بين عشائر الداخل. وإلى مسافة أبعد شرقاً، تمكَّنت أسرة البوسعيد

والعُمانية في عهد زعيمها سيد سعيد بن سلطان (1807-1856) من خلق دولة مترامية الأطراف في المحيط الهندي أخذت تغتني وتزداد ثراءً بفضل تجارة العبيد وتصدير العاج والتوابل من المناطق الخاضعة للسلطان في زنجبار، وبموجب سلسلة من الموثيق المبرمة ما بين 1838 و 1856، نزل سيد سعيد عند طلب الإنجليز بالحد من النخاسة في البلاد، مؤمراً المزيد من الذرائع للتدخل البريطاني. قلدي وفاته في العام 1856، سوى البريطانيون نزاعاً نشب بين ابنه: ماجد



## صعود الدولة السعودية

بحيث انتقلت السلطة في تسعينيات القرن التاسع عشر إلى أسرة آل الرشيد الموالية للعثمانيين. ومن خلال إحيائه دولة أسلافه إثر غارة قام بها على معقل آل الرشيد في الرياض عام 1902، اتبع سلول محمد آل سعود، للمغفور له عبد العزيز بن سعود، النموذج الكلاسيكي نفسه الذي يُصافر بين القوة العسكرية للقبائل والقوة المعنوية للإحياء الديني. نُظِم محاربو ابن سعود، المعروفون بـ«الإخوان»، ضمن مستوطنات زراعية سُمّيت «الهجرات». وقد استلهمت هذه الأخيرة من المجتمع الذي بناه النبي محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة في العام 622، وقد أخضع فيها البدو لتدريب عسكري وتثقيف ديني صارم. ولما كانت مستوطنات «الهجرات» تلك متوزعة في نقاط استراتيجية على امتداد الهضبة النجدية، فقد كان في المستطاع تثبيتة الإخوان وحشدهم على جناح السرعة مما وفر على ابن سعود أعباء الإنفاق على جيش مستديم.

وقد أعادت الدول الأوروبية تحريك الدولة السعودية باتجاه الخارج بأن أحكمت الطوق على الجزيرة العربية من خلال السيطرة على محيطها.

مراحل اتساع الدولة السعودية  
1926-1902

أرض تمت سيطرتها ابن سعود، حوالي 1912

أرض تم تحريرها بحلول 1920

أرض تم تحريرها بحلول 1926

مخيمات ومخيمات عسكرية بحرية

صينج أصيلة كعبة

أرض تمت سيطرتها الإنجليز

أرض تمت السيطرة الفرنسية

أرض تمت السيطرة الفرنسية

أرض تمت سيطرتها الإيطالية

لعلك تجد في قيام المملكة العربية السعودية في القرن العشرين ترجيحاً للعديد من السمات التي وسمت دعوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. يعود تأسيس الدولة السعودية الأولى إلى القرن الثامن عشر، حين قامت على تحالف ما بين مُصلح ديني من المذهب الحنبلي، هو محمد بن عبد الوهاب، وبين محمد آل سعود، حاكم مدينة عنيزة بالقصيم. إلا أن نفوذ محمد آل سعود تقلص كثيراً من جراء التدخل المصري في عام 1818،

المغفور له بإذن الله الملك عبد العزيز بن سعود (يبدو في الصورة جالساً في الصف الأمامي إلى اليسار)، وقد طُور ابن سعود حركة «الإخوان» بتجنيد أفرادها من القبائل البدوية. وبهذه القوة الملتزمة، استطاع بناء الدولة التي صارت تعرف منذ عام 1932 بـ«المملكة العربية السعودية».



## إضاءة سريضة: إسرائيل - فلسطين

تكمّن جذور النزاع العربي - الإسرائيلي في جنين اليهود الدهري للعودة إلى «أرض إسرائيل»، الأرض التي وعد الله بها النبي إبراهيم. وقد بنيت الصهيونية الحديثة على هذا الاعتقاد الموروث، إذ رأت أن الخلاص من الاضطهاد يكون في امتلاك أرض يمكن إقامة دولة يهودية ذات سيادة عليها. أقيمت أول مستوطنة يهودية عام 1878 في بتاح تيفكا. وأثناء الحرب العالمية الأولى، أعطى البريطانيون تعهدات متناقضة للحرب واليهود: فوعدوا شريف مكة بدولة مستقلة، وبناءً عليه قاد ابنه فيصل وعبد الله الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين؛ وفي نفس الوقت، قبلوا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وهو المشروع الذي حظي بتأييد متزايد من الجاليات اليهودية في أوروبا، ولا سيما بعد وصول النازيين إلى سدة الحكم في ألمانيا. وإثر انتفاضة قام بها عرب فلسطين ابتداءً من عام 1936، وضعت خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، إلا أن الخطة علّقت لدى اندلاع الأعمال العدائية بين الطرفين عام 1939. وبعد أن أماط الطغاف في الحرب العالمية الثانية النقاب عن قطائع الإبادة الجماعية التي اقترها النازيون بحق اليهود، تزايدت الضغوط للمسحاح بهجرة يهودية واسعة النطاق إلى فلسطين، وسرعان ما أصبحت تلك الضغوط جارفةً يتعذر الوقوف في وجهها. في عام 1947، صدرت خطة تقسيم فلسطين عن منظمة الأمم المتحدة التي تحصّ على قيام دولتين: عربية ويهودية، «متشابهتين معاً في عناقق غير ودي لكنهما جيتان متصارعتان»، على حد وصف أحد المسؤولين. قبل زعماء اليهود بالخطة لكن العرب رفضوها. في 14 أيار/مايو 1948، انسحب البريطانيون من فلسطين، وفي اليوم التالي اعترفت الدولة الكبرى باستقلال دولة إسرائيل. استطاعت الدولة الجديدة أن تنجو من هجمات متزامنة إما غير منسقة، شنّها عليها جيوش الدول العربية المجاورة، مما عاد عليها بمزيد من الأراضي فوق ما خصّص لها بموجب خطة الأمم المتحدة. بسطت شرق الأردن - الأردن لاحقاً - سيطرته على جزء من فلسطين، بما فيه القدس الشرقية التي تضم أماكن ومزارات مقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين جميعاً. وجاءت هجمات شتّى مقاتلون يهود غير نظاميين، كالمذبحة التي طالت أمالي قرية دير ياسين الفلسطينية عام 1948، لتحتل آلاف الفلسطينيين على الفرار من مَندهم وقراهم، مما خلق مشكلة لاجئين سوف تعمل باستمرار على صبّ الزيت على النار وتتسبب بنشوب الحروب تباعاً في الأعوام 1956، 1967، 1973 و1982.



كانت منظمة التحرير الفلسطينية، برعامة ياسر عرفات، قد اعترفت بحق إسرائيل في الوجود عام 1988، وظفرت بحكم ذاتي محدود للفلسطينيين في غزة وأريحا وأجزاء أخرى من الضفة الغربية بموجب اتفاق أوسلو لعام 1993، فإن منظمتي حماس والجهاد الإسلامي وسواهما من المنظمات الإسلامية، قد أعلنت رفضها للعجلة السلمية. والحال، أن استمرار الاستيطان اليهودي، والهجمات الإرهابية على المدنيين بما فيها التفجيرات الانتحارية، والإجراءات التي تتخذها إسرائيل من قبيل بناء جدار فصل على شاكلة جدار برلين بين إسرائيل والضفة الغربية، وعمليات القتل المستهدف التي تطال قادة فلسطينيين، إن كل ذلك جعل احتمالات التوصل إلى سلام بين إسرائيل والفلسطينيين أكثر صعوبة.

ألت الحرب العربية - الإسرائيلية الثالثة في حزيران/يونيو 1967 إلى تمكين إسرائيل من السيطرة على شبه جزيرة سيناء، وقطاع غزة، والضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية. وقد عمدت إسرائيل في وقت لاحق إلى ضم القدس الشرقية العربية إليها، وزرعت المستوطنات اليهودية في جميع المناطق المحتلة. النجاحات العسكرية المحدودة التي أحرزها المصريون في الحرب العربية - الإسرائيلية الرابعة في تشرين الأول/أكتوبر 1973، شجعت الرئيس المصري أنور السادات على زيارة القدس في عام 1977. وقد دشنت هذه الزيارة عملية سياسية توجت بتوقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد عام 1979، تبعتها اتفاقية فك الاشتباك مع سورية. ومعاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في عام 1994. غير أن المسألة الفلسطينية بقيت من دون حل. وإذا



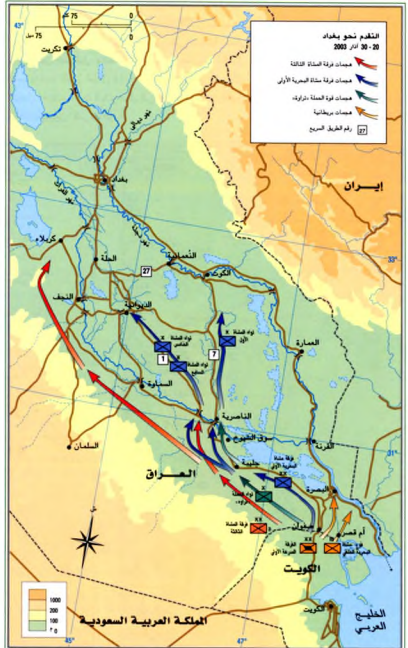
## إضاءة سريعة: الخليج 1950 - 2003

طرده منها في العامين 1990-1991؛ والحرب التي بدأت عام 2003 بالجزء الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية للعراق.

تبقى دوافع المتحاربين في كل من هذه الحروب موضع جدل واسع، غير أن ثمة شواهد ضمنية جديدة بالاعتبار تقطع كلها بأن النفط كان عاملاً مهماً في إشعالها. فقد ظلت المنطقة قرونًا مديدة، قبل اكتشاف النفط فيها، خارج بؤرة أية حرب كبرى بين الدول المحلية أو بين القوى الأوروبية. بينما رأينا الحروب، على العكس من ذلك، تندلع مراراً وتكراراً في بحر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر في جزر الكاريبي لا لشيء إلا لأنها جزر غنية منتجة للسكر. وقرن النفط مبالغ طائلة لدول الخليج كي تشتري كميات ضخمة للغاية من السلاح والعتاد في النصف الثاني من القرن العشرين، وهذا بدوره ما ضاعف من احتمالات وقوع حروب واسعة النطاق فيما بينها. إن الدافع الحقيقي الذي حدا بصدام حسين إلى مهاجمة إيران أولاً، ثم الكويت بعد ذلك يعقّر من الزمن، قد لا يُعرف البتة. إلا أنه في كلتا الحالتين، كان للأمل بإحراز نصر سريع يترتب عليه الاستيلاء على مناطق غنية بالنفط دور بارز في العملية على ما يبدو. يزعم البعض أن إيران كوسيلة لكبح جماح الثورة الإسلامية الأخيرة فيها. وقد دلت الدولتان، إيران والعراق، كلتاهما على درجة عالية من المرونة بالرغم من حالة الإجهاد والتوتر الشديد المصاحبة للحرب. وخلافاً للتوقعات الإيرانية، أثار المواطنون الشيعة في العراق تقديم هويتهم العربية أو جنسيتهم العراقية على ولائهم لإخوانهم في إيران.

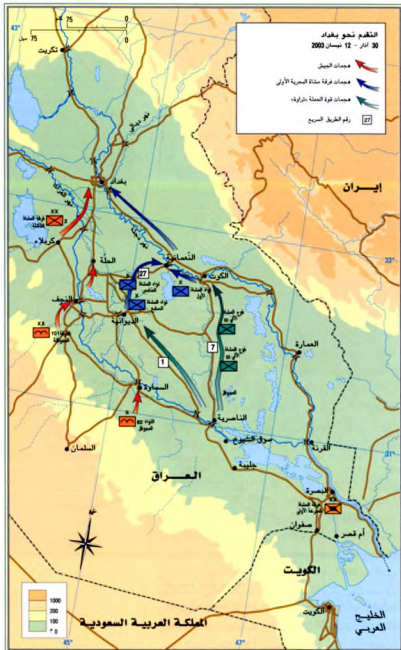
أسفرت الحرب الإيرانية - العراقية عن وقوع مئات آلاف الضحايا من الجانبين، ودامت مدة عشر سنوات تقريباً. كانت حرباً انطوت على كل خصائص وسمات الحرب المصنّعة الكبرى كما تبلورت في الحربين العالميتين الأولى والثانية، مثل عمليات الهجوم الضخمة لقوات المشاة، وحرب الخنادق، ومعارك تشارك فيها كل أنواع الأسلحة من دبابات وطائرات ومدفعية وصواريخ وغازات سامة. وصحيح أن الإيرانيين احتجوا على استخدام العراق غير المشروع

لقد شهدت منطقة الخليج نشوب عدة حروب خلال النصف الثاني من القرن العشرين؛ والحروب الرئيسية هاهنا هي: الحرب الإيرانية - العراقية في الأعوام 1979-1988؛ والاحتياح العراقي للكويت ومن ثم





ونطاق مشاركة الجيش العراقي النظامي فيها في وجه مصاعب هائلة غير واضحين تماماً. ورغم نجاح الأميركيين في القبض على صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر 2003، إلا أن قوات التحالف ما برحت تتعرض لهجمات متفرقة تتدرج في خانة حرب العصابات.



للسلحة الكيميائية، إلا أن المجتمع الدولي القزم الصمت حيال الموضوع. وما فتئت هذه القضية بالذات تؤثر في مواقف الإيرانيين حيال ما يرون فيه ازدواجية معايير غربية فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل.

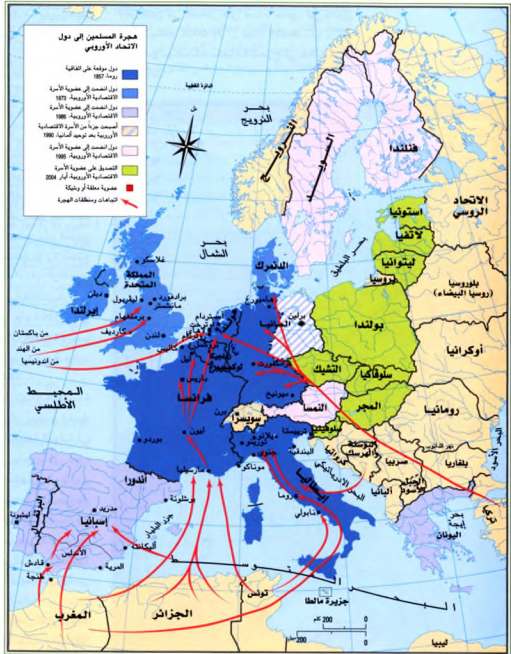
وبالنسبة للاجتياح العراقي للكويت في آب/أغسطس 1990، لعلّ باعته كان وضع العراق المالي السيء وقراءة خاطئة لردّة الفعل الدولية المحتملة. لم يكن الاجتياح عدواناً على دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة (وعضو في جامعة الدول العربية) فحسب، بل كان انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي أيضاً. وإذا ما ترك من دون رادع، فقد يدع العراق يُسيطر على حصة من احتياطي النفط العالمي أكبر بكثير مما يملك أصلاً. من منظور عراقي، يجوز التحجج بأن الحدود والدول التي اصطفتها القوى الاستعمارية ولا تتمتع بأي أساس تاريخي لا تستحق الاحترام غير أن العراق كان سبق وأن اعترف رسمياً بسيادة الكويت على أراضيها ضمن حدودها الحالية في عام 1963، وعلى أية حال، قام تحالف تدعمه الولايات المتحدة ويضم وحدات عسكرية ضخمة من مصر وسورية، بطرد العراق من الكويت في مطلع عام 1991.

وفي السعام 2003، شنّت الولايات المتحدة وبريطانيا هجوماً عسكرياً على العراق، بدعوى تطبيق قرارات الأمم المتحدة التي أخفقت المنظمة الدولية في تطبيقها، وكذلك بذريعة أن العراق بات يُشكّل خطراً إقليمياً لا بل ودولياً لما يملكه من أسلحة دمار شامل، بما فيها الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. اعتبر العالم الهجوم على العراق انتهاكاً لأحد المبادئ الأساسية للأمم المتحدة، الذي ينصّ على عدم شرعية الحرب العدوانية. ولم تقف إلى جانب الولايات المتحدة في ذلك لا المكسيك ولا كندا، ورغم اعتماد كلا البلدين اقتصادياً عليها.

لم يُعثر على أي سلاح جاهز للعمل لدى القوات المسلحة العراقية، كما لم يُعثر حتى نهاية عام 2003 على أي برنامج لتصنيع أسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد اكتملت المرحلة الأولى من الحرب، بأن زحفت القوات المدرّعة الأميركية على بغداد، وكبرى المدن العراقية الأخرى، واحتلتها في غضون بضعة أسابيع. وتبقى الطبيعة الحقيقية للمعارك التي دارت

## المسلمون في أوروبا الضريبة

وتونس، وكذلك من بلدان غرب إفريقيا شرعوا بعد ذلك بالتوافد على فرنسا بأعداد متزايدة وترسيخ أقدامهم فيها. في البداية، كان المهاجرون في معظمهم من الذكور الذين يبعثون بتحويلات نقدية إلى عوائلهم في الوطن. إنما أخذت كفتي الجنسين تتعادلان بوصول عائلات بكامل أفرادها إلى هناك اعتباراً من ثمانينيات القرن العشرين. هذا ولئن كانت هناك جهات مُسلحة لا يُستهان بها في مدن مرسيليا وليون وباريس، إنما تبقى باريس مدينة التوطن بامتياز بالنسبة للمهاجرين المسلمين. أقدم مسجد باريس الكبير في عام 1926، لكن الأحياء الإسلامية الرئيسية من المدينة لم تُعدّ أهلة بالسكان إلا في الفترة التالية للخمسينيات من القرن العشرين. ولا يزال المسلمون في فرنسا محل استقطاب بلدان المنشأ التي وفدوا منها، ولعل كثرة المساجد التي يبنيها تمثل وجه التنوع والاختلاف هذا. والجماعات الصوفية بنوع خاص، ناشطة في باريس ولا سيما تلك العائدة إلى طُرُق إفريقية شمالية كالطريقة الدرقاوية والطريقة العلوية. وتجذب هذه الجماعات حتى بعض الفرنسيين ممن دخلوا مؤخرًا في الإسلام. ألمانيا (هامبورغ، ميونيخ، فرانكفورت).



فرنسا (باريس):

يغلب على الهجرة الإسلامية إلى ألمانيا العرق التركي: ففي سنوات الخمسينيات من القرن العشرين، شجعت ألمانيا بصورة فعّالة هجرة العمال الأتراك إليها. ومعظم فرص العمل المعروضة، كانت لغير المهرة أو

حتى الستينيات من القرن العشرين، كانت الغالبية العظمى من المهاجرين من البلدان الإسلامية إلى فرنسا من الجزائريين. إلا أن مسلمين آخرين من المغرب

من هويته الشخصية والشَّابات المسلمات إنما يتخذن الحجاب حالياً باعتباره وسيلة لتوكيد هويتهم الخاصة بناءً على السبر الثاني وليس بقبول المسلمات والممارسات الدينية للأجيال السابقة. ومثلما هي الحال في السياقات الأوروبية الأخرى، تؤدي الصوفاة في بريطانيا دوراً مهماً كحركة دينية، ولا سيما في اجتذاب المهتدين الجدد إلى الإسلام.

#### هولندا (أمستردام، روتردام، لاهاي، أوترخت):

في هولندا جالية إسلامية متنوّعة المذاهب والمشارب، وهي تتألف من أتراك، وأفارقة من شمال القارة، وملوخيين من جزر الهند الشرقية الهولندية سابقاً، ومع ترسّخ أقدام الجاليات الإسلامية في هولندا، طرأت زيادة على عدد المساجد التي تُبنى هناك منذ عقد الثمانينيات من القرن العشرين. والعديد من المساجد ترتبط ببلدان المنشأ، ولا سيما تلك التي تعود إلى الأتراك لأن أئمتها تؤدّمهم الدولة التركية نفسها. تأخذ الدولة الهولندية على عاتقها تعليم اللغات الوطنية لأبناء المهاجرين في المدارس؛ لكن مثلما هي الحال في سائر أنحاء أوروبا، للتعليم الديني مهمّة تضطلع بها المساجد حصراً.

#### إيطاليا (روما، ميلانو، تورينو):

في إيطاليا جالية إسلامية متنوّعة الأعراق، إنما يقلب على تكوينها المغاربة والتوانسة، وترفدها مؤخراً أعداد متزايدة من يوغسلافيا السابقة. في الثمانينيات متزايدة من القرن العشرين، حرصت الجالية المغربية بالخصوص على بناء المساجد والمرافق اللازمة لسدّ الاحتياجات الدينية والتعليمية. إسبانيا:

إن إسبانيا، بتاريخها الإسلامي الطويل، لترتدي أهمية كبيرة كبيلد أوروبي يشهد حالياً نوعاً من الإحياء الإسلامي ولا سيما في أقاليمه الجنوبية. إن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى إسبانيا هم من دول شمال إفريقيا، وسواهم الأعظم من المغرب. وهناك جاليات من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إن بناء المساجد جاري على قدم وساق في إسبانيا، وكذلك تأمين مرافق ومستلزمات التعليم الديني الإسلامي. يتسم الموقف الإسباني من الإسلام بالاعتاطف والود على وجه العموم، وقمة حركة ذات شأن لانتعاش الإيمان الدين الإسلامي ولا سيما في بلاد الأندلس. ولعلّ التوكيد على استقلالية المنطقة والتحول إلى الإسلام بتدرج هنا في إطار الاكتشاف المتجدّد لهوية جرى كتبها ردحاً طويلاً من الزمن.

لأشياء المهرة. لكن فترة السبعينيات شهدت موجة عارمة من العمال الأتراك الوافدين على ألمانيا، أفضت إلى نشوء جاليات إسلامية ذات تركّزات استثنائية. ففي تلك الفترة بالذات، التحقت عائلات بأكملها بالمهاجرين الأصليين، ومُنح معظم العمال وضعية «العمال الضيف»، التي تشدّد على المفهوم الرسمي بأن التوطّن مؤقت ليس إلا. وخلال الثمانينيات من نفس القرن، شرعت الجاليات الإسلامية في ألمانيا بتأمين ما يلزمها من مرافق دينية واجتماعية، وذلك بتشديد المساجد وتكوين الجمعيات الدينية التي ترتبط العديد منها بجماعات مقرّاتها الرئيسية في تركيا. وعلى نحو مماثل، تنشط الطرُق الصوفية كالنقشبندية بشكل لافت؛ ومن خلال هذه الجماعات تحديداً، يلعب المتأسلمون الجدد دوراً خطيراً داخل الجاليات الإسلامية. بريطانيا (لندن، غلاسكو، مانشستر، برمنغهام، برادفورد):

بدأت هجرة المسلمين إلى المملكة المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر باستقرار بعض البحارة اليمنيين في موانئ كارديف، وساوث شيلدن، ولينكولن، ولندن، وأخيراً في برمنغهام. إلا أن معظم الهجرة الإسلامية إلى بريطانيا جاءت من جنوب آسيا (باكستان وبنغلاديش)، حيث وصل في إبان الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عدد غفير من المهاجرين الاقتصاديين لشغل وظائف بناءً على استدعاءات مسبقة. وأدى وصول عائلات بأكملها خلال الستينيات إلى قيام شتّى المرافق الضرورية لتقديم الخدمات الدينية والثقافية على غرار ما حصل في معظم جاليات المهاجرين المسلمين في أوروبا. وقد اجتذبت لندن، بالأخص، جاليات إسلامية متنوّعة؛ وهذا ما جعل المنظور الثقافي والديني فيها أكثر ليبرالية منه في بقية الجاليات المسلمة في المملكة المتحدة. هنا تخطط أعداد ليست بالقليلة من العرب والباكستانيين والبنغلاديشيين، باللاجئين النازحين حديثاً إليها، فضلاً عن الطلاب المسلمين الوافدين إليها من وراء البحار. بينما تميّز برادفورد باحتضانها جالية أكثر تجانساً من أصل باكستاني، وهذا ما انعكس تنوعاً واختلافاً أقلّ في النظرة الدينية. برمنغهام، من جهة أخرى، وإن كانت مؤلّاً جالية يطغى عليها الأصل الباكستاني، إلا أن المسلمين فيها أكثر تنوعاً بكثير، وهم يضمون عدداً ليس بالقليل من المتأسلمين من أصول إفريقية - كاريبية. إن الشباب المسلم في بريطانيا أخذ، وعلى نحو متزايد، باكتشاف الإسلام من جديد كجزء



هذا المسجد القائم في حدائق قلعة شفتزينغن بألمانيا، والذي يرجع بناؤه إلى حوالي العام 1750. يبرز في طرازه المعماري الموثقفات الإسلامية بالمتنوّرات الباروكية الأوروبية.

## المسلمون في أميركا الشمالية

نوي الأصول الإفريقية، أي الأفرو-أميركيين، استأنرو وما زالوا بأهمية كبيرة على وجه الخصوص. إن «أمة الإسلام» حركة انفضالية ناشطة بين الأفرو-أميركيين، لكن أكثرية المسلمين لا يعدونها من الإسلام في شيء. غير أنها تظل قوة يُعتد بها بالرغم من أن نسبة متزايدة من المسلمين الأفرو-أميركيين باتت تنحاز إلى المعتقدات والعبادات المأثورة عن التيار الرئيسي للإسلام السنّي منذ عام 1976، حين تولى واريث دين محمد، ابن إلهجا محمد مؤسس «أمة الإسلام»، زعامة قسم من تلك الحركة. يُمثل المسلمون الأفرو-أميركيون نسبة لا يُستهان بها من أبناء الجالية المسلمة في الولايات المتحدة، والإقبال على اعتناق الدين الإسلامي كبير يتنوع خاص بين تزلأ السجن من السود، وذلك رداً على التمييز العنصري والمعاملة الوحشية المأساة التي يلحقونها، وهو يعول إلى حد بعيد على الأصول الإسلامية لأسلاف العديد من المواطنين الأفرو-أميركيين. المتأسلمون من البيض في أميركا ليسوا على القدر ذاته من الأهمية العددية، إلا أنهم مع ذلك دعامة ركنية للدين الإسلامي ولهم صوت مسموع، وكثيراً ما يرتبطون، شأن نظراتهم في أوروبا، بالحركات الصوفية. لقد أُلّف التأسيس الأوّل للإسلام في أميركا الشمالية إلى فترة من الذوبان في المجتمع، صنّفت معها قضية الهوية الدينية ضمن قضايا الاندماج الثقافي العام، فيما بقي المسلمون الأفرو-أميركيون خارج هذه السيرورة. لكن مع قدوم الطلاب المسلمين من وراء البحار، والمهاجرين الأحدث عهدا المتصفيين والبدنين كالباكستانيين على سبيل المثال، طرأ ارتفاع على نبرة التوكيد على الهوية الدينية في أميركا. هنالك على وجه العموم طيف واسع من الممارسات وأشكال الممارسة الدينية بين الجاليات المسلمة في أميركا الشمالية، ولئن كانت العديد من الجمعيات الإسلامية والمساجد تقوم على أساس عرقي، إلا أن هناك أيضاً منظمات إسلامية أبوابها مشرعة لمختلف الأعراق دون استثناء.

لنأخذ «اتحاد الطلبة المسلمين»، الذي أسّسه في عام 1963 الطلاب المسلمون في جامعة إيلينوي بمدينة أوربانا مثلاً، فهو يضغط بدور بالغ الشأن في التشديد على الهوية الإسلامية كتقيض للتمايز بالهوية العرقية. وهناك منظمات مظلية أخرى في الولايات المتحدة، ومجلس الجاليات الإسلامية في كندا، أسهمت وما فتئت تسهم بقسط لا بأس به في هذا التحول نحو الهوية الإسلامية الجامعة. على المستوى

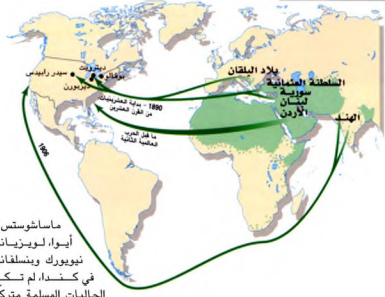
تعود نشأة السكّان المسلمين في الولايات المتحدة إلى حقبة مبكرة زمنياً. فمضة شاهد على أن المسلمين الأوائل وصلوا إلى هناك برفقة المستكشفين الإسبان في القرن السادس عشر لكن فاتحة الجاليات الإسلامية التي يُعتد بها إنما نجمت عن هجرة من سورية وليثان إبان الستينيات من القرن التاسع عشر ما لبثت أن استتبعها مزيداً من المهاجرين في العقود اللاحقة. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية توافد سيل دافق من المهاجرين على أميركا رداً على القيود الاقتصادية والسياسية التي تكبلهم في بلدانهم الأصلية، ومنها: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشرق إفريقيا، والهند، وباكستان.

في مقدمة الولايات التي استوطنتها الجاليات المسلمة تأتي ميشيغن، أوهايو، إنديانا، إيلينوي،

أواخر القرن الخامس عشر  
وأوائل القرن العشرين

دار الإسلام

تداء الهجرة



ماساشوستس،

أيوا، لويزيانا،

نيويورك وبنسلفانيا.

في كندا، لم تسكن

الجاليات المسلمة متركزة

إلى هذا الحدّ في أماكن معيَّنة، بل كانت أكثر حركية

من الوجهة الجغرافية. كما أن بلدان المنشأ اختلفت،

هي الأخرى، عنها بالنسبة إلى الولايات المتحدة، إذ

جاءت الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين إلى

كندا من بلدان عربية، وشمال إفريقية، ومن جنوب

الصحراء الكبرى الإفريقية، ومن جنوب شرقي أوروبا،

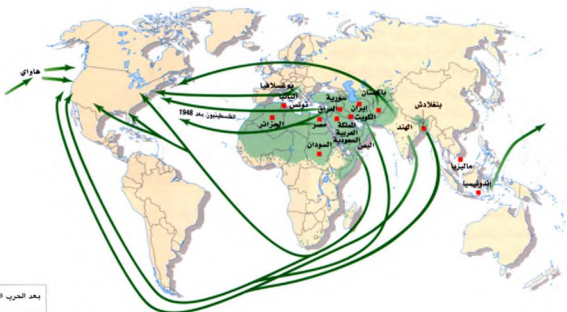
وتركيا، وإيران، وأفغانستان، والشرق الأقصى وشرق

إفريقيا. وبعضهم وفد إليها من أقطار تابعة

للكومنولث البريطاني. وفي حالتي الولايات المتحدة

وكندا على السواء، كان اعتناق الإسلام عاملاً في بروز

المجتمع الإسلامي هناك. فالمتأسلمون الأميركيون من



بعد الحرب العالمية الثانية

- ديار الإسلام
- اتجاه الهجرة
- بلاد تولد لأهلها

إلى الإسلام والمسلمين، متخذاً في ذلك وجهة سلبية. وقد كان لأحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، والهجمات الأخرى التي استهدفت أميركيين، وعملياً قتل المدنيين الإسرائيليين (الذين يتعاطف معهم بقوة المسيحيون الإنجيليون ناهيك عن اليهود في أمريكا)، وقّعها الشديد على الجاليات المسلمة في الغرب عموماً، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص. وهكذا ترتب على قادة الجالية الإسلامية والزعماء الدينيين أن يدحضوا من جهة محاولات تنميط الإسلام سلبياً بتصويره على أنه دين عنيف، ويتصدوا من جهة أخرى لمشكلة تسييس الإسلام في أوساطهم هم.

المحلي، تتوافر لمعظم تجمعات المسلمين في المدن، مثل ديترويت ونيويورك وشيكاغو، المرافق اللازمة لتأمين الطعام الحلال، ومستلزمات الدفن، والمساجد والمصليات والقاعات الاجتماعية، فضلاً عن المؤسسات التربوية الخاصة بالتعليم الديني للأطفال. أما لجهة علاقتهم بالمجتمع الأوسع، فالمسلمون في أمريكا الشمالية، وفي الولايات المتحدة نوع أخص، واجهوا تحديات ليست باللهينة على مدى السنوات الخمس والعشرين الفائتة. فبعد قيام الثورة الإيرانية عام 1979، واحتجاج مواطنين أميركيين في السفارة الأميركية في طهران، أخذ الرأي العام في تغيير نظرتة

مالكولم إكس، زعيم المسلمين السود في أمريكا، استهزل حياته مجرداً صغيراً قبل أن يهتدي إلى جماعة «أمة الإسلام»، ذات الفزعة الانفصالية، لكن حبه إلى مكة عام 1964 أقتنع بأن الانفصالية اتجاه خاطئة، وأن الإسلام الحقي يقضم أناساً من جميع الأعراق. وقد أُدين ثلاثة من أعضاء «أمة الإسلام» بمقتله إثر اغتياله في شباط/فبراير 1965.



## المساجد وأماكن العبادة في أمريكا الشمالية

حدثت تحوُّل نحو إقامة مساجد أقلَّ اصطفاً بالصيغة العرقية لناحية الذين يؤمنونها للصلاة. وقد أنشئ «مجلس المساجد» في الولايات المتحدة لتسهيل أمر توفير أماكن العبادة اللازمة للجاليات الإسلامية هناك.

ويتبين من تقرير نُشر في العام 2001، أن الذين يؤمنون المساجد، بحسب الانتماءات العرقية، هم أبناء جنوب آسيا بنسبة 33 بالمئة، والأفرو-أميركيون بنسبة 30 بالمئة، والعرب بنسبة 25 بالمئة. وما فتئ أئمة المساجد يُستقدمون من بلدان كمصر وتركيا وباكستان، لأنَّ أئمة أعداداً متزايدة من الأئمة يجري إعدادهم داخل الولايات المتحدة بالنظر لتوفر المزيد من الوسائل الضرورية لتدريب الأئمة. بعض الأئمة يُمَوَّنون كذلك من الخارج، لكنهم في معظمهم يتقاضون أجورهم من الجاليات المحلية. وقد أنشئ مجلس للأئمة في عام 1972؛ والمساجد، على وجه الإجمال، تُدار بواسطة مجالس استشارية محلية.

تنبغي الإشارة هنا إلى أن المساجد والمباني الأخرى التي يستخدمها المسلمون في أميركا الشمالية، بما في ذلك «حسينيات» الشيعة الاثني عشرية، و«جُمُعَة خانات» الإسماعيليين، ومعابد «أمة الإسلام»، تؤدي في واقع الأمر سلسلة متنوِّعة من الوظائف إلى جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة. فهي تستعمل لأغراض تربية شتَّى، كمدارس لنهاية الأسبوع، وصفوف الأطفال، وقاعات للمحاضرات، وكذلك لتنظيم دورات لتعليم الراشدين. وهي تخدم أيضاً بمثابة مكتبات عامة، وحوانيت لبيع الكتب، ومطابع صغيرة لنشر المواد الإسلامية، فضلاً عن استضافتها المناسبات الاجتماعية كحفلات الأعراس ومراسم التأبين. هذا عدا عن اضطلاعها بدور حاسم كقطعة اتصال بغير المسلمين كي يتعرَّفوا على الإسلام ويلتقوا بالمسلمين - وهذه لعمرى مسألة في غاية الأهمية خصوصاً في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن عام 2001. وهكذا مع تطور الجاليات الإسلامية باطراب في أميركا الشمالية، تعدو المساجد ومراكز التجمُّع الإسلامية الأخرى مفاصل حيَّة لإطلاق المبادرات.



بعد أن استتب المقام للجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة، شهد العقد الثاني من القرن العشرين أول ظهور للجوامع والمساجد على أراضيها، تلبيةً لاحتياجات المسلمين الدينية والاجتماعية، ومثلما جرى في أوروبا، استُخدمت البيوت في أول الأمر، كمصليات، وتبع ذلك تحويل بيوت قائمة إلى مساجد، بينما جاء إنشاء المساجد المشيئة خصوصاً لهذا الغرض في مرحلة لاحقة. وقد أُقيمت معظم المساجد أصلاً لخدمة جاليات محدَّدة عرقياً، كما لم تكن دينية بالمعنى الحصري، إذ كانت المباني تُستعمل لأغراض عبادة واجتماعية على حد سواء. وفي أحيان كثيرة، كان يُصار إلى استئجار قاعات عامة أو صالات خاصة لمناسبات أضخم، كصلاة العيد مثلاً، كي تستوعب عدداً غفيراً من المؤمنين؛ وهذا ما كان يحصل في تورنتو ومونتريال وإدمونتون في كندا مثلاً. وأول مسجد للأفرو-أميركيين، وكان تابعاً لـ«أمة الإسلام»، أُقيم في حي هارلم بنيويورك عام 1950.

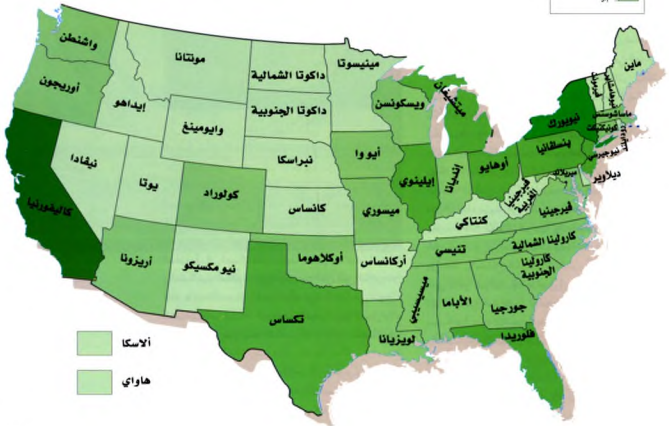
لكن حتى الستينيات من القرن العشرين، لم يكن يوجد ما يكفي من المساجد والجوامع لاستيعاب أبناء الجالية الإسلامية المتنامية باطراب، التي وجدت نفسها مضطرة إلى استخدام مصليات وفسحات خاصة لأداء فرائضها الدينية على كل، هناك الآن ما يربو على ألف مسجد مسجَّل رسمياً في الولايات المتحدة. لعلَّ واحداً من أضخم المساجد التي أُقيمت في الولايات المتحدة، هو المركز الإسلامي في ديترويت الذي ارتفع بناهه ما بين عامي 1962 و1968. وقد تكفل بنقائها بنائه أبناء الجالية الإسلامية في المدينة بحكم كونهم جماعة المصلين الذين سירתادونه. ثم جاءت التبرعات والمنح المالية من الحكومات المصرية والسعودية والإيرانية واللبنانية لتكشف عن

مسجد المقر الرئيسي للجعية الإسلامية لأميركا الشمالية بالقرب من مدينة إنديانا بوليس في ولاية إنديانا المبني من تصميم المهندسين المعماريين غولزار حيدر ومختار خليل، واكتمل بناؤه عام 1981. إنه يُقدَّم صورة عصرية وتقدمية للإسلام، الدين الذي يعتقد ما يربو عن ثمانية ملايين من الأميركيين والكنديين. يحتوي المبنى فضلاً عن قاعة فسحة للصلاة، على مكتبة ومكاتب إدارية.

المركز الثقافي الإسلامي في تامبه  
ولاية أريزونا (بني عام 1984).



لكن التردد على أماكن العبادة يجب ألا يفهم بالضرورة على أنه تطور يكتنف الجالية الإسلامية في أمريكا بأوسع مظهره. ففي دراسة ميدانية أجريت عام 1987، اتضح أن ما بين 10 و 20 بالمئة فقط من المسلمين في أمريكا يؤمنون بالمساجد بانتظام، في مقابل 40 بالمئة من المسيحيين يواظبون على الصلاة في الكنائس. وفي الوقت الذي قد يُعيد فيه بعض المسلمين من الجيل الصاعد توكيد هويتهم الإسلامية بالانغماس في ممارسة الشعائر الدينية، نجد أن الأغلبية العظمى من المهاجرين الجدد الوافدين من جنوب آسيا ووسطها أكثر ميلاً إلى الاندماج في التيار السائد للمجتمع الأمريكي.



## الفنون الإسلامية

الموضوعات والسيقات الدينية كافة؛ والسبب يعود ربما إلى الخشية إياها من الوقوع في الوثنية التي أمتت بالديانات الأخرى في باكر الأزمنة. أما في السياقات الأخرى، ولا سيما في الموضوعات الشخصية أو البلاطية، فقد رأينا تقليداً حياً من الفن التصويري ينمو ويزدهر. وحسبنا شاهد على ذلك، جدران القصور التي كثيراً ما كانت تزدهن بالمشاهد المضمّنة صوراً بشرية. أما في المساجد، فقد كانت الزخرفة غير التصويرية التي أساسها التزيين بالأشكال الهندسية والنباتية، وكذلك بالكتابة النقشية، هي الطاغية أكثر من سواها. وإذا كان فن تصوير الأشخاص بجميع صوره، فناً غير ذي صبغة دينية تعريضاً في ديار الإسلام، فإن العكس ليس بالضرورة صحيحاً. ذلك أن الفن غير التصويري كان جد ملامم ومحل احترام كبير في كل السياقات والموضوعات، علمانية كانت أم دينية. كانت الأقمشة بمثابة الدعامة الأساسية للحياة الاقتصادية في القرون الوسطى الإسلامية. فكانت تُصنع من الصوف، والكتان، والحريز، والقطن؛ وتراوح تشكيلتها من الأثواب الرقيقة كالأورغندي والموصلين (الأول مشتق اسمه من مدينة أورغندي في آسيا الوسطى، والثاني من مدينة الموصل في العراق)، إلى البطانيات المتينة واللّهاد والأقمشة التي يصنع منها البدو الرُحّل خيمهم. ولم تكن الأقمشة تستخدم لإكساء الأفراد فحسب، بل كانت تدخل في صلب تحديد الغضاءات وتأثيراتها في تلك البلاد الجافة الفقيرة بالأخشاب، حيث يجلس الناس عادةً على السجاجيد ويتكئون على الوسائد. كانت الأقمشة في مجملها من الصُفّ العادي، غير المزخرف؛ لكن السادة المورسين، من الخلفاء نزولاً إلى التجّار، كانوا يشتهون الأقمشة الغريبة. ذات الألوان الزاهية والنقشات المنقطة. ولذلك كان يُصار إلى إضفاء البهجة على الخيوط الخام بواسطة الأصباغ الفرحة المصنوعة من مواد شتّى، التي كانوا هم أنفسهم يتاجرون بها على نطاق واسع. لقد استطاع الحرفيون والصنّاع المهرة أن يستنبطوا مجموعة مؤهلة من التقنيات، تبدأ بالتطريز والتسجيف (الكثفا) وتتجهي بالحياسة على النُؤل والتلوين بالأصباغ، وكل ذلك من أجل أن تأتي أقمشتهم غايةً في الجمال.

وتجبل الكلمة في الإسلام يعني أن تكون الكُتب والكتابة موضع تقدير بالغ في كل مكان. وقد أدّى

عرفت الأقطار الإسلامية تقاليد نابضة بالحوية والنشاط في مضمار الفنون، التي ازدهرت فيها أما زدهار. لكن وخلافاً للتقاليد الفنية للشعوب الأخرى،



كان الخزف الصيني على الدوام موضع إعجاب وتتمين في العالم الإسلامي، ويمكن تبيين تأثيره بجلاء في هذا الإبريق السلجوقي.

فإن الفنون التي تفوق سواها من حيث الأهمية في الحضارة الإسلامية، كانت تعدّ «زخرفية»، «فانونية» أو «محمولة» في الحضارات الأخرى. من ذلك: الأقمشة، الخط، وفنون الكتابة، والسيراميك، والمشغولات المعدنية، والأنية الزجاجية وما إليها. وهذه بمعظمها كانت تستلزم لصنعها تحويل مواد وضعية كالألياف النباتية أو الحيوانية، والرمال، والطين، أو الفلزات المعدنية، إلى أعمال فنية جليلة تتميز بالألوان الزاهية والتصاميم المعقدة. مهما يكن من أمر، فإن الكثير من أكثر هذه الأعمال رفعةً ورهافةً، كانت في نهاية المطاف قطعاً ذات قيمة متفعية، من قبيل دلاء الاستحمام وصينيّات الطعام المعدة للاستعمال في الحياة اليومية.

كثيراً ما نسمع أن الإسلام يُحرم تصوير الأشخاص في فنونه، لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. ينبغي القول بالأحرى إن الإسلام لا يُحيد التصوير في



وبالمثل، يمكن تلمس المؤثرات الأوروبية في تصوير الشخصيات من خلال هذا الرسم للسلطان سليم الثالث.

الذهبية والفضية، لذا عمد الحرفيون المسلمون إلى صنع الأدوات والأوعية اللازمة للاستعمال اليومي من خلاط الححاس، كالتحاس الأصفر والبرونز، وبلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار. وكان الكثير من هذه



الصينيات، والأحواض، والزبديات، والدلاء، والأكواز، والمباخر، والمصابيح، والشعدانات وما إليها، ترصع بالمعادن الثمينة لجعل أسطحها أكثر إشراقاً ومرآهاً أبهج للعين. والمشغولات المعدنية المعدة للأغراض الدينية ما كانت تختلف كثيراً عن تلك المستعملة في المنازل إلا من حيث زخرفتها، التي كانت أقرب إلى الزخرفة الخطئية والهندسية والنباتية منها إلى الزخرفة التصويرية.

تعلم تقنية صنع الورق من بلاد آسيا الوسطى في القرن الثامن، إلى حدوث طفرة هائلة في تأليف الكتب، والتدريس بالكتب، وإنتاج الكتب، ناهيك عن الفنون المساحبة لها والمقرنة بها، كالخط والزخرفة والتذهيب والتجليد، وأخيراً التزيين بالرسوم. ولعل أندر المخطوطات وأتقنها، هي تلك النسخ من القرآن التي كانت ترقن في البداية على الرق، ولاحقاً على الورق. وهي تحفل في الغالب بزخرفة غير تصويرية ولا تدخلها الرسوم مطلقاً. لكن الكتب التي تتخللها تصاوير، ولا سيما تلك المصنفة في خاتمة الأدب الملحمي أو الشعر الغنائي الفارسي، فقد باتت من الصف الرابع في عالم الثقافة الإيرانية، وذلك بدءاً بالقرن الرابع عشر حين أقام الحكام الناطقين بالفارسية في إيران وتركيا والهند محترفات لهذه الغاية وأنتجوا فيها بعضاً من أعظم وأروع الكتب التي عرفها العالم على الإطلاق.

وثمة العديد من الفنون الأخرى المقرنة بديار الإسلام كانت تتوسل النار لتحويل المعادن المستخرجة من الأرض. فقد ورث المسلمون تقاليد صناعة الفخار الموهلة في القدم عن الشرق الأدنى، لكنهم أضافوا إليها وطوروها من خلال استنباطهم قوالب خزفية جديدة، وتقنيات الصقل والتزجيج، وتشكيله غنية من الأشكال الزخرفية. وقد اجتمعت بعض من هذه المقومات المميزة، كالرسم بالطلاء الفوقوي اللصاع المبتكر في عراق القرن التاسع، والعجينة الصمغية المكتشفة في مصر وإيران القرن الثاني عشر، والرسم بالطلاء التحتي المطور في إيران القرن الثاني عشر أيضاً، لتنفجر نشاطاً خفياً خلافاً منقطع النظير في بريطانيا حتى القرن الثامن عشر. صحيح أن غالبية المصنوعات كانت عبارة عن أنية فخارية غير مطلية، معدة لتخزين ونقل المياه والأطعمة من يوم ليوم، إلا أن الإقبال الشديد على اقتناء وتقليد الأطباق، والزبديات، والأباريق، والزجاجات، والأكواز الفاخرة المصنوعة في الأقطار الإسلامية، شكل ظاهرة مغيرة بكل معنى الكلمة من الصين إلى إسبانيا. أما صناعة الزجاج بطريقة النفع، وهي تقنية ابتدعت في سورية قبل العصر الإسلامي، فبقيت خاصةً ينفرد بها المشرق دون غيره. فكان صنّاع الزجاج والنجّارون ينتجون المصابيح المذهبة والمطلية بالمينا بالألوان كفضاء بها المساجد والمدارس التي رُفعت لشركلمة الله.

يقال إن النبي محمد قد نهى عن استعمال الأنية





## أبرز المواقع المعمارية الإسلامية

تبنّى من أفضل المواد المتوافرة طراً، ويسهر على صيانتها بانتظام عبر القرون، فهي عادة ما تكون في طليعة العمارات المحفوظ عليها في أية بقعة من البقاع.

ينزع الحكّام، في أغلب الأحوال، إلى بناء قصور منيفة وبانخة لأنفسهم، يرمزون بها إلى ما ينعمون به من جاه وسلطة. إلا أن هذه القصور لم يكتب لها البقاء مثلما كتبت للمساجد لأن تصميمها وإنشائها كانا يتسمان بقدر أكبر من التجريبية. أضف إلى ذلك أن الوارثين كثيراً ما يعزفون عن صيانة الإنجازات الباهرة لخصومهم. لقد تركّزت التنقيبات الأثرية في الديار الإسلامية على القصور المهجورة أو المهملة، مثل خربة المفجر، المنتجع الأموي بالقرب من أريحا؛ وسامراء، العاصمة العباسية في القرن التاسع في العراق. قلّة من القصور الإسلامية فقطّض لها أن تبقى على وجه الأرض، نذكر منها: «قصر الحمراء» في غرناطة، و«توبكابي سراي» في استنبول، و«الحصن الأحمر» في دلهي. إن القصور الإسلامية عادة ما تكون مزوّقة ومبهرجة، لكنها مبنية بطريقة رديئة، تغطى فيها الأولوية للمظهر والإبراز على الشكل والإنشاء. وخلافاً لما هي الحال في قصر فرساي أو الأرميتاج، تأخذ القصور الإسلامية بصورة نمطية شكل مبانٍ ملحقة بها أجنحة صغيرة متخلّفة حول أفنية داخلية وحدائق غنّاء.

بالرغم مما يُقال من أن النبي محمد قد استأه وتجهّم لدى رؤيته أضرحة تنكارية تقام فوق قبور الموتى، إلا أن بناء الأضرحة أضحي مع ذلك شكلاً رئيسياً لرعاية العمارة في العديد من ديار الإسلام. فكانت تبنّى الأضرحة فوق مدافن رجال التقوى والصلاح بالخصوص، فضلاً عن قبور الأمراء التوّافين إلى حفظ ذكراهم في عالم بلغة الغموض. إن معظم الأضرحة كناية عن مبانٍ مقببة، وهي إما مربعة الشكل أو مثمّنة الأضلاع أو دائرية؛ وتتواوج ما بين أضرحة الأولياء البسيطة في شمال إفريقيا إلى صرح «تاج محل» المهيب في الهند، والكثير منها مزوّد بمحراب يحدّد اتجاه القبلة إذا ما أراد زوّار المقام أن يؤدّوا الصلاة على روحه. ولبعضها مبانٍ ملاصقة كي

إن وجود المسلمين في أية بقعة من العالم إنما يُستدلّ عليه بهمان من أنماط مميزة، يأتي في طليعتها المسجد الجامع، أو مسجد الجمعة، وإذا كان من الجائز أن يتخذ

المسجد أي شكل كان، تبعاً للمواد المتوافرة محلياً وتقاليد البناء المتعارف عليها، فإن المبنى يجب أن يكون دائماً موجهاً للقبلة، أي في اتجاه الكعبة، ورحباً بما فيه الكفاية لاستيعاب المؤمنين. تشيّد المساجد، على العموم، من الطوب أو الحجارة، وتُسقف عادة بالعمود أو القباب. فطالما كان الخشب نادراً، وبالتالي غالباً جداً، كي يُستعمل في التسقيف في المناطق الجافة إلى حد بعيد، وإن كان قد استعمل على نطاق واسع في المناطق كثيفة الأجراس كبلاد الأناضول وجنوب شرقي آسيا. وفي أساكين أخرى، أُخترت الأنساق الممتازة من الخشب خصيصاً لتأثيث المساجد، فكانت تصنع منها المنابر ومناضد القراءة، التي غالباً ما تكون مطعّمة بأخشاب أخرى، بالعاج أو بعرق اللؤلؤ. كانت المساجد تزيّن على

نحو متقن بواسطة البلاط اللامع والنقوش المجصّصة، وتكسى أرضيتها بالسجاد المزبّر أو العادي. وقطع السجاد المستعملة في المساجد هي من النوع الموشى بتصاميم نباتية، هندسية وكتابية. ذلك أن تصوير الأشخاص كان مستبعداً من السياقات الدينية، ولا تجده إلا في الأساكين والوضعيات غير الدينية. عملياً، كل المساجد لها «محراب» في الجدار لاستقبال القبلة، والعديد منها تعلوها منمنمة أو أكثر يُرفع منها الأذان لإقامة الصلاة. ولما كانت المساجد في الجملة

حلية معمارية من النقب النافر، موجودة في قصر بناء السامون، أتوى ملوك الطوائف، في طليطة



كنائس أوروبية، واستُخدم بعضها لدفن عظام القديسين المسيحيين.

إن المكتشفات الأثرية لتشهد على مدى اتساع شبكة الطُرق التجارية التي كانت تقاطع في ديار الإسلام طويلاً وعرضاً، رابطة الصين والهند وإفريقيا الاستوائية بأوروبا. ويفضل تدجين الجمل قبل ظهور الإسلام، صارت التجارة تتم في معظمها بطريق البر، مع إنشاء خانات يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة

تتسع للزوّار المنتظرين أو للقيام ببعض الخدمات العامة المتراوحة بين تدريس القرآن وإعداد الطعام للفقراء، وبهذه الطريقة، كان يتسنى للسادة استخدام مؤسّسة خيرية ما لتوسيع إقامة ضريح.

يُدفن المسلمون في التراب مباشرة، ملفوفين بكفن أبيض بسيط ليس إلا. وهكذا، فإن أدوات الدفن التي عادةً ما يُحوّل عليها علماء الآثار لفهم التقاليد الثقافية الأخرى، لا وجود لها في ديار الإسلام. غير أن

فناء داخلي لمان قانصوه الغوري في القاهرة.



15 ميلاً لإيواء المسافرين ودوابهم وكذلك بضائعهم. وجزءاً من التجارة كان يتمّ بطريق البحر، فيسلك خطوطاً موازية لسواحل المتوسط أو يتتبع مجاري الرياح الموسمية حول المحيط الهندي. وقد أتاح التقدم المحرّز مؤخراً في مجال التنقيب الأثري تحت سطح البحر، استكشاف مواقع السفن الغارقة، كذلك السفينة العائدة إلى القرن الحادي عشر التي تمّ العثور عليها في سرجي ليماني قبالة الشواطئ التركية. وكانت الغلة من ذلك الموقع كمية ضخمة من كسرة الزجاج المصّدة لإعادة التدوير.

الجفاف النسبي الذي يميّز القسم الأكبر من مناطق العالم الإسلامي، ولا سيما مصر وآسيا الوسطى، ساعد على حفظ المواد العضوية الهشة التي لولاه لكانت اضمحلت في التراب. وأهم هذه المواد، الأقمشة التي كانت تلعب دوراً محورياً في الاقتصاد الإسلامي في القرون الوسطى، والكثير من هذه الخرق في حالة بالية وغير جذابة بالمرّة حتى إنهما نادراً ما تُعرض في المتاحف. ومن المفارقة بمكان، أن أفضل أصناف الأقمشة من بلاد المسلمين، والكثير منها مزركش بابتهالات وتبريكات عربية، كانت قد حُفظت في





## توزع المسلمين في العالم (عام 2000)

هناك ما يقارب المليار ومئتي ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يُناهز خمسَ تعداد البشرية. والغالبية العظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق الممتدة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة التكتيفية تسمح بدرجة تركز

الحجم السكاني، فهو باكستان التي تعدّ 134 مليون نسمة، تليها الهند (121 مليوناً)، وبنغلادش (114 مليوناً)، ومصر (61 مليوناً)، وتيجيريا (61 مليوناً). ومن بين البلدان الإسلامية الستة الأولى التي تضم أكثر من نصف عدد مسلمي العالم، وحدها مصر تنطق بالعربية، وأضحت جزءاً من العالم الإسلامي في زمن متقارب ونشأة الإسلام. وفي واحد من هذه البلدان الستة، الهند، يعيش المسلمون كأقلية. صحيح أنها أقلية ضخمة، لكنها لا تزال قابلة للعطب. من الوجهة الديمغرافية، يجوز القول إن الإسلام «القديم» الذي أبصر النور في مجرى الفتوحات الإسلامية، قد لحق به بل وتحفّاه الإسلام «الفتي» في المناطق الاستوائية إجمالاً.

ومن الناحية الطائفية والمذهبية، فإن حوالي 85 بالمائة من مسلمي العالم ينتمون إلى التيار الرئيسي للدين الإسلامي، أعني المذهب السني؛ وهم يندرجون من حيث العرف وإن ليس دائماً بالممارسة إلى أحد المذاهب السنية الأربعة: المذهب الحنفي، وكان المذهب الرسمي للإمبراطورية العثمانية، ويسود في الممتلكات العثمانية السابقة، بما فيها بلاد الأناضول والبلقان، وكذلك في بلاد ما وراء القوقاز وأفغانستان، وباكستان، والهند، وجمهورية آسيا الوسطى والصين؛ والمذهب المالكي، الذي يطغى في المغرب وبلدان غرب إفريقيا؛ والمذهب الشافعي، الذي يُعمل به في مصر وفلسطين والأردن، ومناطق اليمن الساحلية، وبين قطاعات من مسلمي كل من باكستان والهند وإندونيسيا؛ وأخيراً، المذهب الحنبلي، وهو المذهب الساري في المملكة العربية السعودية. على أية حال، لقد تعايشت مذاهب فقهية مختلفة زمنياً طويلاً في بعض المناطق، وثمة قدر كبير من التداخل والتشابه فيما بينها في بلدان كمصر، حيث سمحت الحداثة الفقهية بـ«تلفيق» أحكام شرعية من شتى المذاهب.

يُمثل المسلمون من غير السنة حوالي 15 بالمائة من مجموع المسلمين في العالم. فالفوارج الذين انشقوا عن الجسم الرئيسي للإسلام في عام 660، مُتمثلون من خلال نسخة معدّلة عنهم تُعرف بـ«الإباضية»، في

هناك ما يقارب المليار ومئتي ألف مسلم في العالم اليوم، أي ما يُناهز خمسَ تعداد البشرية. والغالبية العظمى منهم يقيمون في الحزام الأوسط من المناطق الممتدة من إندونيسيا شرقاً إلى ساحل شمال إفريقيا على الأطلسي غرباً. وعلى ضوء تمدد الإسلام التاريخي نحو الأقاليم الاستوائية في جنوب وجنوب شرقي آسيا، حيث طريقة الزراعة التكتيفية تسمح بدرجة تركز



سكانية عالية، فإن البلد المسلم الأكبر حجماً من حيث عدد السكان (182 مليوناً) هو إندونيسيا. وهذا البلد بعيدٌ جداً عن المنبت أو الرّجُم الذي ولد فيه الإسلام؛ أعني جنوب غربي آسيا. أما البلد الثاني من حيث



استقلالية رجال الدين الذين طالما احتكروا تأويل ونشر وتطبيق أحكام الشريعة في الماضي. وفي الوقت عينه، أصاب الوهن سلطتهم الدينية، القائمة على الحقّ الحصري في الوصول إلى النصوص المقدسة، وبفضل التوسُّع في التعليم الثانوي وانتشار معرفة القراءة والكتابة. فالعديد من الحركات الإسلامية يقودها ويدعمها أناسٌ تلقوا تعليماً تقنياً حديثاً، وحصلوا تعليمهم الديني رأساً من النصوص الأولية أو الثانوية، وهي القرآن والحديث وكتابات المفكرين والفقهاء المحدثين، وليس بواسطة الدراسة الفقهية التقليدية. قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن الاتجاه نحو ما يمكن تسميته بعلمنة السلطة الدينية في الإسلام أو جعلها ديمقراطية، قد يفُضِي إلى صيغٍ أكثر تشدداً وسلفية، كذلك التي تروِّج لها منظمات من قبيل «رابطة العالم الإسلامي» التي مقرها في المملكة العربية السعودية. غير أنه بالرغم من كل هجمات الإصلاحيين وما يجوزُ وسمها بـ«الأمبريالية الدينية» المنبثقة من مناطق إنتاج النفط، الغنية مالياً إنما المحافظة ثقافياً، فقد أثبتت تقاليد الصوفية المتسرلة بالغيبيات أنها على درجة عالية من الرجوعية والقدرة على التكيف. ففي إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وفي العديد من مناطق آسيا، ومنها الجمهوريات السوفييتية السابقة، نجد صيغاً من الإسلام طلع بها زعماء كاريزميون تمرَّسوا في مجالات تهذيب النفس والتحكُّم بالفرائض والأهواء (وهي مجالات تُكسَلُ وإن كانت لا تحلُّ بالضرورة محل الفرائض الدينية المعتادة من صلاة وصيام وزكاة وحج)، لا تني تُسجَلُ تقدماً وتبني على مآثورات جرى تشاقلها زمناً طويلاً إما بالتواتر الشفهي أو من خلال العلاقات الشخصية. إن التنوع الشديد الذي يسم المعتقدات والعبادات الإسلامية، كما هي شائعة أو «مجمّدة» في النصوص، ما هو إلا وجهٌ من معجميتها الرمزية الغنية و ذخيرتها الوافرة من المعاني، وإن تأخذ الأشكال المتينة من السلطة الدينية طريقها إلى الانحلال وينكشف جزءها أكثر فأكثر عن مواجهة تحديات الحداثة، تخرج إلى حيز الوجود أشكال بديلة من السلطة الروحية والقوى الاجتماعية سواء بسواء.

عُمان، وزنجبار، وتاهرت في الداخل الجزائري، أما الشيعة، فيتركزون في إيران، وجنوب العراق، والكويت، والبحرين، بالإضافة إلى أقليّات ليست بالصغيرة منهم في كل من أفغانستان (3,8 ملايين أو 15 بالمئة من السكان)، الهند (30 مليوناً أو 3 بالمئة)، لبنان (1,2 مليون أو 34 بالمئة)، باكستان (28 مليوناً أو 20 بالمئة)، سورية (مليونان أو 12 بالمئة)، تركيا (3 ملايين أو 20 بالمئة)، الإمارات العربية المتحدة (حوالي نصف مليون أو 16 بالمئة)، واليمن (7 ملايين أو 40 بالمئة)، والسود الأعظم من الشيعة - حوالي 85 بالمئة - ينتمون إلى الشيعة الإمامية أو الاثني عشرية. ومعظم الشيعة الإمامية يتقدّون بواحد أو بأخر من كبار الزعماء الدينيين، أو «آيات الله العظمى»، الذين يُعرفون بـ«المراجع» (مراجع التقليد أو الاجتهاد)، ويتخذون صفة المُفسِّرين المؤهلين للشرع الإسلامي. والطائفتان الشيعيتان الأخريان هما: الزيدية في اليمن، والإسماعيلية أو الشيعة السبعية ممثلة بمذهبين ما برحا قائمين إلى يومنا هذا، ويعود هذان المذهبان في منشئهما إلى الخلافة الفاطمية: المستعلية، ويُعرف أتباعها في جنوب آسيا وشرق إفريقيا بـ«البهرة»، وهم يتبعون الداعي المطلق للإمام/الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (ت 1101)، والنزارية، ويتبع أصحابها زعيمهم الروحي: الأغا خان، وهو نبيل من ذرية فارسية تنحدر من محمد بن إسماعيل الذي يُعتبر بمثابة إمامهم الحي. وقد عاش النزاريون ضمن جاليات صغيرة في سورية وإيران وآسيا الداخلية وشمال غربي الهند إلى حين هجرتهم إلى إفريقيا والغرب ابتداءً من القرن التاسع عشر.

إن العديد من المسلمين الملتزمين سواء أكانوا من السنّة أم من الشيعة، يتقدّون بأحكام واحد من المذاهب الفقهية أئمة الفكر. لكن الحاصل أنه في العديد من البلدان ذات الأغلبية المسلمة، جرى إيمان عناصر من الشرع الإسلامي، ولا سيما القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والميراث، في صلب النظام القانوني للدولة ففي معظم البلدان الإسلامية، أقدمت الدولة الحديثة، بدءاً بالإصلاحات، أو «التنظيمات» العثمانية التي وضعت المؤسسات الإسلامية تحت سيطرة الدولة بالترتيب، على اجتراف

رفع الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلاة: صوتٌ يتردد صدى عبر العالم الإسلامي البالغ التنوع





## السينما الإسلامية

العام في حانة لاحتساء البيرة في ميدان غلطة بإسطنبول. وفي إيران، بدأ أوهاانس أوغانيان، الإيراني من أصل أرمني، ببناء دور السينما للعموم في عام 1905، وأنشأ أول مدرسة لتعليم السينما في عام 1929، وأنتج أول فيلم روائي إيراني في عام 1930. كانت معظم أنحاء إفريقيا وآسيا عرضة للتصوير السينمائي كجزء من التجربة الاستعمارية التي كانت تعيشها. فكان أن شكّل العالم العربي بدرجة كبيرة ستارة خلفية مثيرة للأفلام الغربية. وهكذا، فتنّ اهتماماً واسعاً بحكم كونها الأراضي المقدسة، وأسرت مصر فضول الناس لتاريخها الغابر، وإذا كانت صناعة السينما الاستعمارية قد أنتجت قرابة 200 فيلم في شمال إفريقيا، فإن ستة منها فقط شارك فيها ممثلون عرب.

وأدى إدخال الصوت باللغات العامية إلى إعطاء إنتاج الأفلام المحلية دفعة قوية، فالسينما المصرية، على سبيل المثال، اجتذبت المستثمرين والمشاهدين المحليين على السواء عندما أشركت موسيقيين ومغنيين مصريين شعبيين من أمثال المطربة أم كلثوم في أفلامها. هذا ولم تكتفِ السينما المصرية بأن صارت قوة موجّهة في البلدان العربية الأخرى، بل تركت كذلك بصماتها واضحة على الفنّ السينمائي في بلدان بعيدة جداً عنها كالأفلام الناطقة بالفارسية في إيران ما قبل الثورة الإسلامية. غير أن صناعة السينما الوطنية لم يتسّن لها أن تحرز تطوراً في معظم البلدان العربية الأخرى بسبب القيود المالية والضغط الاستعماري. وأغلب هذه البلدان لم تعرف صناعة السينما إلا بعد نيلها الاستقلال (لبنان وسورية في الأربعينيات من القرن العشرين، وبلدان شمال إفريقيا في الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن نفسه).

إبّان الحقبة الاستعمارية، كثيراً ما كانت الأفلام المستوردة إلى الأقطار العربية وسيلة من جملة الوسائل لخدمة أغراض قوى الاستعمار. حتى اليابانيون لجأوا إلى استخدام صناعة السينما الإندونيسية الوليدة لدعم مجهودهم الحربي إبّان احتلالهم إندونيسيا في الفترة 1942-1945. وفي الوقت عينه، أسهمت السينما في تقبيل اللغة الإندونيسية لتغدو اللغة القومية للبلاد، في العام

دخلت صناعة السينما المجتمعات الإسلامية بعد زمن وجيز من ظهورها في الغرب، وقد عرضت في بادئ الأمر على جمهورٍ مُنتخب من المشاهدين. فلم ترض بضعة أشهر على الظهور الأول للسينما في أوروبا عام 1896، حتى كانت أفلام الأخوين لوميير تُعرض على الشاشة في العالم العربي لجمهور من النخبة في غالبيتها. ففي مصر، على سبيل المثال، كانت العروض السينمائية تُقدّم في مبنى بورصة طوسون بالإسكندرية، وفي المغرب داخل القصر الملكي بفاس. أما في تركيا، فالعروض كانت تتمّ في بلاط السلطان، أي في قصر يلدز بإسطنبول. وفي عام 1900، سافر العاهل الإيراني مظفر الدين شاه إلى فرنسا خصيصاً لمشاهدة «السينما جغرافيا» و«الغانوس السحري».



وفي السنة عينها، صوّر ميرزا إبراهيم خان، مصوّر الملك الخاص، فيلمه «حفل الأزهار» في بلجيكا، مُخرِجاً بذلك أول فيلم إيراني في تاريخ السينما. أبصرت صناعة السينما المحلية في تلك الأقطار النور بفضل جهود الأجناب أو أفراد من الأقليات فيها. وتسوق مثلاً على ذلك، سيغوموند وينبرغ، الروماني من أصل بولندي، الذي شرع يعرض الأفلام على الجمهور

حصل هبوط مفاجيء في عدد الأفلام المنتجة في تركيا، إلا أنه عاد وارتفع مجدداً مع نهاية ذلك العقد. تركز معظم الدول في المنطقة على إحكام قبضتها على صناعة السينما لما لها، في عرفها، من أهمية فائقة كوسيلة تغيير وأداة احتجاج. ففي تركيا، مثلاً، تعمل مثل هذه الرقابة الصارمة على مستويين: على مستوى السيناريو، وكذلك على مستوى الفيلم المنجز. وثمة عملية مشابهة تحدث في إندونيسيا، حيث تتم الرقابة قبل تصوير المشاهد وأثناء عملية التوليف. وفي السينما الإيرانية، لا تخرج الأفلام بنسختها النهائية إلى شاشات العرض إلا بعد أن تنال ترخيصاً رسمياً من الدولة. وفي حالات قليلة يكون هذا الترخيص مطلوباً حتى في مرحلة كتابة النص. وفي معظم الدول العربية، يتعين على المشاريع السينمائية أن تستحصل مسبقاً على إذن رسمي بالتصوير، وذلك قبل نيل الترخيص الأخرى من وزارة الإعلام أو سواها من السلطات الرقابية بغية ضمان جدارتها التجارية.

وحرى بنا أن نذكر هنا «بوليوود»، أي صناعة السينما الهندية التي تتخذ من مومباي (ومومباي قاعدة لها، ليس فقط لأنها كانت موضع تقليد ومحكاة واسعة في كثير من البلدان الإسلامية، ولا سيما في عقودها الأولى، بل وبالنظر كذلك إلى الوجود المهم للمسلمين فيها. وككتبة سيناريو ومنتجين وموسيقيين وممثلين... الخ. وهناك أيضاً صنف من الأفلام السينمائية الهندية يُدعى «شاهنشاه» (ملك الملوك)، وهو يعود زمنياً إلى فيلم «بوكار» (1939) الذي تدور قصته حول الأمباطور المغولي جيهانكير. إنه أول «فيلم اجتماعي إسلامي» جدير بالتشويه. ولئن استمرت شخصية هذا الأخير بالظهور في أفلام من الإنتاج الحديث، إلا أن الحضور المسلم فيها أخذ يرتدي طابعاً أقل ملوكية، مركزاً في الأكثر على مشاكل الطبقة المتوسطة الإسلامية في شمال الهند... إلى أن اضمحل هذا الصنف السينمائي تدريجاً بعد سبعينيات القرن العشرين.

نشور، في الختام، إلى أنه وبعد غياب ملحوظ عن عالم السينما (أقل من أربعين عاماً ما بين طويل وقصير)، عادت أفغانستان إلى مسرح السينما العالمية بفيلم: «أسامة» في العام 2003، وهو من إنتاج أفغاني - ياباني - إيرلندي مشترك. ولكنه أول فيلم سينمائي أفغاني ما بعد طالبان. فقد عُرض في مختلف مهرجانات السينما العالمية، بما فيها مهرجانا كان ولندن.

العربي، اتخذ الإنتاج السينمائي منحى قومياً واشتراكياً متعاطفاً بعد الاستقلال، حيث دأبت كل من سورية والجزائر وتونس تتوسل الفن السينمائي للإغلاء من شأن هويتها القومية على الشاشة. وفي إيران، دشّن فيلم «البقرة» لداريوش مهرجوي، الفائز بإحدى الجوائز السينمائية، وكذلك فيلم «قصير» لمسعود كيميئي، وكلاهما أنتجا في العام 1969، بداية ما يُعرف بـ«الموجة الجديدة» في السينما الفنية الإيرانية، التي راحت الأفلام الإيرانية بعدها تنال إطرأً عالمياً متزايداً. وحالي الفترة ذاتها، وبالتحديد في عام 1970، شكّل فيلم يلماز غوناي «الأمل»، الحائز هو الآخر على إحدى الجوائز السينمائية، نقطة انعطاف في السينما التركية ودشّن مرحلة «الموجة الجديدة» من الأفلام التركية.

في الفترة 1978-1982، واجه السينمائيون في إيران مستقبلاً غامضاً نتيجة لعدم الاستقرار المالي وقلة اهتمام الحكومة بالسينما خلال المرحلة الانتقالية، ناهيك عن أمور أخرى غيرها. وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، لم يصر إلى إنتاج أفلام من النوعية الجيدة في تلك الفترة. قبل الثورة، كان علماء الدين في معظمهم يرفضون السينما أو يتجاهلونها. لكن الإسلاميين، بعد الثورة، أدركوا ما لها من قوة مؤثرة وقرروا وضعها تحت إشرافهم وتوجيههم. وهكذا، صار يتبنّى السينما عند الصمغيني بمثابة سلاح أيديولوجي يُحارب به الثقافة المائلة للغرب والإمبريالية لنظام حكم بهلوي. وفي عام 1989 (عام وفاة الصمغيني)، ظهرت أفلام، ومنها فيلما «باشو» و«الغريب الصغير»، لتكسب السينما الإيرانية من جديد إعجاباً وتقديراً على نطاق العالم. والسينما الإيرانية وبمساوحها المجال هكذا أمام خطاب لا يني ينمو ويتطور داخل المجتمع. إنما تكرّست أداة خطيرة الشأن في عملية التغيير نفسها.

شهدت الثمانينيات من القرن العشرين بدء انسحاب الدول العربية من مضمار الإنتاج السينمائي. فقد وقعت صناعة السينما الجزائرية في الإفلاس، فيما واجهت نظيرتها المصرية أزمة اقتصادية خانقة. وجاء التلفزيون وإنتاج شرائط الفيديو بالجملة ليزيد من تدهور صناعة السينما في المنطقة كافة. فكان أن توجهت الأفلام نحو الإنتاج المشترك مع الغرب؛ وهذه هي الحال في بلدان شمال إفريقيا وسورية، ولاسيما في لبنان. وعند بداية الثمانينيات من القرن الماضي،

الصورة إلى اليمين: المخرجة  
السينمائية الإيرانية سميرة  
مخلفيات تقف أمام عدسات  
الكاميرا بعد نيلها جائزة عن  
فيلمها «الخامسة بعد الظهر»، وذلك  
خلال الحفل الاحتفالي لمهرجان  
«كان» السينمائي السادس  
والعشرون في أيار / مايو 2003.  
هي ابنة المخرج المحبوب محسن  
مخلفيات. أخرجت فيلمها الأول  
«التفاحة» (1998) في عمر الثامنة  
عشرة كذلك فإن فيلمها «اللوح  
الأصود» (2000) عن اللاجئين  
الأكراد على الحدود العراقية  
الإيرانية قد نال أيضاً جائزة في  
مهرجان «كان».

## استخدام الإنترنت

الوصول إلى أحكام مراجع التقليد الأحياء، من أمثال آية الله العظمى السيستاني، المرجع الأكبر للشيعة في العراق. فصفحات موقعه على الإنترنت تغطي مسائل وهموماً معاصرة، كبطاقات الانتماء، والتأمين، وحقوق المُلكية، وتشريح الجثة، والتبرع بالأعضاء، فضلاً عن طلب المشورة حول الواجبات والفرائض الدينية. ولبعض الطُرُق الصوفية مواقع على الشبكة تحكي بالتفصيل عن خطوط النسب الروحية لمشايخها، ونصوص الأوراد والأذكار المستخدمة في طقوسها. لكن، طالما أن الكثرة الكاثرة من الممارسات

قبل قُدوم العصر الرقمي، كانت المسائل الإسلامية المتأثرة للنقاش أو المطروحة للحل تُعالج في كثير من الأحيان محلياً، من قبل علماء الدين، مفسري العقيدة الدينية المعترف بهم، القائمين بدور الوكلاء الرئيسيين للسلطات الدينية. وكان لانتشار معرفة القراءة والكتابة والتعليم الثانوي في الشطر السُني من العالم الإسلامي، أثره المجترف لوزن وأهمية هؤلاء العلماء قبل وقت طويل من ظهور شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). مع ذلك، فالإنترنت تُسهم في تسريع وتيرة هذه العملية بتسهيلها أمر اضطلاع الأفراد أنفسهم بالاجتهاد، استناداً إلى مصدرين أساسيين هما: القرآن والحديث. فيما مضى كانت المرجعية المعرفية حكراً على الفقهاء المؤهلين دون غيرهم، لكن جاء هذا التطور المُذهل ليسبب البساطة من تحت أقدام الهرمية التقليدية للمعرفة.

إن المسلمين المبحرين على الشبكة غير مضطرين بعد اليوم إلى استشارة المعاجم المفهورة للقرآن أو مراجع الفقه الرزينة للتوصل إلى اجتهادات أو أحكام، بل حسبهم ببساطة أن ينفذوا إلى مواقع معينة على الشبكة، فيستعرضوا فيها بالمسح الإلكتروني الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بمجرد النقر على كلمات مفتاحية بعينها. أو إذا شاؤوا، بإمكانهم إرسال أسئلتهم بالبريد الإلكتروني إلى مئات المواقع على الشبكة التي تقدّم الإرشادات الاجتماعية والمسلكية والدينية، وفي بعض الحالات، التوجيهات السياسية أيضاً. والكثير من المواقع ذات التمويل الجيد في المملكة العربية السعودية أو دول الخليج، غالباً ما تكون أجوبتها أميل إلى المحافظة، وقد لا تكون دائماً حساسة لظروف السائل الاجتماعية أو الاقتصادية. لناخذ الأجوبة على أسئلة الشباب اللواتي يعشن في أميركا الشمالية بصدد ما ينبغي عمله بشأن المعاملة السيئة التي يلقينها من أبائهن، مثلاً إنها قد لا تخرج عن تكرار التشديد على وجوب طاعة الآباء وواجبات الأبناء والبنات تجاههم، لا بل وتقدمها حتى على حقوقهم كمواطنين.

بالنسبة للشيعة الاثني عشرية، وهي التي يقوم رجال الدين فيها وليس النصوص مقام المدبّر الرئيسي للسلطة الدينية، تؤسّن شبكة الإنترنت سهولة



كان يُطبقه نظام طالبان الباندي في أفغانستان باسم تعاليم الإسلام «الحقة».

رغم الانتشار السريع لخدمات الإنترنت في طول العالم الإسلامي وعرضه، تبقى النتائج البعيدة المدى لهذا الانتشار غامضة نوعاً ما. فمن جهة، ثمة خطاب إسلامي «كوثي» أخذ بالبروز وبما يتجاوز حدود التقاليد والأعراف المحلية، بما فيها تلك السائدة ممثلة بمؤسسات عريقة كالأزهر في القاهرة. ومن جهة أخرى، لا يستطيع الخطاب الأخذ بالبروز هذا أن يتهرب من معالجة موضوع التنوع والمخالفة، طالما أن الأقليات والجماعات المخالفة قادرة على تحدي رأي التيار الرئيسي في تلك الثقافات، حيث تكون التعددية الدينية والسياسية عرضة للكبت في أغلب الحالات.

الصوفية تبقى مغلقة في وجه الدخلاء من غير المنتمين إليها، فإن الطرق الأكثر تقليدية هي من يسهر على إدارة مواقع لها على الشبكة.

كذلك، الإسلام السياسي حاضر بقضه وقضيضه على الإنترنت، بحيث يمكن للمرء الوصول بسهولة وسرعة إلى معظم الأحزاب السياسية الإسلامية من خلال مواقعها العديدة، كما أن قوى المعارضة موجودة هي الأخرى على الشبكة، وإن كان الوصول إلى مواقع الجماعات المحظورة دونة قيود وتعقيدات في بعض الحالات من جانب أجهزة الرقابة الحكومية. وثمة جماعات للنساء المسلمات تنشط في «الفضاء السيبرنتيكي» ضد الممارسات الأبوية من النوع الذي



## جدول زمنيّ بأهمّ الأحداث الإسلامية

622-570	محمد في مكّة	«اختفاء» محمد المهدي، الإمام الثاني عشر للشيعة، أو «الإمام المنتظر».	
632-622	محمد في المدينة	«الغيبة»، الصغرى، أو الاحتجاب الذي يتمثل خلاله إمام الشيعة الاثني عشرية بأربعة وكلاء.	
634-632	خليفة أبي بكر الصديق. انتصار المسلمين في حروب الردة. توحيد الجزيرة العربية.	874	وفاة أبي يزيد البسطامي، أول المتصوفة «السكراني».
644-634	خليفة عمر بن الخطاب. فتح معظم أراضي الهلال الخصيب. مصر والقسم الأكبر من بلاد فارس. التوسع باتجاه شمال إفريقيا.	909	تأسيس أول دولة فاطمية للإسماعيليين في إفريقيا (تونس الحالية).
656-644	خليفة عثمان بن عفان. تواصل الفتوحات شمالاً وشرقاً وغرباً. جمع القرآن وتوحيد النصّ.	922	إعدام الحلاج بتهمة الزندقة، والشهيد، بنظر المتصوفة المتأخرين.
661-656	الفتنة الأولى إبان خلافة علي بن أبي طالب.	961-929	الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث ينشئ خلافة أموية في قرطبة بإسبانيا.
712, 668, 660	إخفاق العرب في الاستيلاء على القسطنطينية.	940	برادة الغيبة الكبرى، أو الاستتار الذي يفقد خلاله الشيعة الاثنا عشرية الاتصال بإمامهم.
661	مقتل علي. إقامة الخلافة الأموية على يد معاوية في دمشق.	945	البوهييون الشيعة يستولون على بغداد ويعملون الخليفة العباسي رهينة فعليه لديهم.
680	الفتنة الثانية. ثورت معاوية الحكم لابنه يزيد يثير تمرد الحسين بن علي. استشهاد الحسين وأتباعه في كربلاء بالعراق.	1171-969	الخلافة الفاطمية (الإسماعيلية) في مصر.
705-685	عهد الطليقة عند عبد الملك بن مروان. باني قبة الصخرة في القدس.	1030-998	محمود الغزنوي (من غزنة، أفغانستان حالياً) يغزو شمال الهند.
691-687	الخوارج يسيطرون على معظم أرجاء الجزيرة العربية.	1220-1037	الأتراك السلاجقة، المنطلقون من أواسط إيران والزاحفون غرباً، يعيدون العقيدة السنية التقليدية إلى قلب العالم الإسلامي.
711	العرب يتقدمون داخل إسبانيا.	1167-1056	المرابطون، الوافدون من إفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، يصدّون تقدم المسيحيين في إسبانيا.
713-712	العرب يفتحون بلاد ما وراء النهر (بخارى وسمرقند).	1071	السلجقة يهزمون الروم (البيزنطيين) في معركة ملاذكرد، فاتحين بذلك برّ الأناضول أمام الاستيطان التركي.
728	موت الحسن البصري، المعلم الصوفي الأول.	1118-1090	الإسماعيليون الزناريون ينتفضون في وجه الخلفاء السنية. السلجقة يتخذون من بغداد عاصمة لهم.
732	سوقعة بواتيه. شارل مارتيل يوقف تقدّم العرب داخل فرنسا.	1091	الصلبييون يحتلون أجزاء من سورية وفلسطين.
750-744	الفتنة الثالثة. السلالة الأموية تسقط على أيدي العباسيين (749) بسبب الضعف الذي نالها من جراء الانشقاقات والمنازعات الداخلية.	1096-1099	الصلبييون ينتزعون القدس من المسلمين.
756	قيام الحكم الأموي في إسبانيا.	1111	وفاة الغزالي (م 1058)، المتصوّف والمتكلم السنيّ.
765	وفاة جعفر الصادق، سادس أئمة الشيعة. انقسام الشيعة إلى إسماعيليين، واثنى عشرية، وزيديين.	1130	وفاة ابن تومرت، مؤسس السلالة الموحدية في إسبانيا.
767	وفاة أبي حنيفة (م 699)، مؤسس المذهب الحنفي في الفقه.	1187	صلاح الدين الأيوبي يطرده الصليبيين من القدس.
809-786	عهد هارون الرشيد، الطليقة التمزّجي لعصر الإسلام الذهبي.	1198	وفاة ابن رشد (م 1126)، الفيلسوف الأندلسي.
795	وفاة مالك بن أنس (م 713)، مؤسس المذهب المالكي.	1205-1287	قيام سلطنة دلهي في الهند.
801	وفاة رابعة العدوية (البصرية)، المتصوفة والشاعرة.	1220-1231	غارات المغول في بلاد ما وراء النهر وشرق إيران تعيث دماراً وخراباً في المدن.
813-833	خليفة المأمون، صعود المعتزلة (العقلانيين) وال مدرسة الاعتزالية في علم العقائد (أو علم الكلام).	1225	الموحدون يتخلون عن إسبانيا، وانحسار الوجود الإسلامي هناك يقتصر على مملكة غرناطة الصغيرة (1232-1492) فقط.
820	وفاة الشافعي (م 767)، مؤسس المذهب الشافعي في الشرع الإسلامي.	1227	موت جنكيزخان.
861-847	خلافة المنوكل، الذي انقلب على المعتزلة.	1240	وفاة ابن عربي (م 1165)، شيخ النبووصوفية الإسلامية.
945-861	تفكك أوصال الدولة العباسية مع استقلال الولايات تبعاً إلى أن فقدت سلطة الخلافة السيطرة تماماً على أراضيها.	1256	سقوط قلعة الموت، آخر معقل إسماعيلي جنوبي بحر قزوين.
870	وفاة البخاري (م 810)، المحدث (جامع الأحاديث النبوية).	1258	خراب بغداد على أيدي المغول.
873	وفاة مسلم، المحدث.	1260	المماليك، خلفاء الأيوبيين في مصر، يهزمون المغول، الذين



1805-1848	محمد علي يُباشر عملية التحديث في مصر.	لم يعرفوا طعم الانكسار حتى الآن، في معركة عين جالوت بفلسطين.
1815-1817	ثورة الصرب على العثمانيين.	ن 1300
1818	بريطانيا تصعب القوة صاحبة السلطة المطلقة في الهند.	بزوغ السلالة العثمانية (العثماني) في بيشنبا، على حدود بيزنطة في غرب الأناضول.
1820	محمد علي يتبرع في إخضاع السودان.	1326
1821-1830	حرب الاستقلال اليونانية.	العثمانيون يحتلون بورصة، أول عاصمة حقيقية لهم.
1830	بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر.	1362
	إنشاء الخرطوم كموقع بريطاني - مصري متقدم في أعالي النيل.	ن 1378
1832-1848	القوى الأوروبية تتسارع إلى نجدة الأمبراطورية العثمانية في وجه احتياح محمد علي لأراضيها.	صعود نجم تيمورلنك، التركي العامل في خدمة المغول في بلاد ما وراء النهر، ليغزو القسم الأكبر من آسيا الوسطى والغربية.
1839-1861	فشل «التصدير» الهندي يؤدي إلى إلغاء «شركة الهند الشرقية»، ويُسَهِّل السبيل لدمج الهند في صلب الأمبراطورية البريطانية.	1389
1859	الروس يهزمون الإمام شامل في القوقاز، ويتبعون ذلك بضم الشيشان وداغستان إلى ممتلكاتهم.	1405
1867	تأسيس أكاديمية بيونيد في شمال الهند من قبل فئة من المصلحين الذين يُحاذرون الاتصال بالبريطانيين.	1453
1868	اكتشاف الضم الروسي لكازاخستان.	ويُخضع الأمبراطورية البيزنطية.
	إمارة بخاري تصبح محمية روسية.	1498
1869	افتتاح قناة السويس.	فاسكو داغاما يدور حول رأس الرجاء الصالح، مُتَهِياً بذلك احتكار المسلمين للتجارة في المحيط الهندي.
1875	انهيار خزانة الدولة المصرية. السويس تُباع للبريطانيين.	1501
1876	إعلان أول دستور عثماني بعد وقوع ثورة في القصر.	صعود الدولة الصفوية في إيران. الشيعة الاثنى عشرية تصعب للعقيدة الرسمية للدولة.
1876-1909	السلطان عبد الحميد يُعَلِّق الدستور، ويجري إصلاحات في مجالات التعليم والنقل والاتصالات من خلال الحكم الاستبدادي.	1517
1881	إعلان تونس محمية فرنسية.	1526
1882	احتلال بريطانيا لمصر.	معركة باننوبت (الهند) تتيج للأمبر التيموري، باهر، أن يؤسس الأمبراطورية المغولية (المغلية) في الهند.
1885	مقتل الجنرال غوردون (الملقب بـ«الصيني») في الخرطوم أثناء الثورة المهديّة ضد الحكم المصري المدعوم من بريطانيا.	ومعركة موهاكس تجعل من الكاثوليك الجبريين تابعين للأمبراطورية العثمانية.
1889	محمّد عبده، تلميذ الأفغاني ومريده، يعود إلى مصر ويُقرّر التعاون مع البريطانيين.	1529
	طلاب الأكاديمية العسكرية في استنبول، يُشكّلون أول تنظيم ثوري، لـ«تركيا الفتاة» باسم «جمعية الاتحاد والترقي».	1552
1897	وفاة السيد جمال الدين الأفغاني (م 1838)، المُصلح والداعية للوحدة الإسلامية الجامعة.	1605-1556
1898	الحركة المهديّة في السودان تمنى بالهزيمة على يد قوة إنجليزية - مصرية مشتركة بقيادة الجنرال كيتشنر في موقعة أم درمان.	عبد الأمبراطور المغولي الثالث، أكبر، الذي رعى التقارب الثقافي والديني بين الهندوس والمسلمين.
	وفاة السير السيد أحمد خان (1817)، الشخصية الإصلاحية والتحديثية، ومؤسس جامعة عليكرة في الهند (1875).	1682-1699
1905	وفاء محمد عبده (م 1849)، مؤسس الحركة الإصلاحية السلفية الحديثة.	وولندا.
1906	تأسيس «الرابطة الإسلامية» في الهند.	1718
1906-1908	وقوع ثورة دستورية في إيران.	الصلح في باسروفيتز بكَرْس ما فقدته العثمانيون من مناطق لصالح آل هابسبورغ.
		1739
		العاهل الإيراني نادر شاه، يستيحي دلهي ويضع نهايةً لسلطة المغول في الهند.
		1757
		الوهايون ينتزعون الإحصاء في شرق الجزيرة العربية. انتصار بريطانيا في معركة بلاسي فتح الهند أمام التوسع البريطاني.
		1762
		وفاء شاه وليّ الله، المُصلح الصوفي الهندي من الطريقة السيرهندية.
		1774
		معاهدة كوتشوك كينارجي. العثمانيون يفتقدون شبه جزيرة القرم عقب هزيمتهم أمام روسيا. الاعتراف بالقياصرة الروس حماة للمسيحيين الأرثوذكس في البلاد العثمانية.
		1779
1789-1807	قيام السلالة القاجارية في إيران.	1789-1807
		الإصلاحات العثمانية الأولى على النهج الغربي في عهد السلطان سليم الثالث.
		1798
		تاليمون بوتنارت يتزل في بر مصر ويهزم المماليك في معركة الأهرامات: غزوته تولد اهتماماً بالثقافة الأوروبية.

1908	ثورة «تركيا الفتاة»، تجر السلطان العثماني على إعادة العمل بالدستور والتنازل للبرلمان مجدداً.
1909	اعتماد جمهوريتين منفصلتين للناخبين، أحدهما مسلم والآخر نموسي، في الهند.
1913-1911	إيطاليا تنتزع طرابلس الغرب من العثمانيين.
1912	إعلان المغرب محميةً فرنسية.
1918-1914	هزيمة الأمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى.
	إعلان مصر رسمياً محميةً بريطانية.
1918-1916	اندلاع الثورة العربية المدعومة من بريطانيا ضد الحكم التركي بقيادة حسين، شريف مكة، وابنه الأمير فيصل، والكولونيل الإنجليزي ت. إ. لورانس.
1917	وعد بلغور بفتح الجباب أمام الاستيطان المتزايد لليهود أوروبا في فلسطين.
1920-1917	الثورة الروسية والحرب الأهلية في روسيا تفضيان إلى وقوع نزاعات سوفياتية - إسلامية في آسيا الوسطى. المسلمون في كازاخستان وأذربيجان والقوقاز يناضلون في سبيل الاستقلال الوطني.
	القوات الروسية تطيح بجمهورية تركستان المستقلة (1918) وتتسبب باندلاع الثورة البسماتشية.
	إدراج بخاري وخيوغو ضمن الجمهوريات السوفياتية.
	انتساب بعض «التجديدين» المسلمين البارزين إلى عضوية الحزب الشيوعي.
1918	مؤتمر سان ريمو. عصبة الأمم تُكفّل دولاً بالانتداب على الولايات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، فتنتدب بريطانيا على فلسطين وشرقي الأردن والعراق، وفرنسا على سورية ولبنان.
	الفرنسيون يطردون الأمير فيصل بن الحسين من دمشق، والإنجليز ينجسونه ملكاً على العراق. وأخوه الأصغر، عبدالله بن الحسين، ينجب ملكاً على شرقي الأردن. الزعيم المصري سعد زغلول يترأس الوفد المطالب باستقلال مصر.
	إبعاده عن البلاد يُشعل فتيل «ثورة» وطنية.
	إلغاء السيادة العثمانية على مصر، فيما تحتفظ بريطانيا بحق الإشراف على شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والسودان وقناة السويس.
1922-1919	حرب الاستقلال التركية. مصطفى كمال (أتاتورك) يجمع شمل القوى الوطنية التركية لإنزال الهزيمة بالغزاة اليونانيين، وصدّ عمليات الإنزال الأوروبية على بر الأناضول.
1923	معاهدة لوزان تضمن وحدة وسلامة الأراضي التركية.
1924	آسيا الوسطى السوفياتية يُعاد ترتيبها تحت أسماء: جمهوريات أوزبكستان، وتركمانستان، وكازاخستان، وقيرغيزيا الاشتراكية.
	إلغاء الخلافة العثمانية. المحاكم الشرعية التركية تُستبدل بمحاكم مدنية.
	حركة «خلافت» الهندية تنحو باللامه على البريطانيين لإلغاء الخلافة.
	ابن سعود يفتح الحجاز، فيطرد الشريف حسين من الجزيرة العربية ويضع حجر الأساس لمملكة ومهابة مُحَدثة.
1926	تكوين الكيان اللبناني وفصله عن سورية تحت رعاية فرنسا وحمايتها.
1928	حسن البنا، المدرّس المصري، يؤسّس تنظيم «الإخوان المسلمين».
1932	العراق ينال استقلاله ويُقبل في عضوية عصبة الأمم.
1936	الفلسطينيون يطورون على الحكم البريطاني في فلسطين، وضد ازدياد الهجرة اليهودية من جراء وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا.
	محمد علي جناح يتولّى قيادة «الرابطة الإسلامية»، مُهَيِّباً بذلك دعم المسلمين لحزب المؤتمر.
	دستور سوفييتي جديد يُنظم آسيا الوسطى في ست جمهوريات اشتراكية سوفييتية (أوزبكستان، أذربيجان، كازاخستان، تركمانستان، طاجيكستان، قيرغيزيا)، وثمانى جمهوريات اشتراكية سوفييتية ذات حكم ذاتي (تاتارستان، باشكيريا، داغستان... وغيرها من أقاليم القوقاز الواقعة تحت السيطرة الشيوعية).
1938	وفاة محمد إقبال، الشاعر/الفيلسوف، والأب الفعلي لدولة باكستان.
1940-1947	الرابطة الإسلامية تتبنى فكرة قيام دولة إسلامية منفصلة للمسلمين الهنود.
1941	البريطانيون يُخمدون تمرداً موالياً للمحور قام به ضباط من الجيش العراقي.
1942	البريطانيون يجبرون الملك فاروق على استبدال رئيس وزرائه الموالى للمحور بأخرٍ أسهل انقياداً لهم وأكثر تعاطفاً مع قضية الطغاف.
1943	بده حملة الأبراه الصهيوني ضد البريطانيين في فلسطين.
1945	تأسيس جامعة الدول العربية.
1946	الاعتراف باستقلال كل من شرقي الأردن، ولبنان، وسورية. أعمال شغب واسعة النطاق تندلع بين الهندوس والمسلمين في الهند.
1947	استقلال الهند. تكوين دولة باكستان من المناطق ذات الغالبية المسلمة فيما عدا كشمير.
1948	انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. هزيمة نكراء تحل بالجيش العربية إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. نزوح الفلسطينيين عن ديارهم يخلق مشكلة لاجئين خطيرة.
	الأمير عبد الله، عامل شرقي الأردن، يضم القدس الشرقية (بما فيها البلدة القديمة) والضفة الغربية إلى دولته.
	رئيس الوزراء المصري، محمود النفراسي، يتعرّض للاغتيال.
1949	اغتيال حسن البنا على أيدي عملاء أجهزة الأمن ردّاً على مقتل النفراسي.
1952	الإطاحة بالملكية في مصر بانقلاب قادة ضباط قوميين عرب يزعّمهم جمال عبد الناصر ويحطون بدعم حركة الإخوان المسلمين.

1956	عبد الناصر يؤمّم قناة السويس؛ خطوة استهدعت تدخلًا عسكرياً من إنجلترا وفرنسا، في تواطؤٍ سريّ مع إسرائيل.
1958	قلب النظام الملكي الموالي لبريطانيا في العراق، بانقلابٍ دمويّ قاده الزعيم عبد الكريم قاسم.
1963	الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب عسكريّ قام به الضباط البعثيون بقيادة عبد السلام عارف.
1965	تأسيس منظمة التحرير الفلسطينيّة.
1966	إعدام سيد قطب، الكاتب والأيدولوجي ذي النزعة الكفاحيّة الجامحة في تنظيم الإخوان المسلمين بمصر مصرع الرئيس العراقيّ عبد السلام عارف في حادث طائرة.
1967	حرب الأيام الستة (في حزيران/يونيو) تنتهي بسيطرة إسرائيل عسكرياً على شبه جزيرة سيناء بأكملها، والضفة الغربيّة بما فيها البلدة القديمة من مدينة القدس، ومرتعات الجولان السوريّة.
1979	ياسر عرفات (أبو عمار)، قائد منظمة فتح، أكبر المنظمات الفدائيّة الفلسطينيّة، يُنتخب رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينيّة.
1968	سقوط الرئيس العراقيّ عبد الرحمن عارف (شقيق عبد السلام عارف وخلفه في الحكم) على يد الفريق أحمد حسن البكر، لكن السلطة الحقيقيّة في قبضة صدام حسين الكرويّتي.
1969	الإطاحة بالنظام الملكي للأسرة السنوسية المواليّة لبريطانيا في ليبيا، وذلك بانقلاب عسكريّ على النمط الناصري، بقيادة العقيد معمر القذافي، البالغ من العمر 27 سنة.
1980-1988	تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي لتعزيز التضامن الإسلامي وتشجيع التعاون السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين البلدان الإسلاميّة.
1970	حافظ الأسد، قائد سلاح الجو السوري، ينتزع مقاليد السلطة في سوريا على رأس حزب البعث.
1981	حرب أهليّة في الأردن بين الجيش الأردنيّ والفدائيين الفلسطينيين (ومن هنا منظمة «أيلول الأسود»).
1982	أنور السادات يتبوأ رئاسة الجمهوريّة في مصر عقب وفاة جمال عبد الناصر.
1972	بنغلادش، باكستان الشرقية سابقاً، تفوز باستقلالها بمعونة الجيش الهنديّ.
1973	حرب أكتوبر/تشرين الأول (حرب رمضان/حرب يوم كيبور). مصر تقيم رأس جسر على الضفة الشرقية لقناة السويس، في أول نجاح كبير تحرزه الجيوش العربيّة ضد إسرائيل.
1988	منظمة البلدان المصدّرة للبترول (أوبك) التي تنزعها إيران والمملكة العربيّة السعوديّة، تفرض زيادة قدرها أربعة أضعاف على أسعار النفط الخام، مما خلق لديها فائضاً هائلاً من البترودولار، للاستثمار في تصنيع اقتصاداتها ولمساندة الحركات الإسلاميّة في العالم؛ وأدى ذلك إلى حدوث ركود اقتصادي عالمي.
1989	اندلاع الحرب الأهليّة اللبنانيّة، لأسباب تعود جزئياً إلى
	وجود اللاجئين الفلسطينيين القتالين والعمليات الانشقاقية الإسرائيليّة ضدّهم.
	بدء التفاوض بين مصر وإسرائيل.
	ضياء الحق، القائد العسكري الباكستاني، يغتصب السلطة ويفرض الأحكام العرفيّة. إعدام الرئيس السابق ذو الفقار علي بوتو، وضياء الحق يشرع بتنفيذ برنامجه الخاص بأسلمة البلاد.
	وفاة علي شرعبي (م 1933)، المفكّر والفيلسوف الإسلامي، في مدينة ساوثمبتون ببريطانيا.
	استعمال الاضطرابات في إيران ضد ديكتاتورية الشاه محمد رضا بهلوي.
	آية الله الخميني يعود من منفاه في أوروبا ليقيم الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران. أخذ 52 دبلوماسياً أميركياً رهاناً واحتجاجهم لمدة 444 يوماً. اتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل تدسّن العملية السلميّة بين العرب والإسرائيليين.
	وفاة أبو الأعلى المودودي (م 1909)، المفكّر والمنظر الهندي - الباكستاني، ومؤسس «جماعتي الإسلامي» (الجماعة الإسلاميّة).
	الرئيس الباكستاني، ضياء الحق، يشرع بتطبيق «الحدود» أي العقوبات المتصوص عليها في القرآن لصنوف معيّنّة من السرقة والزنا وشرب الخمر.
	الغزو السوفييتي لأفغانستان، دعماً للنظام الشيوعي المعتدل. التسليح الغربي للمجاهدين يخلق كادراً جيد الإعداد من المناضلين الإسلاميين.
	الحرب الإيرانيّة - العراقيّة، الناجمة عن الاستفزازات العراقيّة لإيران، تتحوّل إلى أطول نزاع دولي مستديم في القرن العشرين، مؤمّعة ما لا يقل عن نصف مليون ضحية على الجانب الإيراني فقط، فضلاً عن خراب اقتصادي هائل. متطرفون إسلاميون يغتالون الرئيس المصري أنور السادات.
	إسرائيل تجتاح لبنان وتطرّد منظمة التحرير الفلسطينيّة إلى تونس.
	بداية الانتفاضة الفلسطينيّة الجماهيريّة الغفيرة تنتفض ضد الاحتلال الإسرائيلي؛ والأطفال، رُماة الحجارة، يشكّلون رأس الحربة في تلك الانتفاضة.
	الشيخ أحمد ياسين، رئيس المركز الإسلامي في غزة وعضو تنظيم الإخوان المسلمين الفلسطينيين، يؤسس «حركة المقاومة الإسلاميّة» (حماس).
	آية الله الخميني، المرشد الديني لإيران، يتجرّع السم ويقبل بوقف إطلاق النار مع العراق. مقتل الرئيس الباكستاني ضياء الحق في حادث طائرة مريب.
	صدر «الآيات الشيطانيّة» للكاتب البريطاني المسلم سلمان رشدي.
	محمد محمود طه، زعيم الإخوان الجمهوريين والمصلح ذو الميول الصوفيّة، يُعدم شنقاً بتهمة «الردة» في السودان.
	الخميني يُصدر «فتوى» ضد سلمان رشدي، مما يحول دون

- 1998 حدث انفراج بين إيران والغرب برغم وجود برغماتيين في الحكومة الإيرانية.  
وفاة الخميني (في حزيران/يونيو)، ليخلفه في منصب المرشد الديني الأعلى آية الله علي الخامنئي.  
في الجزائر، فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بـ 55 بالمئة من أصوات المقريين في الانتخابات البلدية.
- 1999 1990 1991 الزعيم العراقي صدام حسين يجتاح الكويت.  
عملية «عاصفة الصحراء» بقيادة الولايات المتحدة وبمساندة عسكرية من بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والمملكة العربية السعودية، ومصر، وسورية، وباكستان، تنتج في طرد القوات العراقية من الكويت.  
انتفاضة شعبية في مدينتي النجف وكربلاء العراقيتين تقع بوحشة.  
تفكك أوصال لاتحاد السوفييتي، بعد فشل الانقلاب العسكري على غورباتشيف، يؤدي إلى استقلال جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية إنما تحت حكم أفراد من الشريحة الطغلبية المنتفذة السوفييتية السابقة. التنافس بين القيادة الشيوعية السابقة والمعارضة الإسلامية في طاجيكستان يتخض عن حرب أهلية مريرة ومكلفة.  
في الجزائر، الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بـ 49 بالمئة من أصوات الناخبين في الجولة الأولى من الانتخابات العامة. الجيش يتدخل للحؤول دون فوز الجبهة في الجولة الثانية، ما أثار حرباً أهلية دامت ثماني سنوات يقال إنها كبدت البلاد مئة ألف قتيل على أقل تقدير.
- 2000 1992 متشدّدون إسلاميون يُلْقون النار على الكاتب والمفكّر الإنساني المصري البارز، فرج فودة، ويردونه قتيلاً في القاهرة.  
إقامة منطقتين يحظر فيهما الطيران في شمال العراق وجنوبه لمنع هجمات القوات العراقية على السكّان الأكراد والشيعية العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تتسبّب بمصاعب جمةً للفئات الهشة من المواطنين وفي طليعتها الأطفال.
- 2001 1994 1995 1996 1997 اغتيال الشبّ حسني، مطرب «الراي» الشعبي الجزائري في فرنسا. والطاهر جعوط، الروائي والناشر الحائز على عدة جوائز أدبية، يردي قتيلاً خارج منزله في مدينة الجزائر.  
مقتل أكثر من سبعة آلاف مُسلم ومسلمة في مذبحة سربرنيتشا بالبويسنة والهرسك، بعدما أخفقت قوات الأمم المتحدة في حماية الجيب المسلم من هجمات صرب البوسنة.  
حركة طالبان، المعوِّلة على طلاب المدارس الدينية في أرياف أفغانستان، تستولي على كابول. برنامجها لوضع حد للعنف، يعكس سلباً على وضع النساء والأقليات في البلاد.  
مقتل أكثر من 60 سائحاً أوروبياً بالقرب من مدينة الأقصر في مصر على أيدي متطرفين إسلاميين.  
محمد خاتمي، وزير الثقافة السابق، يُنتخب رئيساً للجمهورية في إيران.
- 2002 2003 2004
- مقاتلو طالبان يُجهزون على ما يتراوح بين ألفين وخمسة آلاف فرد من طائفة الهزارة الشيعية بعد استيلائهم على مزار الشريف.  
«القاعدة» تُهاجم سفارات للولايات المتحدة في شرق إفريقيا.  
عبد العزيز بوتفليقة، وزير الخارجية الجزائري الأسبق، يُنتخب رئيساً للجمهورية بناءً على برنامج للمصالحة الوطنية.  
مظاهرات مؤيدة للديمقراطية في إيران تقمعها الشرطة بإيعاز من القوى المحافظة.  
حملة من القصف الجوي بشنّها حلف شمالي الأطلسي تُجبر الصرب على التخلي عن كوسوفو، وتضع حداً للتطهير العرقي بحق المسلمين الألبان.  
روسيا تقصف الشيشان تحت ذريعة محاربة «الإرهاب الإسلامي».  
(حزيران/يونيو) الروس يحتلون غروزني، عاصمة الشيشان.  
في باكستان، الجنرال برويز مشرف يُطرح بحكومة نواز شريف المُنتخبة ديمقراطياً.  
(أيلول/سبتمبر) خاطفو طائرات انتحاريون مرتبطون بـ«القاعدة»، بهاجمون مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع (البنّاغون) في واشنطن، فيزهقون أرواح ثلاثة آلاف شخص تقريباً.  
الولايات المتحدة تقصف أفغانستان وتزيل نظام طالبان من السلطة.  
(تشرين الأول/أكتوبر) مجموعة إرهابية مرتبطة بـ«القاعدة»، تقتل أكثر من 200 شخص، معظمهم من الأستراليين، في تفجير ملاء ليلية في بالي بأندونيسيا.  
(آذار/مارس) الولايات المتحدة وبريطانيا تُهاجمان العراق من غير موافقة الأمم المتحدة، متذرعتين بأن صدام حسين يخفي أسلحة دمار شامل. ولم يُعثر على أي أثر لتلك الأسلحة.  
إرهابيون إسلاميون مرتبطون بـ«القاعدة»، يُقدّمون على قتل مئتين أبرياء في الدار البيضاء، والرياض، واستنبول، ومدن أخرى.  
(كانون الأول/ديسمبر) القبض على صدام حسين بالقرب من مسقط رأسه، تكريت.  
هزيمة الإصلاحيين في الانتخابات البرلمانية الإيرانية بعدما رفض «مجمّع تشخيص مصلحة النظام»، الذي يُسيطر عليه رجال الدين، طلبات ترشيح العديد من أنصار التيار الإصلاح.





ماليز روثغن: من الكتّات البارزين عن الإسلام والعالم الإسلامي. من مؤلفاته: «الأصولية: البحث عن معنى» (2004): «الإسلام: مدخل وجيز جداً» (1999): «غضب الرب: الهجوم الإسلامي على أميركا» (2002): «مسألة شيطانية: سلمان رشدي وغضبة الإسلام» (1990): «الإسلام في العالم» (1984 ، 2000). كتب عدة سيناريوهات لهيئة الإذاعة البريطانية، وحاضر في الدراسات الإسلامية والتاريخ الثقافي والأديان المقارنة في جامعات بريطانية وأميركية، وهو اليوم كاتب متفرغ يقسم وقته ما بين لندن والنورماندي.

البروفسور عظيم نانجي: مدير معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن. عمل سابقاً أستاذاً ورئيس دائرة الأديان بجامعة فلوريدا، وشغل مناصب عدة في مختلف الجامعات الأميركية والكندية. من بين الكتب المنشورة له: «تمثيل الدراسات الإسلامية في خرائط» (1997)، و«الروزنامة الإسلامية» (1996).

إشادات بكتب ماليز روثغن:

الإسلام: مدخل وجيز جداً

الغارديان

«ممتاز»

غضب الرب

«عمل يتسم بعمق الرؤية والاطلاع على خفايا الأمور»

كولن ثوبرون

«ممتاز... روثغن مراقب رائق ولماح»

وليم دالريمبل

الإسلام في العالم

«استبصار غير عادي، وفكر يحفز على الاستزادة من معرفة الإسلام»

جون ل. اسهوزيتو

# من غزوات النبي محمد ﷺ إلى معارك المجاهدين نظرة بانورامية على 1500 سنة من تاريخ دين وشعبه

يجمع هذا الأطلس التاريخي الجديد، الصادر في أوانه تماماً، ما بين الرواية السردية لتاريخ الإسلام ومسار تطوره والعرض الشيق والجذاب لخرائط ورسوم بيانية غنية بالمعلومات والمعطيات. إنه يقدم لنا لوحة أسرة لواحد من أعظم أديان العالم - دين تعتنقه خمس البشرية - في وقت لم يسبق قط أن بلغ الاهتمام بالإسلام هذه الدرجة من الشدة وحب الاستطلاع أعد الأطلس كاتبان يعدان من المراجع الثقات حول الإسلام، وقد جاء تصنيفه على نحو يجعل منه مدخلاً ومرجعاً للقارئ العام وللطالب على حد سواء.

■ يغطي الأطلس الفترة الزمنية الممتدة من أواخر العصر القديم ما قبل الإسلام إلى يومنا الحاضر.

■ يشتمل على تغطية مستقلة لكل منطقة على حدة: الشرق الأوسط، وإفريقيا، وآسيا الوسطى، والهند، وجنوب شرقي آسيا، وأوروبا، وأميركا الشمالية.

■ يضم الأطلس حوالي 100 خريطة ملونة تبيّن لنا الطبيعة المتحوّلة للحدود والتركّزات السكانية وطرق التجارة الرئيسية، وتتابع صعود وسقوط السلالات الإسلامية الحاكمة والمذاهب الدينية، كما تستجلي كيفية تدرُّع الثروات المعدنية والموارد المائية، والأنماط الزراعية، والمواقع الأثرية، والعديد من العناوين الأخرى.

■ يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية الملونة العادية.



Bibliotheca Alexandrina

0430936

ISBN 9953-37-377-9



9 789953 373775